

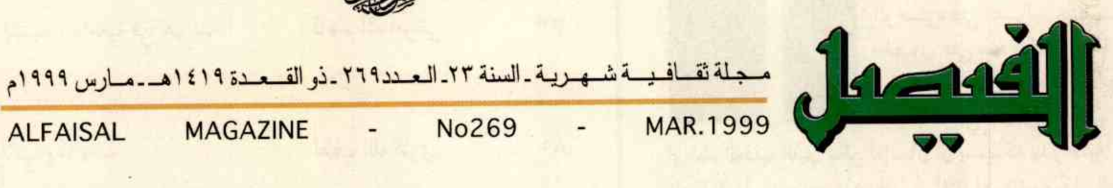
مجلة ثقافية شهرية - العدد ٢٦٩ - ذو القعدة ١٤١٩ هـ - مارس ١٩٩٩ م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 269 - MAR.1999

الطريق إلى ذي عين

■ الماء: قضية القرن القادم ■ لايدن.. المدينة الجامعية ■ المنمنمات في أوزبكستان

■ الحريضة: مشروع تنموي ■ علم الجمال والثقافة الإسلامية ■ الأسطرلاب وما بعده





الفيصل
مجلة ثقافية شهرية - السنة ٢٣ - العدد ٢٦٩ - ذو القعدة ١٤١٩هـ - مارس ١٩٩٩م
ALFAISAL MAGAZINE - No269 - MAR.1999

المحتويات

استطلاع

الحريضة: مشروع تنموي حضاري — **إعداد قسم التحرير** — ٤

مقالات

الماء: قضية القرن القادم — **درويش إبراهيم يوسف** — ٩

عولمة الثقافة وعولمة السياسة: أيهما يصلح للهيمنة؟ — **محمود طه شيحة** — ١٧

الوضع وكشفه — **عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر** — ٢٤

الجبرية الجديدة — **عبدالله بن سليمان القفاري** — ٢٥

أعلام

شارلوت برونتي وروايتها جين إير بين الواقع والخيال — **فؤاد أحمد رزق فرسوني** — ٢٨

الطريق إلى ذي العين — **عبدالله الكويليت - هاشم الشريف** — ٣٣

ثقافة

نحو المشروع الجمالي: علم الجمال والثقافة الإسلامية — **أحمد محمود الخليل** — ٤٩

علامات الترقيم: فكرًا لا تقليدًا — **أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري** — ٥٥

مستجدات العصر ومتغيراته في ضوء السياسة التعليمية — **محمد بن إبراهيم الملحم** — ٦٢

السخرية في روايات بابيستير — **عبدالفتاح عوض** — ٦٨



الحريضة: مشروع تنموي حضاري

خيرية الفيصل النموذجية بالحريضة الواقعة في تهامة عسير ليست مشروعًا إسكانيًا لتوطين ٢٠٠ أسرة فحسب، وإنما مشروع تنموي يتجاوز فكرة الإسكان إلى إقامة منطقة حضرية مستقبلية تتوافر فيها ظروف الحياة العصرية، وفرص العمل للارتقاء بالسكان ثقافيًا وحضاريًا.

الطريق إلى ذي عين

٣٣

ذي عين مكان بكر على قدمه، تتزاوج فيه الحقيقة والأسطورة. هي قرية صغيرة تغفو في حضن تهامة، مكتسبة اسمها من عين ماء فيها.
وذي عين إذ تظل صامدة أمام سطوة الأيام، وشاهدة على عظمة من بناها، فإنها تبقى في انتظار من ينفض عنها غبار الإهمال الذي يكاد يطمس ملامحها.

سياسة التعليم ومستجدات العصر ومتغيراته



تتمحور سياسة التعليم في المملكة العربية السعودية حول الإنسان بوصفه صانعًا للتنمية وهدفًا لها في الوقت نفسه.
وتحتم التحديات الثقافية والحضارية التي يفرضها العصر ضرورة أن يكون التعليم متجددًا في بناه ونظمه وبرامجه ومناهجه حتى يستطيع التفاعل مع المستجدات تفاعلاً يحافظ على هوية الفرد، ويصون قيم المجتمع، ويدعم ركائزه.

مدن

لايدن: المدينة الجامعية في هولندا — قاسم السامرائي — ٧٣

علوم

الأسطرلاب وما بعده — لطف الله قاري — ٨١

إبداع

حصار الوهم — محمد علي وهبه — ٨٩

الذي نسي الحليب — بسّام الطعان — ٩٢

انسلاخ — فاروق حسان — ٩٤

العجوز: فالنتين راسبوتين — ترجمة: هاشم حمادي — ٩٦

رسالة إلى المتنبي — خالد سعيد عبدالمعبود — ٩٩

اليتيمة — دوقلة المنبجي — ١٠٠

موقف الرمال.. موقف الجناس — محمد الثبيتي — ١٠٢

فنون

مقتنيات من التراث الفني الإسلامي — ترجمة: نعيم الغول — ١٠٥

قراءات

مستقبل الهوية المغربية أمام التحديات المعاصرة: **مجموعة باحثين** — مراجعة: قسم التحرير — ١١٣

الحملة الفرنسية: تنوير أم تزوير؟: **ليلى عنان** — مراجعة: يوسف حمدان — ١١٨

اللعبة الكبرى في آسيا الوسطى الإسلامية: **م. إ. أحراري** — مراجعة: إلكسندر إيفانوف — ١٢١

معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين — مراجعة: يوسف عز الدين — ١٢٤

إصدارات — ١٢٧

الرسم الحديث للمنمنمات في أوزبكستان : **ش. شيكبوف** — مراجعة: شاه رستم شاه موساروف — ١٢٩

الحرفيون في مدينة جدة: **وهيب كابلي** — مراجعة: قسم التحرير — ١٣٦



الماء: قضية القرن القادم

يشكل الماء العذب ٣٪ من الماء الموجود في العالم، ويصعب الحصول على هذه الكمية كاملة لأن ٩٩٪ منها موجودة في الأنهار الجليدية أو في أعماق الأرض، ومع أن الماء العذب الذي يمكن للإنسان أن يستهلكه يبدو ضئيلاً، إلا أنه كاف لسد حاجات ضعفي أو ثلاثة أضعاف سكان العالم الحالي.. إذن، لماذا الصراع على الماء؟



علم الجمال والثقافة الإسلامية

اهتم المفكرون والفلاسفة المسلمون بتحليل الجمال وتنظيره مدفوعين بتأثير المنطلقات الجمالية المتأصلة في العقيدة الإسلامية التي تتحد فيها الضرورة الوجودية بالضرورة الجمالية؛ ولم يكن الجدل الفكري الجمالي ضربًا من الترف الثقافي وإنما كان منحى اعتقاديًا فلسفيًا يلقي بظلاله على مشكلات خطيرة.

شارلوت برونتي وروايتها جين إير بين الواقع والخيال

تعد رواية «جين إير» سيرة ذاتية لكاتبتها شارلوت برونتي، وهي تثير سؤالاً عن مدى امتزاج الواقع بالتصور في الكتابة الروائية.



لايدن المدينة الجامعية في هولندا

مع أن مدينة لايدن صغيرة موازنة بالمدن الهولندية الأخرى، إلا أنها تمتاز من غيرها بوجود أقدم جامعة هولندية ومؤسسة برل للنشر فيها، وتضم مكتبة هذه الجامعة ما يزيد على ثلاثة ملايين كتاب، ودوريات، ومجموعات وثائقية، ومخطوطات غربية ومشرقية، وكتبًا نادرة، وخرائط فريدة.



الأسطرلاب وما بعده

مع أن أهل الحضارة الهيلينية عرفوا الأسطرلاب، بدليل وجود بعض القطع الأثرية التي تتكون من صفائح مثل الصفيحة الأسطرلابية، إضافة إلى وجود مؤلفات غربية ترجع إلى ما قبل الإسلام، إلا أن الثابت أن العلماء المسلمين أدخلوا عليه تطورات كبيرة؛ فكيف تطور الأسطرلاب في ظل الحضارة الإسلامية؟



السخرية في روايات باييستير

جاءت الرواية الأولى للكاتب الإسباني جونثالو تورينتي بايستير «خابيير مارينو» غريبة في التركيب الشكلي والفكري، فكانت بدايته لإبداع ما يسمى بالأسطورة السياسية من خلال المحاكاة الساخرة لإبراز بُعد المسافة بين الواقع والبيانات الرسمية.

علامات الترقيم فكرًا لا تقليدًا

أخذ مثقفو النهضة العربية الحديثة علامة الترقيم من الغرب وأصلوها، لما رأوا فيها من فائدة في توجيه نظر القارئ إلى مقصود الكاتب توجيها يزيل ما قد يرد عليه من احتمال؛ فماذا عن الخلاف حول مواضعها؟



الجبرية الجديدة

تقدم العلم يحقق للإنسان التقدم في جميع مجالات حياته، إلا أن التطبيقات غير الأخلاقية لمكتسبات العلوم أصبحت تثير الجدل والقلق في آن واحد.

كما أن رد سلوكيات الإنسان جميعها إلى أسباب عضوية فسيولوجية، تثير سؤالاً ينبغي الإجابة عنه: كيف للمكون الوراثي والبناء العضوي الفسيولوجي أن يطغى على دور التربية والتنشئة الاجتماعية؟



عولمة الثقافة أم عولمة السياسة؟

العولمة انفتاح على العالم مع حق الخلاف الفكري أم أنها نفي للآخر واختراق ثقافي؟ سؤال تختلف الإجابة عنه باختلاف المنطلقات والأهداف.

وهل تتساوى تأثيرات العولمة في مجالات العلوم والسياسة والاقتصاد مع عولمة الثقافة والفكر؟

مقتنيات

من التراث الفني الإسلامي

يملك الدكتور ناصر خليلي مجموعة من أثمن المقتنيات الفنية التي قام بفهرستها خبراء في هذا الفن.

تحتوي هذه المجموعة على عدد كبير من المصاحف المخطوطة والمنمنمات والمشغولات المعدنية وأجهزة تتعلق بالسحر والكهانة وسجاد ومنسوجات ومصنوعات زجاجية وغيرها.

فكيف تجمعت لديه هذه المجموعة التي يمكن أن تشكل متحفًا متكاملاً للفن الإسلامي؟



الناشر: دار الفيصل الثقافية

الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

المراسلات للتحرير والإدارة:

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ٤٦٥٢٢٥٥

ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:

١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات، أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

السعر الإفرادي:

السعودية ٨ ريالات ـ الكويت ٦٥٠ فلس ـ الإمارات ٧ دراهم ـ قطر ٧ ريالات ـ البحرين ٧٥٠ فلس ـ عُمان ٧٥٠ بيسة ـ الأردن ٥٠٠ فلس ـ اليمن ٦٠ ريالاً ـ مصر جنيهان ـ السودان ١٥٠ جنيه ـ المغرب ٨ دراهم ـ تونس دينار واحد ـ الجزائر ١٠ دنانير ـ العراق ٤٠٠ فلس ـ سورية ٣٠ ليرة ـ ليبيا ٨٠٠ درهم ـ موريتانيا ١٠٠ أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠ شلن ـ جيبوتي ١٥٠ فرنك ـ لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الإعلانات:

هاتف : ٤٦٥٢٢٥٥

ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: **يحيى محمود بن جنيد**

مدير التحرير: **عبدالله يوسف الكويليت**

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢

ردمد ١١٤٠ ـ ٠٢٥٨

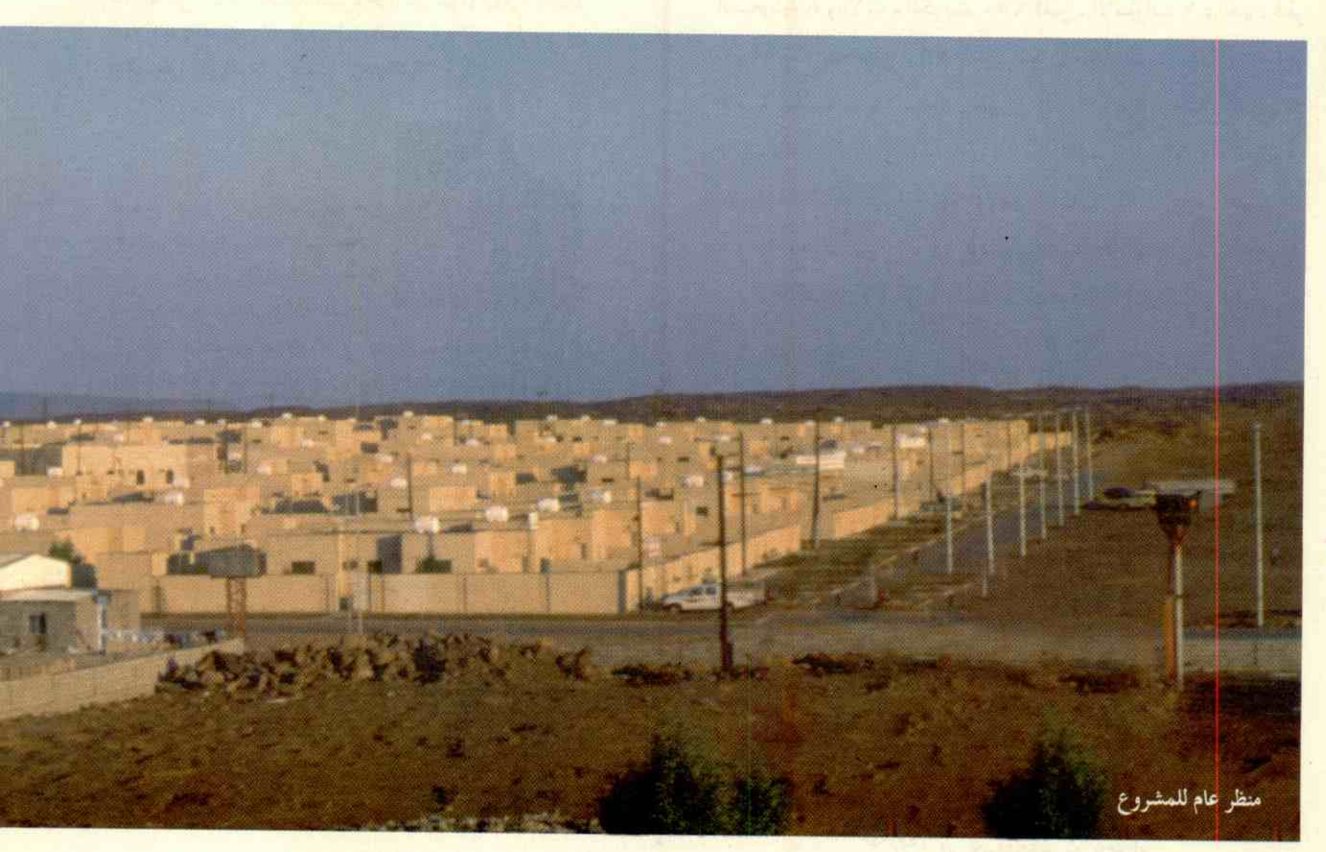
الحريضة:

مشروع تنموي حضاري

إعداد: قسم التحرير

قام صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبدالعزيز وزير الداخلية يرافقه صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل أمير منطقة عسير والمدير العام لمؤسسة الملك فيصل الخيرية في ٢٤ جمادى الآخرة ١٤١٩هـ (١٤أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩٨م) بتسليم صك ملكية منازل لأول مئة أسرة تنتقل إلى خيرية الفيصل النموذجية في تهامة عسير.

ويقع هذا المشروع بمنطقة الحريضة بمحافظة الشعبين الواقعة في تهامة عسير على مساحة تبلغ ٣٦٠ ألف متر مربع، ويمثل المشروع الثاني الذي تقوم بتنفيذه مؤسسة الملك فيصل الخيرية في منطقة عسير.



منظر عام للمشروع



صورة من الخارج وأخرى من الداخل توضحان توافر كل أسباب الراحة للساكنين



يرمي المشروع إلى توطين ٢٠٠ أسرة من ذوي الدخل المحدود



اللوحة التذكارية

الحبلة: المشروع الأول

وكان المشروع الأول هو قرية الملك فيصل النموذجية التي شملت توطين ٦٥ أسرة، تم نقلها من قرية الحبلة التي كانت تعيش في شبه عزلة تامة لوقوع جزء منها في هوة عميقة بعمق ٣٠٠ إلى ٥٠٠ متر، ولم تكن تملك وسيله لانتقال ساكنيها إلا الحبال لتسلق الجبال، ومن هنا اكتسبت القرية اسمها «الحبلة».

وتبعد هذه القرية ٥٠كم من مدينة أبها، و٤٠ كم من مدينة خميس مشيط، وهي الآن منتجع سياحي، وأحد مشروعات الشركات الوطنية للسياحة (سياحية).

وبلغت تكلفة إنشاء القرية ١٥ مليون ريال، وهي تشتمل على الخدمات والمرافق الأساسية من مدارس ومستوصف ومسجد ومياه وكهرباء وجمعية تعاونية.

وافتتحها الأمير خالد الفيصل في ٢٨ ربيع الآخر ١٣٩٩هـ، ويبلغ عدد الأسر في الوقت الحالي ١٦٥ أسرة، ويبلغ عدد السكان أكثر من ٢٠٠٠ مواطن.

أما مكان القرية القديم فقد أصبح يضم مشروعًا سياحيًا يتكون من ٢٠ فيلا سكنية مجهزة، ومؤثثة، أقيمت حولها حدائق، وممرات مشاة، وجلسات، وملاعب أطفال، إضافة إلى المرافق والخدمات الضرورية من مسجد، ومركز تجاري، ومطاعم، ومحلات للوجبات السريعة، ومركز خدمة سيارات، وعيادة طبية، ومركز أمن.

كما أن بها عربات الحبلة المعلقة (التلفريك) التي تم تجهيزها بأحدث وسائل الراحة والسلامة، والتي تتيح رؤية القرية من ارتفاع ٤٥٠ مترًا.

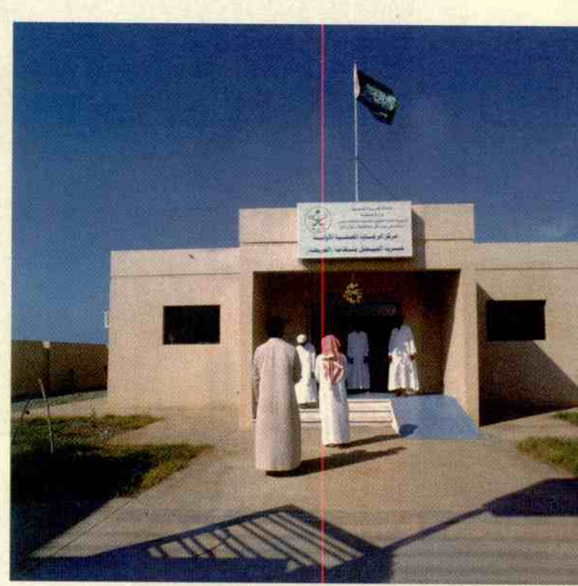
وهناك أماكن للجلوس على حافة القطع الصخري يمكن منها رؤية جزء من تهامة والقرية القديمة، ومتابعة حركات العربات المعلقة.

ويشتمل المشروع على حديقة تضم أنشطة ترفيهية، وملاعب للأطفال، وجلسات، ومحلات للوجبات السريعة، ومواقف للسيارات، مع الخدمات والمرافق الضرورية الأخرى.

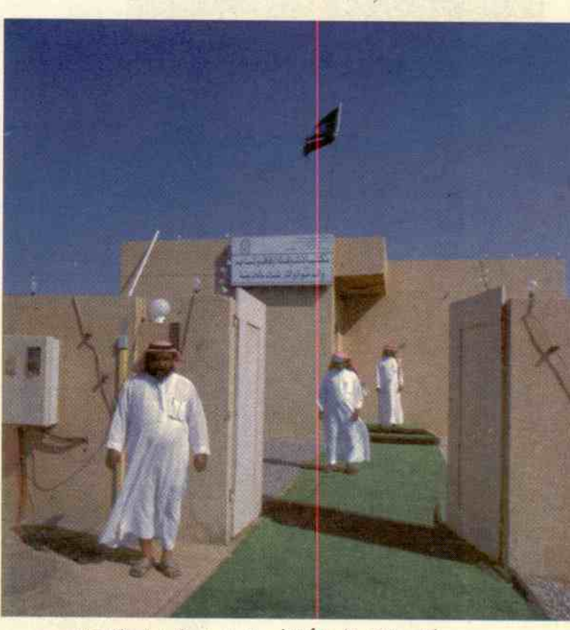
الحريضة: تجربة جديدة

يتكون هذا المشروع الذي دشنه صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبدالعزيز من ٢٠٠ وحدة سكنية، أنجز منها ١٠٠ وحدة سكنية، قامت بتمويل إنشائها مؤسسة الملك فيصل الخيرية، بينما تكفل رجل الأعمال الشيخ خالد بن محفوظ بتمويل إنشاء ١٠٠ وحدة سكنية أخرى في إطار ما تقوم به حكومة خادم الحرمين الشريفين من تشجيع القطاع الخاص للمشاركة الجادة في المشروعات الحيوية.

ويرمي المشروع إلى توطين ٢٠٠ أسرة من ذوي الدخل المحدود، مع توفير الخدمات والمرافق الضرورية لها من مياه وكهرباء، وصرف صحي، ووسائل للاتصال، وشبكة طرق، ومساجد ومركز تجاري، ومختلف المرافق الاجتماعية.



مركز الرعاية الصحية الأولية بالمشروع



مكتب الإشراف للأوقاف والمساجد والدعوة والإرشاد



مساحات خضراء تحيط بالوحدات السكنية

حمام السباحة من المرافق الترفيهية بالمشروع

دراسة وافية

واعتمد إنشاء القرية على دراسة وافية تحقق الهدف المنشود منها بأيسر السبل، مع توفير فرص العمل الكريم لساكنيها، من خلال المشروعات التنموية المزمع إقامتها في المنطقة، مثل مشروع شركة الأسماك، والمشروعات السياحية التي تعمل على تنفيذها الشركة الوطنية للسياحة في تلك المنطقة.

ولذلك روعي أن يكون معظم المستفيدين من قاطني تلك المنطقة والمناطق المجاورة، مع الاستفادة من البنية الأساسية التي شيدتها حكومة خادم الحرمين الشريفين من طرق ومصادر مياه وشبكات كهرباء واتصالات، ومن ثم جاء اختيار الموقع ليكون على مفترق طريقين رئيسين أحدهما الطريق الساحلي الذي يربط جنوب غرب المملكة العربية السعودية ببقية المناطق، والآخر الطريق الذي يربط منطقة تهامة ببقية مناطق عسير.

مشروع تنموي

وهذه الجوانب التي روعيت عند إنشاء هذا المشروع يوضح أنه يشكل مشروعًا تنمويًا يتجاوز فكرة الإسكان إلى إقامة منطقة حضرية مستقبلية تتوافر فيها ظروف الحياة العصرية وفرص العمل، مما يتيح الارتقاء بمستوى ساكنيها ثقافيًا وحضاريًا.

ويشير إلى ذلك صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل بقوله: «إننا بهذا المشروع نقدم للأسرة الفقيرة والمحتاجة في هذه المنطقة الصعبة جغرافيًا وطبيعيًا

الأمير خالد الفيصل: الإنجازات الكبيرة لا تتحقق إلا بالبذل والعطاء والسعي الدؤوب وتضافر جهود الجميع



منظر طبيعي من البيئة المحيطة

الفرصة لتملك منازل مجانية، والتعليم المجاني لأطفالهم والدعم المالي لمساعدتهم على تأسيس أعمال خاصة توفر لهم مورد الرزق، والعيش الكريم، بعد أن روعي أولاً توفير المرافق البلدية، وطرق المواصلات، والاحتياجات الأخرى».

تفصيلات المشروع

تقع كل وحدة سكنية على مساحة لا تقل عن ٦٠٠ متر مربع، محاطة بفناء من جهاتها الأربع، وتضم كل وحدة سكنية غرفتي استقبال إحداهما للرجال، والآخرى للنساء، إضافة إلى غرفة الطعام، وغرفة المعيشة العائلة، وغرف للنوم ومطبخ ودورات مياه، ولأن معظم المستفيدين من المشروع من الذين يمتهنون الرعي، فقد ضمت كل وحدة سكنية مستودعًا للأعلاف.

وترتبط كل مجموعة من الوحدات السكنية مع بعضها بساحة كبيرة خصصت حديقة وملاعب للأطفال تتوافر لها شروط السلامة، مع إمكان وصول المشاة إلى أي منطقة من المشروع من دون تقاطع مع حركة السيارات، وفي الوقت نفسه يمكن للسيارة الوصول إلى كل وحدة سكنية، فضلاً عن توافر مواقف لساكني الوحدة وزوارها.

ويضم المشروع مسجدين: أحدهما جامع يسع نحو ٦٠٠ مصل، والآخر بسعة ٤٠٠ مصل، وأنشئت بالمشروع مدرستان حديثتا التجهيز، إحداهما للبنين، والأخرى للبنات، وتتسع كل واحدة منهما لعدد ٤٠٠ طالب وطالبة.

وبالمشروع مركز صحي يشتمل على قسم للطوارئ، ومركز للولادة، وغرف للعلاج، وأخرى للكشف، إضافة إلى الإدارة والسجلات الطبية، ومتطلبات مركز الرعاية الأولية.

ويضم المشروع مقراً لمركز الرعاية الاجتماعية، ومجمعًا للمرافق الخدمية الحكومية لمركز الإمارة، والبلدية، والشرطة، والهاتف، والكهرباء، والزراعة، والمياه.

وأنشئ مركز تجاري متكامل لتوفير احتياجات الساكنين الحالية والمستقبلية من السلع والخدمات، ويتكون من سوق مركزي بالمشروع، و ٢٠ محلاً تجاريًا أخرى.

أما الحدائق العامة بالمشروع فيبلغ عددها عشر حدائق متفرقة، بمساحة إجمالية ١٥ ألف متر مربع، وتم رصف وسفلتة جميع الطرق والممرات، وبلغت مساحة الطرق المسفلتة بالمشروع نحو ٧٥ ألف متر مربع.

وأنشأت مؤسسة الملك فيصل الخيرية مشروعًا استثماريًا عبارة عن موتيل بالقرب من المشروع للاستفادة من ريعه في التنمية المستقبلية وصيانة المشروع.

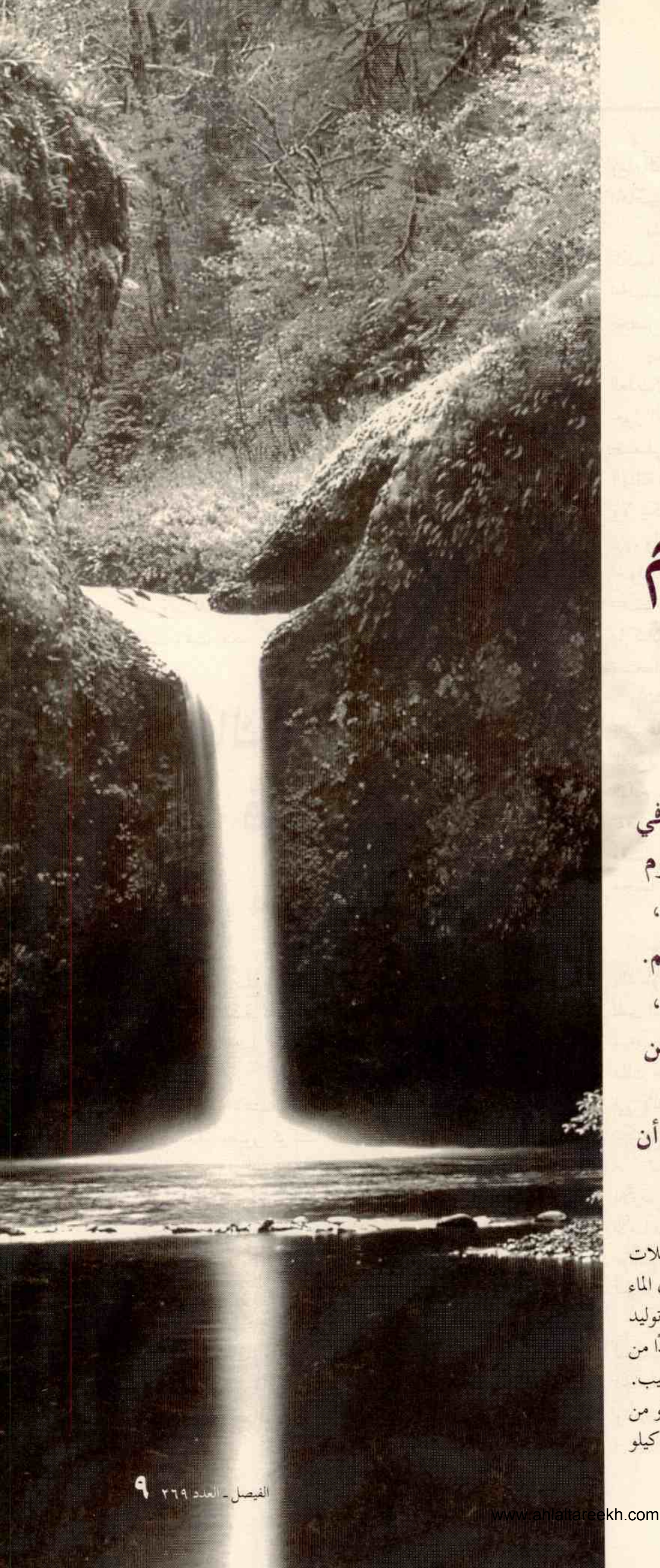
ومن واقع التجارب التنموية في منطقة عسير وغيرها من مناطق المملكة، كان تأكيد صاحب السمو الأمير خالد الفيصل: «لقد علمتنا التجارب أن الإنجازات الكبيرة لا يمكن تحقيقها إلا بالبذل والعطاء والسعي الدؤوب، وما نراه ماثلاً أمامنا من نتائج باهرة ونجاحات كبيرة، انعكست على حياة العديد من الناس لم يأت من فراغ، ولكنه تحقق بتضافر جهود الجميع».



مركز الرعاية الصحية يتبع نظام الملف الطبي



يضم المشروع مدرستين حديثتي التجهيز إحداهما للبنين والأخرى للبنات



الماء قضية القرن القادم

درويش إبراهيم يوسف

الفجر يشقّقُ آخر بقايا الظلمة. ويبدأ الناس في منازلهم في النهوض من ليلة أخرى من النوم المريح؛ ولابد أن تتدفق المياه في الحمامات، وأن تغدق الصنابير الماء كي تنعش أجسامهم. وهنالك عيون ناعسة توقظ برشقة من الماء، ولحى ستحلق، وثمة أباريق من الماء ستُعدّ من أجل الشاي أو القهوة اللذين لابد منهما، والصحون الملوثة والثياب المتسخة التي يلزم أن تغسل بالماء النظيف.

وبينما ترتفع شمس الصباح في السماء، تبدأ عجلات الصناعة في الدوران. وتفتح الصمامات ليجري الماء الذي هو شريان الحياة الضروري جداً للتسخين، والتبريد، وتوليد الطاقة الكهربائية، وتركيب المواد الكيماوية، والكثير جداً من الأشياء الأخرى، ويمكن أن يجري الماء كيلو مترات عبر الأنابيب.

المطاعم والمقاهي تعدّ ليوم آخر من العمل الذي لا يخلو من الإسراف في استخدام المياه. وفي الأراضي الجافة، ستقوم كيلو

مترات من الأنابيب والآلاف من رؤوس المرشات بتصريف ملايين الأمتار المكعبة من الماء الثمين لري المزارع التي تنتج الكثير الكثير من الطعام للمدن.

الماء، الذي لا لون له ولا رائحة ولا طعم له ولا طاقة، عنصر أساسي لكل حياة على الأرض. فما من إنسان أو حيوان أو نبات يستطيع أن يحيا من دونه. والماء هو الأكثر ضرورة للجميع بعد الهواء؛ من الفيل إلى الجرثومة؛ ولا بديل له. وكل واحد من سكان الأرض الذين يزيدون على خمسة بلايين بحاجة إلى أن يستهلك، في السوائل والأطعمة، نحو ليترين ونصف الليتر من الماء يوميا للبقاء بصحة جيدة. فمن دون الطعام، يمكن أن يعيش الإنسان أكثر من شهر. أما من دون ماء، فسيموت خلال أسبوع. وإذا فقد جسمه أكثر من عشرين في المئة من محتواه الطبيعي من الماء، فسيقضي بموت أليم.

عبر التاريخ، كان هنالك سعي عنيف وراء الماء، فقد شنت الحروب للسيطرة على موارده. والبلدان والمدن والإمبراطوريات قامت ونمت عندما كان الماء وافرًا. وبعضها هجرت عندما نفدت

هناك وفرة من الماء العذب في العالم، إلا أنه غير موزع بالتساوي

موارد المياه. وصنع الإنسان تماثيل للمياه وعبدها كآلهة. وقد تضرع إليها بشعائر وقرابين عظيمة عندما كان الماء شحيحًا، ونسب إليها الفضل عندما وجد الماء.

كوكب مائي ولكن!

لماذا هذا الاهتمام العالمي بالماء؟ فلسعادتنا، هنالك وفرة من الماء. فعندما يصور كوكبنا الأزرق الجميل من الفضاء الخارجي، يبدو كما لو أنه يجب أن يدعى الماء، لا الأرض. وفي الواقع، يغطى الماء سبعين في المئة من سطح الأرض. ولو غمر ماء العالم بشكل متساوٍ سطحَ الكوكب، لشكّل محيطًا عالميًا عمقه كيلين ونصف الكيل. ويمكن لمساحة المحيط الهادئ أن تستوعب كل مساحات الأرض اليابسة مع بقاء متسعات.

يبلغ حجم الماء على الأرض أكثر من خمسمئة وأربعين مليون كيلو متر مكعب. ولكن معظم مياه الأرض موجود في البحار، وماء البحر ملح. وإذا شرب إنسان ماء البحر، فسرعان ما يموت من العطش والجفاف بينما يحاول الجسم التخلص من الماء الملح. وماء البحر ليس خيارًا صائبًا للزراعة أو للصناعة - إنه يقتل معظم المحاصيل، ويجعل معظم الآلات تصدأ بسرعة.

يشكل الماء العذب ثلاثة في المئة فقط من ماء العالم، وكل هذه الكمية تقريبًا - نحو تسعة وتسعين في المئة منها - محجوز في الأنهار الجليدية والقلانس الجليدية أو عميقًا تحت الأرض، ويمكن أن يحصل الجنس البشري على واحد في المئة فقط بسهولة.

إن نسبة ١٪ لا تبدو كثيرة. فهل يرجح أن نستنفد الماء العذب؟ ربما لا. فحتى هذه النسبة الضئيلة، إذا وزعت بالتساوي حول العالم واستعملت بشكل معقول، تكون كافية لسد حاجات ضعفي أو ثلاثة أضعاف سكان العالم الحالي، بخلاف العنفات الهائلة الحجم التي تولد الكهرباء للمنازل والاستخدامات الصناعية، ولا يمكن تصنيع ماء جديد؛ فالكمية الإجمالية للماء على الأرض لا تزيد ولا تنقص بسبب الدورات التي لا تنتهي في الأرض، وما حولها: من المحيطات إلى الجو، إلى التربة، إلى الأنهر، ثم إلى المحيطات مرة أخرى. وهكذا فإن كل الماء الذي لدينا الآن هو كل ما كان لدينا في أي وقت مضى - أو ما سيكون لدينا. فالماء الذي نستعمله اليوم يمكن أن يكون قد أطفأ ظمأ ديناصور ذات مرة.

تشير الحقائق إلى أنّ هنالك من الماء العذب على الأرض ما يزيد على سد حاجة كل فرد. مع ذلك يحذر إسماعيل سراج الدين، نائب رئيس البنك الدولي للبيئة، أن «الحروب في القرن القادم ستكون من أجل المياه». فهو يشير إلى أن ثمانين بلدًا لديها نقص في المياه يهدد الصحة العامة والاقتصاد. وفي الواقع سيأتي وقت، وهو قريب، يعدّ فيه الماء موردًا ثمينًا كالنفط، وليس موردًا مجانيًا كالهواء. فماذا يكمن وراء أزمة المياه؟

البحث في الأسباب

حقًا هنالك وفرة من الماء العذب في العالم، إلا أنه غير موزع بالتساوي. وهذه هي المشكلة الرئيسة الأولى. مثلاً، يقدر العلماء أن لدى آسيا ستًا وثلاثين في المئة من الماء الذي يملأ أنهار العالم وبحيراته، وهي موطن ستين في المئة من سكان العالم. وفي مقابل ذلك نجد نهر الأمازون يحتوي على ١٥٪ من ماء الأنهر، لكن أربعة في الألف من سكان العالم يعيشون على مسافة قريبة منه بحيث يمكنهم استعماله.

تنطبق المشكلة عينها على الهطل المطري أيضًا. فمع أن الهطل للأرض وافر، فإنه لا يسقط بنسب متساوية عليها. ففي بعض الأماكن يكون الهطل غزيرًا جدا، في حين لا تمطر لسنوات في مواقع أخرى. وحتى بعض المناطق التي لا تعد قاحلة دائمًا، تعاني أحيانًا فترات من الجفاف.

وفي تلك المناطق الجافة يعتمد السكان على ضخ المياه الجوفية للحصول على الماء اللازم للشرب. وبسبب قلة الأمطار، تنشأ الحاجة إلى شبكات مائية ضخمة للزراعة تعتمد على المصدر نفسه. وتأمين هذه الكميات الهائلة من المياه يؤدي في النهاية إلى جفاف

الأحواض الجوفية. ففي ست من الولايات الأمريكية الغربية الوسطى هنالك أكثر من ربع مليون بئر تضخ المياه من الخزان المائي الجوفي الأكبر في العالم، وأدى هذا إلى انخفاض البساط المائي من ثلاثة إلى خمسة أمتار عبر مساحة مئتي ألف كيلو متر مربع.

وفي مدينة تاكسون الأمريكية، انخفض منسوب المياه الجوفية أكثر من خمسين متراً خلال السنوات الثلاثين الأخيرة.

وحول العالم تندب عدد من البلدان بمرارة استنزاف مياهها الجوفية. ففي العقدين الأخيرين، وجدت الهند أن مستويات المياه الجوفية قد انخفضت في المناطق الجنوبية أكثر من خمسين متراً نتيجة الإفراط في ضخ الماء من أجل الزراعة. وفي الأقاليم الشمالية من الصين، فإن عشر مدن رئيسة تعتمد على الخزانات الجوفية مواردَ للمياه تعاني من مشكلات الهبوط نتيجة الإفراط في الضخ. فقد غرقت بعض هذه المدن العشر نحو ربع متر بسبب استنزاف الخزانات الجوفية وانضغاطها. وهذه المشكلة تعاني منها مدينة مكسيكو أيضاً في أمريكا الوسطى.

وتتضاعف المشكلة في المناطق التي تكون فيها الخزانات قريبة من البحر. فعندما تنخفض مستويات المياه الجوفية نتيجة الضخ، يشق ماء البحر الملح طريقه إليها، فيلوث هذا المقتحم المياه العذبة.

إن استنزاف المياه الجوفية يشكل تهديداً حقيقياً للصحة العامة والنشاط الاقتصادي. وتتعالى بشكل دائم صيحات التحذير من علماء الهيدرولوجيا، والمهندسين، وعلماء البيئة. والأزمة يزيدها تعقيداً قلة الهطل المطري الذي يمكن أن يغذي المياه الجوفية، ولو على المدى البعيد جداً.



النفايات الكيماوية سبب رئيس في تلوث المياه

نقص الوعي لدى شريحة واسعة من الناس يؤدي إلى هدر كميات كبيرة من المياه التي يمكن توفيرها

يعتقد عدد من الخبراء أن البشر قد يسببون تغييرات في المناخ لها علاقة بهطل المطر. فإزالة الأحراج، والزراعة الكثيفة، والرعي المفرط كلها تعري التربة. ويقول بعضهم: إنه عندما يحدث ذلك، يعكس سطح الأرض المزيد من ضوء الشمس نحو الجو. والنتيجة: يصير الجو أدفأ، فتتفرق الغيوم، ويقل هطل المطر.

والأراضي القاحلة قد تسبب أيضًا انخفاضًا في هطل المطر؛ لأن كمية كبيرة من المطر الذي يتساقط على الغابات هي ماء تبخر أولاً من النبات نفسه، من أوراق الأشجار والنبات الذي ينمو تحت هذه الأشجار. وبكلمات أخرى، يعمل النبات كإسفنجة كبيرة تمتص المطر المتساقط و تحتفظ به. فإذا أزيلت الأشجار والنبات الذي ينمو تحتها، فعندئذ يكون الماء أقل لتشكيل سحب المطر.

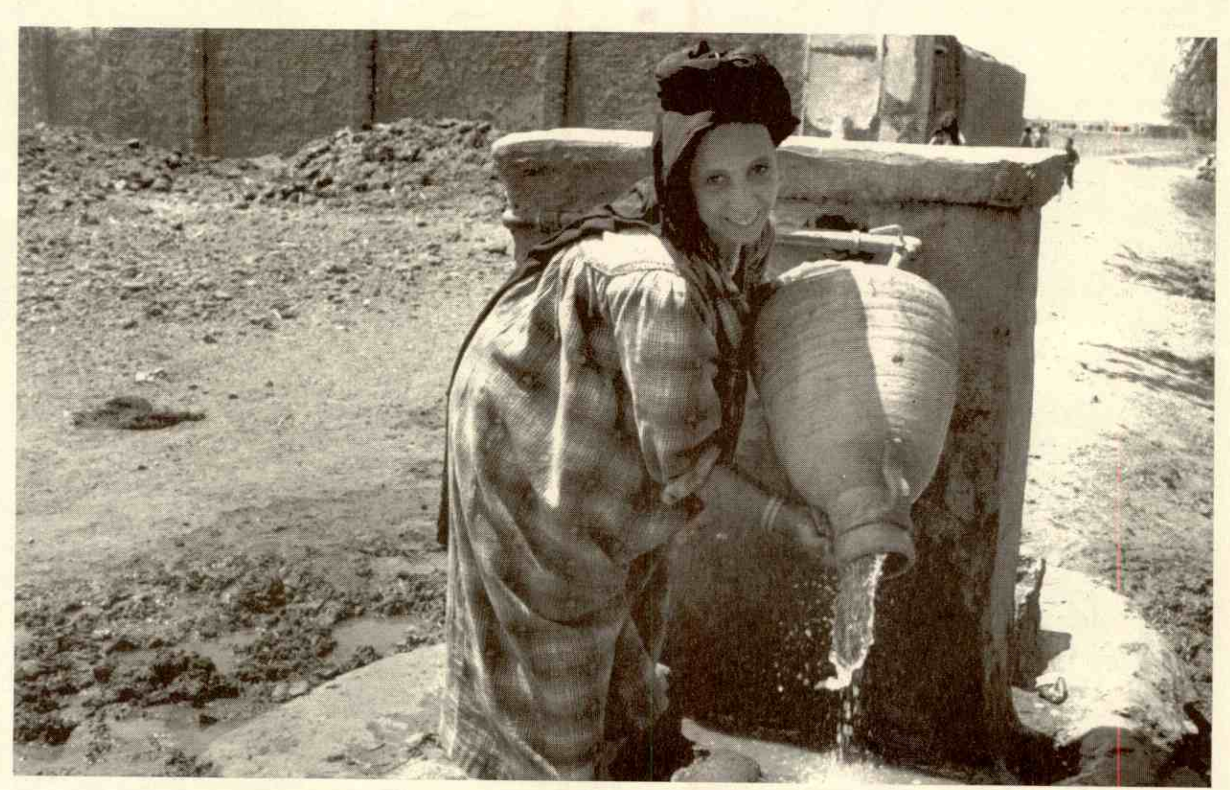
إن المدى الكبير لتأثير أعمال البشر في هطل المطر؛ لا يزال موضع نقاش؛ ولا يزال يلزم إجراء المزيد من الدراسات. لكن الأمر الأكيد هو أن النقص في المياه واسع الانتشار. والآن، يفتقر أربعون في المئة من سكان الأرض إلى وسائل الحصول على ماء نظيف.

إن مشكلة التوزيع غير المتساوي للماء تعقدها مشكلة ثانية. فعندما يزداد عدد السكان يرتفع بسرعة فائقة. وتضاعف استهلاك الماء مرتين على الأقل في هذا القرن. ويقدر بعضهم أنه يمكن أن يتضاعف مرة أخرى في العشرين سنة التالية.

لا تتطلب الأعداد المتزايدة من الناس المزيد من ماء الشرب فقط، بل تتطلب أيضًا المزيد من الطعام، وإنتاج الطعام، بدوره، يتطلب كميات أكبر من الماء. لكن الزراعة ينبغي أن تزاحم الصناعة والأفراد على طلب الماء. وحيث تتوسع المدن والمناطق الصناعية، غالبًا ما تخسر الزراعة.

إن النقص في الوعي البيئي لدى شريحة واسعة من الناس يؤدي إلى هدر كميات كبيرة من المياه التي يمكن توفيرها. كما أن كميات كبيرة من المياه تهدر نتيجة التبخر من شبكات الري أو ارتجاجها، بالإضافة إلى ارتفاع ضغط الضخ اللازم لإيصال المياه اللازمة إلى مسافات طويلة. يقدر أن ربع المياه المسحوبة إلى شبكات مياه الشرب تضيع بسبب تشققات الأنابيب.

بالإضافة إلى مشكلات النقص في الماء، هدره، وطلب أعداد متزايدة من السكان له. هنالك مشكلة أخرى ذات علاقة بذلك هي



وجه من معاناة العالم النامي للحصول على مياه الشرب



المياه ثروة طبيعية تستحق كل اهتمام

التلوث. وتذكر المراجع أن كمية المياه القذرة - المنزلية والصناعية - التي تصب في أنهر العالم كل سنة تبلغ أربعمئة وخمسين كيلو مترًا مكعبًا.

ففي الدول النامية في العالم، تلوث مياه المجاري غير المعالجة كل نهر رئيس تقريبًا؛ فقد أظهر استطلاع لمئتي نهر روسي رئيس أن ثمانية من كل عشرة لديها مستويات عالية بشكل خطير من العوامل البكتيرية والفيروسية. ونحو نصف الأنهار الرئيسة في الصين ملوث إلى درجة لا يصلح معها للاستهلاك البشري. في الهند تبدو الأزمة أشد إذ ترتفع نسبة تلوث الموارد المائية إلى سبعين في المئة.

وبينما لا تكون المياه في الدول المتقدمة مغمورة بمياه المجاري، غالبًا ما تكون مسممة بالمواد الكيماوية الخطيرة. ومن بين أكثر من ستين ألف مادة كيماوية موجودة في السوق، يصنف أكثر من نصفها بوصفه مميتًا أو خطيرًا جدًا على الصحة، مع تصنيع المزيد من هذه المواد الخطيرة كل سنة.

والملوثات الخطيرة سرعان ما تجد طريقها إلى خزانات المياه الجوفية فتفسدها. ويكفي لتر واحد من المذيبات لتلويث عشرين لتر من المياه الجوفية إلى حد يجعلها غير صالحة للشرب.

وفي الولايات المتحدة فقط، ووفقًا لتقديرات وكالة حماية البيئة، يتسرب أكثر من خمسة تريليونات من الفضلات الخطيرة إلى شبكة المياه الجوفية.

وهكذا فإن تلوث الماء مشكلة عالمية، والعاقبة وخيمة. فثلث البشر يعاني حالة مرض، أو ضعفًا دائمًا بسبب المياه الملوثة؛ والثلث الآخر يهدده إطلاق المواد الكيماوية في الماء التي لا يعرف تأثيرها الطويل الأمد.

ويجري التقدير أن ثمانين في المئة من كل الأمراض التي تتفشى في العالم النامي هي بسبب استهلاك ماء غير مأمون. فالأمراض القاتلة التي يحملها الماء -

كالإسهال، والكوليرا، والتيفويد - تقتل خمسة وعشرين مليون شخص كل سنة. فلاعجب أن تذكر منظمة الصحة العالمية أنه يموت ولد واحد من مرض يتعلق بالماء كل ثماني ثوان!

وفي البلدان الصناعية تكشف الاستطلاعات أن مياه الفضلات الصناعية والزراعية تحوي الكثير من الملوثات التي تسبب السرطان، والعقم، والخلل في الجهاز العصبي والدماغ. وإليها بشكل رئيس تعزى النسب المتزايدة من هذه الأمراض. ولكن هذه الدول - في الوقت نفسه - ليست بمنأى عن الأمراض المحمولة بالماء. ففي سنة ١٩٩٣م تسربت جراثيم ممرضة خطيرة في مياه الشرب في مدن الولايات المتحدة كواشنطن، ونيويورك، وفي مدينة ميلووكي وحدها تسببت هذه الجراثيم في إصابة أربعمئة ألف شخص بالمرض.

اقتسام الأنهر

إن مشكلات النقص في الماء المرتبطة إحداها بالأخرى كالحاجات الماسة لأعداد متزايدة من السكان، والتلوث الذي يؤدي إلى صحة رديئة، كلها عوامل يمكن أن تسبب التوتر

المياه في الدول النامية كثيرًا ما تكون مغمورة بمياه المجاري بينما تكون مسممة بالمواد الكيماوية في الدول المتقدمة

والنزاع. فالماء، على أي حال، ليس من الكماليات. قال سياسي في إسبانيا كان يجاهد لحل أزمة من أزمات المياه: «لم تعد الحالة كفاحًا اقتصاديًا، بل هي نضال من أجل البقاء».

إن اقتسام مياه الأنهر هو مجال رئيس للتوتر. وقد ذهب بيتر غلايك، الباحث في الولايات المتحدة إلى أن أربعين في المئة من سكان العالم يعيشون في أحواض الأنهر المئتين وخمسين التي تتزاحم على مياهها أكثر من دولة. فكل من أنهر براهما بوترا، والسند، وميكونغ، والنيجر، والنيل، ودجلة يجري عبر بلدان متعددة ليست متفقة على اقتسام المياه. وقد سبق أن وقعت نزاعات بينها. وكلما زاد الطلب للماء، ازدادت توترات كهذه.

في البحث عن حل

في العاشر من تشرين الأول / أوكتوبر١٩٨٠م، تحدثت الجمعية العامة للأمم المتحدة بثقة عن «العقد الدولي لمخزون مياه الشرب والمرافق الصحية القادم». وكان الهدف، كما أعلنت الجمعية، أن يجري تزويد سكان العالم النامي كافة بكامل وسائل الحصول على ماء نظيف ومرافق صحية بحلول سنة ١٩٩٠م. وفي نهاية العقد كان قد صُرف مئة وأربعة وثلاثون بليون دولار أمريكي على توفير الماء النظيف لأكثر من بليون شخص - إنه إنجاز رائع.

لكن هذه الإنجازات قابلها ازدياد في عدد السكان بلغ ثمانمئة مليون شخص في البلدان النامية. وهكذا، بحلول سنة ١٩٩٠م، كان أكثر من بليون شخص لا يزال ينقصهم الماء الآمن، والمرافق الصحية الملائمة. وبدا أن الوضع يردد صدى ما قالته الملكة لـ أليس في الرواية الإنجليزية للأطفال خلال المرآة: «أترين، يلزم أن تركضي بأقصى سرعتك لتبقي في المكان نفسه. أما إذا أردت أن تصلي إلى مكان آخر فينبغي أن تركضي ضعف هذه السرعة على الأقل».

إن التقدم الذي أحرز عمومًا منذ سنة ١٩٩٠م في تحسين وضع أولئك الذين ليس لديهم ماء كان ضئيلاً بحسب تقارير منظمة الصحة العالمية. ويلزم ما يقدر بستة وثلاثين مليون دولار أمريكي إضافي في السنة، لتزويد كل البشرية بمياه شرب نظيفة.

وفي الوقت الحاضر تدور مناقشات حادة بين الخبراء حول حلول مشكلات الماء المعقدة التي يواجهها البشر. فالبنك الدولي يريد أن يستثمر ستمئة بليون دولار أمريكي في المرافق الصحية، و المشاريع المائية خلال السنوات العشر التالية. وكلفة عدم الاستثمار قد تكون أغلى. ففي بيرو، مثلاً، كلف مؤخرا وباء الكوليرا الذي دام عشرة أسابيع، بسبب المياه الملوثة، نحو بليون دولار أميريكي (ثلاثة أضعاف المال المستثمر في تزويد البلد بالماء خلال كل ثمانينيات هذا القرن).

من الواضح أن أزمة الماء العالمية مشكلة معقدة وتشمل عوامل يرتبط بعضها ببعض: التلوث، والجفاف، والنقص في الاعتمادات المالية، والطلب المتزايد لأعداد متنامية من السكان. ومع ذلك فإن المستقبل ليس مظلما إلى الدرجة التي يتكهن بها الكثيرون. فهنالك الكثير من التقنيات والإستراتيجيات التي تتبع للحد من وطأة الأزمة المائية، وإيجاد الحلول الناجعة، لها، وهي تشمل:

- بناء محطات إزالة الملوحة: وتقوم هذه المنشآت بإزالة الأملاح من مياه البحر. وإحدى أكثر الطرائق شيوعًا هي التبخير؛ إذ يضخ الماء في حجرات منخفضة الضغط، حيث يسخن حتى يغلي، فيتبخر الماء، ويوجه إلى مكان آخر، تاركًا خلفه بلورات الملح. وهذه العملية باهظة التكاليف، وهي تفوق إمكانات بلدان نامية كثيرة. ولكنْ تُطَوَّر الآن تقنيات أقل كلفة - من ناحية الطاقة والطاقم اللازمين للتشغيل. وتعتمد هذه التقنيات على معالجة مياه البحر بالأغشية أو دمج وحدات الأغشية مع عمليات التبخير للحصول على المنشآت المهجنة. وهنالك مركز أبحاث في الجزيرة العربية مخصص لهذا الغرض.

- إنشاء محطات لمعالجة المياه الملوثة المنزلية والصناعية والزراعية. تؤمن المعالجة إعادة تدوير تلك المياه، أو إعادة استخدامها لأغراض مختلفة. فيمكن استخدام المياه المنزلية المعالجة لسقاية

المزروعات، أو المساحات الخضراء في المدينة. ويمكن لإعادة تدوير المياه الصناعية أن توفر كميات كبيرة من المياه التي تستخدمها الصناعة. فإنتاج الطن الواحد من الفولاذ، على سبيل المثال يتطلب مئتي متر مكعب من الماء. وكما هي الحال مع محطات تحلية مياه البحر، ستعمل الطرائق والتقنيات الحديثة التي تؤمن فعالية معالجة أكبر بكلفة أقل، ستعمل على إمكان إنشاء محطات معالجة المياه الملوثة حتى في البلدان الفقيرة.

- رفع مستوى الوعي البيئي لدى المواطنين لحل مشكلة هدر المياه وتلوثها نتيجة الاستعمال غير الحكيم لهذاالمورد النفيس. ويتم ذلك بواسطة مناهج التربية البيئية وحملات التوعية البيئية التي تظهر الجهود والتكاليف الكبيرة التي تقدمها الدولة لتأمين مياه الشرب، والتي تبين الخسائر الناتجة من هدر المياه وتلوثها، وستعمل هذه المناهج على تقديم النصائح من أجل الاستعمال الصائب للمياه.

- تكثيف الأبحاث في مجال تطوير المحاصيل الزراعية التي يمكن أن تروى بمياه البحر الملحة. ومن الأنواع المرشحة هنالك الدخن، والطماطم، والفستق، والفصة، والنجيل الزاحف. وهذا يمكن أن يوفر كميات كبيرة من المياه العذبة التي يمكن تخصيصها لشبكات مياه الشرب. وللمملكة العربية السعودية جهود بارزة في هذا المجال.

- صيانة الغطاء النباتي بالحفاظ على الغابات والأحراج، ومنع الرعي المفرط لمنع تشكل الأراضي القاحلة التي يمكن أن تسبب انخفاضًا في هطل المطر.

- إنشاء شبكات الإمداد بمياه الشرب، أو شبكات الري الكتيمة العديمة التسرب، وتطوير تقنيات عملية لاكتشاف التسربات من تلك الشبكات ومعالجتها.

٨٠٪ من الأمراض التي تتفشى في العالم النامي سببها استهلاك ماء غير مأمون



عولمة الثقافة وعولمة السياسة

محمود طه شيحة

ليست الثقافة كالعلم الذي لا وطن له، وما يستحدثه العلم من نظريات في أمة من الأمم يلقى الاتفاق عليه في بقية الأمم بحيث لا يضير واحدة من هذه الأمم أن تفيد من منجزاته الحادثة في أمة أخرى. أما الثقافة فهي غير ذلك تمامًا؛ بل نجد هذا الاختلاف حتى بين الأمم ذات التاريخ المشترك.

فإذا كانت ثمة اختلافات بين أمم التاريخ المشترك، فما بالنا لو كانت بين الأمم التي لا تشترك في تاريخها مثل الأمم العربية والأوروبية والأمريكية؟ لا شك أن شقة الخلاف بين ثقافات هذه الأمم ستتسع أكثر فأكثر.

لعل سبب هذا الخلاف يرجع إلى تعريف الثقافة نفسها حيث يراها «وبستر» في قاموسه أنها «نموذج كلي لسلوك الإنسان ونتاجاته المتجسدة في الكلمات والأفعال، وما تصنعه يداه، وقدراته على التعلم ونقل المعرفة إلى الأجيال التالية».

ومن هنا، أي من هذه الاختلافات في الثقافة بين الأمم، فإن هيمنة ثقافة ذات سيادة، مثل الثقافة الأمريكية، على ثقافة أخرى تمثل اعتداءً على شخصيتها وهويتها، مع أن هذه الهيمنة من السهل أن تُقبل في العلوم، ولكن من الصعب قبولها في الثقافات التي تتعامل بمنطق التأثير والتأثر، وليس الهيمنة والسيادة.

ولذلك، فإن العولمة في النظام العالمي الجديد، وما تعنيه من هيمنة قد تصلح في مجالات العلم والسياسة والاقتصاد، ولكنها تصعب في الثقافة على وجه التخصيص.

سيطرة أمريكية

ومن الطبيعي أن يدرك هذه الحقائق دعاة العولمة وكتّابها، فنجد نفرًا من مفكريها يحاولون التقريب بين الثقافة ذات السيادة والهيمنة وبقية الثقافات الأخرى حتى تتحقق العولمة على المدى الذي يريدونه. فنجد دراسة بعنوان: «في مديح الإمبريالية الثقافية» كتبها دافيد دوشكويف، أستاذ العلاقات الدولية بجامعة كولومبيا، وترجمها إلى العربية الأستاذ أحمد خضر، يرى فيها دوشكويف أن الولايات المتحدة الأمريكية تهيمن على الحركة الكونية في مجالات المعلومات والأفكار.

فالموسيقى والأفلام والبرامج التلفازية وبرامج الحاسوب (الكومبيوتر) الوافدة من الولايات المتحدة أصبحت شديدة الهيمنة والرواج، حتى إنها توجد اليوم في كل مكان على الأرض بالمعنى الحرفي للكلمة، وهي تؤثر بالفعل في أذواق كل الأمم وحياتها وتطلعاتها على الرغم من النظر إلى بعضها على أنه مفسدة.

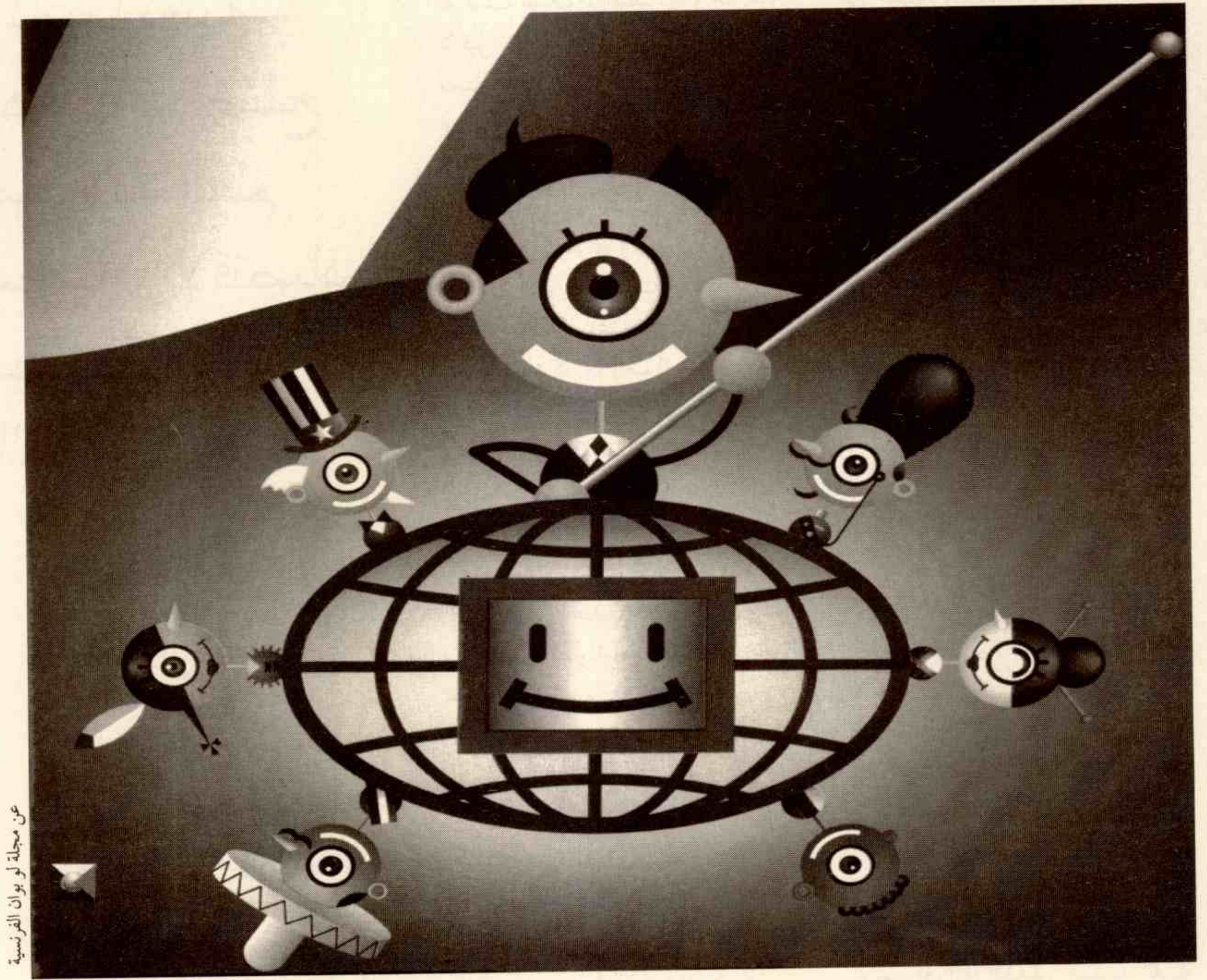
ولذلك يعترف صاحب هذه الدراسة بأن فرنسا وكندا أصدر كل منهما قوانين تحظر نشر هذه المواد الأمريكية ونقلها، والأمر نفسه تعلنه إيران والصين وسنغافورة. كل واحدة من هذه الدول تسعى إلى تقييد وصول هذه المواد إلى مواطنيها. والهدف من ذلك هو إبعاد ما يبثه الأمريكيون من وجهات نظر سياسية، وتلوث فكري، حفاظًا على الشخصية الثقافية لكل أمة من الأمم.

وينهي دوشكويف هذه الدراسة بهذه السطور الصريحة قائلاً: «وعندما نسمح لأنفسنا بأن ننجرف مع ردود الأفعال السلبية إزاء العولمة، فسيؤدي هذا إلى تقويض قدرة أمريكا على تعزيز مصالحها الذاتية، حيث ينبغي على الأمريكيين أن يدركوا أن تلك المصالح تتصل بطائفة من

.. أيهما يصلح للهيمنة؟

المعارف والسياسة والعلوم والثقافة.. ومن ثَمَّ فإن المطلوب هو منهجية علمية متكاملة لصناعة السياسة الدولية».

وفي دراسة بعنوان: «يا عولميي العالم اتحدوا» يتناول دانيال دريزنر بالعرض والتقويم خمسة كتب هي «الجهاد ضد السوق الكونية» لبنيامين باربر، و«نهاية التاريخ والإنسان الأخيرة» لفرانسيس فوكوما‌يا، و«صدام الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمي» لصمويل هنتنجتون، و«نهاية الأرض.. رحلة إلى بدايات القرن الحادي والعشرين» لروبرت كابلان، و«نهاية الدولة القومية» لكنيشي أوماي.. إذ ينتهي في دراسته، التي ترجمها الأستاذ عبدالسلام رضوان، إلى خلاصة لهذه



عن مجلة لو بوان الفرنسية

من يقود العالم؟

الكتب توضح مستقبل العالم في ظل العولمة قائلاً: «هناك اتفاق بين هذه الكتب على أربع نقاط: الأولى أن الدول القومية تفقد نفوذها وتأثيرها في عالم السياسة، والثانية أن هذا الضعف تسببه بصورة مباشرة أو غير مباشرة قوى السوق الكونية، والثالثة أن هذه التأثيرات كونية الطابع، أي إنها غير محصورة في العالم المتقدم أو العالم النامي، وأما الرابعة فهي أن العلم الاجتماعي التقليدي لا يمكنه تفسير هذه التغيرات.

هكذا - كما سلف البيان - كانت

العولمة بما تعنيه من هيمنة قد تصلح في مجالات العلم والسياسة والاقتصاد، ولكنها غير مقبولة في الثقافة

عولمة الثقافة.. تكشف عن نفسها بأقلام كتابها.

نستعرض بعد ذلك قضية العولمة في النظام العالمي الجديد، وما تعنيه من هيمنة على مجالات السياسة والاتجاهات الفكرية (الأيديولوجيا) والاقتصاد.

السيادة الوطنية والعولمة

يتناول صلاح بسيوني سفير مصر السابق في بحثه القيم «سيادة كاملة أم مفتوحة؟» قضية السيادة الوطنية في مواجهة العولمة، فيشير إلى أن كلمة السيادة تعبير سيّئ - كما كتب بعضُ شراح القانون الدولي المحدثون - لأنها في النهاية تخدم أهدافًا وطنية متطرفة، وأن العناصر التي ترتبط بممارسة السيادة الوطنية لا تعدو أن تكون اليوم شعارات وخيالات مبنية على خيالات. ولكن هذا التعليق الذي كتبه هنكين لا يعني أنه وغيره ممن ينتقصون من مبدأ السيادة، لا يقرون، في الوقت نفسه بالمبدأ السياسي، وهو أن الدولة لا تخضع لأي سلطة خارجية إلا إذا قبلتها بإرادتها، وذلك باستثناء موقف الدولة إذا هزمت في حرب عسكرية، أو تعرضت لضغوط اقتصادية وإعلامية لا قِبَل لها بها، قبلت بسببها أوضاعا معينة لم تكن تقبلها في ظروف سلم عادية. وباستثناء أيضًا ما يفرضه مجلس الأمن - تطبيقًا للفصل السابع من الميثاق - من عقوبات. وأمامنا بالطبع حالتا العراق وليبيا.

وفي إطار الاتجاهات الحديثة تفجر قضية العولمة صراعا حادا بين اتجاهين: أحدهما يؤكد أن العولمة GLOBAL-ISM لا تتقيد بالحدود الوطنية، ويمكنها التغلغل في أيّ مجتمع في العالم، وأنها تحقق توحيد الجماعات والمؤسسات وتعبئتها في اتجاه عالمي، وأن هذه العولمة تتعارض مع الاتجاه الآخر، وهو المحلية LOCALISM ومع محاولة الدولة الانكماش داخل حدودها في مختلف النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتقانية (التكنولوجية)، وبعبارة أخرى التمسك بالذات الموجودة في المجتمع.

وأصحاب الاتجاه الأول يؤكدون أنه سيكتب في النهاية الانتصار والغلبة على ذلك الاتجاه الانكماشي للمحلية؛ فالعولمة تحبذ فكرة توسيع الحدود، والسماح بحرية انتقال الأفراد، ورأس المال والسلع، والتقنية (التكنولوجيا) والاستثمار، وزيادة نظريات الاعتماد المتبادل، والتفوق النسبي الاقتصادي. والعولمة أفرزت ظاهرة الشركات العابرة للقارات، والشركات المتعددة الجنسيات، وهي تطرح في مجال السياسة قيما معينة في الحكم لفرضها على الدول المختلفة مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان.. إلخ.

ويؤكد جيمس روزينو ما سبق وقد عبر عن ذلك في بحثه المنشور في مجلة CURRENT HISTORY في ١٧ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩٧م، والذي خصصه لدراسة العولمة، وهو يشير إلى التغيير المستمر في حركة العولمة في اتجاه تغيير طبائع البشر، وتحرير الفرد من قيوده، وتعديل نظام الدولة، وأن من مميزات «العولمة» أنها لا تتقيد بالحدود أو القيود. ويمكنها الانتشار عبر اتجاهات متعددة عبر الحدود الوطنية، والدخول إلى أيّ مجتمع في العالم لتوحيد الأفراد والجماعات والمؤسسات وتعبئتهم في شكل عمل واحد، وتوحيد قوى العمل القادرة على هذه التعبئة.

ويذهب روزينو إلى أن أحد مكامن التوتر في العالم هو فكرة أن الحدود الجغرافية لم تعد ذات قيمة أو فاعلية كبيرة كما كانت في الماضي. فسياسات العولمة في توسيع الحدود واضحة في العقود الأخيرة مثل الأسواق والتسهيلات الموجودة في اتفاقيات مثلاً، ولذلك - وكرد فعل - تحاول بعض الدول أن تقوم بتثبيت حدودها، ومواجهة محاولات الاختراق إزاء الشعور بتهديد العولمة

وهوياتهـــا لرمـــوزهم وهوياتـهم وتقاليـدهم فيـمـا يعـرف بتذويب الهوية.

تآكل سيادة الدولة

وفي إطار هذا التيار المؤيد للعولمة تكتب سوزان سترانج في العدد نفسه من المجلة عن تآكّل الدولة.. فـهي ترفض الآراء التي تنكر وجـود تيـار العولمة، وتتبنى وجهة نظر الكاتب جون ستوبفورد الذي أوضح وجود نمط جديد في الدبلوماسية العالمية. فنتيجة لتزايد قوة هذه المشروعات الضخمة الكبيرة ظهر ما يعرف بالدبولماسية الجديدة التي تتحرك في إطار العلاقة بين الشركات العالمية الكبيرة والدولة، حيث تأتي أهمية هذه الشركات من كونها فرضت علاقات خاصة بين الدول، كما نسَّقت العلاقة بين هذه الشركات بعضـهـا مع بعض، والتنسيق «الدبلوماسي» بينها. مثال ذلك الكونسورتيوم بين شركتي «بوينج وماكدونالد دوجلاس» في مواجهة تحالف أوربا في صناعة الطيران. وتنتهي هذه الكاتبة إلى قضية تآكّل سيادة الدولة والذي يظهر فيما يلي:

- الدفاع وأمن المجتمع: فإن تطور العولمة وحركياتها ستؤدي إلى تقليص دور الدولة في مجال الدفاع والأمن؛ لأن النشاط الاقتصادي لن يسمح للدول بأن تعود إلى موضع الاعتداء والاحتلال واجتياز الحدود بالقوة، ولن تصبح الحرب حينئذ ضرورية لحل المشكلات.

- تقليص دور الدول أيضًـا في موضوع «المال والعولمة» في ظل ظهور ظاهرة الائتمان والقروض العابرة للحدود، وستترك الدول عملاتها تتحدد قيمتها وفق قوى العرض والطلب، وقوى السوق، والتوازنات والتبادلات التجارية.

- الرفاهية: ربما تعد أكثر جهة سيقل فيها نفوذ الدولة وتأثيرها، إذ إن المشروعات العملاقة بما فيها من إنتاج واسع، وقوة اقتصادية ستصبح هي المحقق الأول لمفهوم الرفاهية في العالم.

أما خطوط التماس في قضية العولمة فيناقشها د. محمد السيد عبدالمؤمن مدير مركز الدراسات الإنسانية والمستقبليات بجامعة عين شمس فيقول: إذا كان من اليسير



نتنياهو

تحديد مناخ الكرة الأرضية من خلال تقسيمها بالخطوط الوهمية للطول والعرض والاستواء ومدار الجدي ومدار السرطان، فإنه من الممكن أن يتحدد المناخ السياسي أيضًـا من خلال خطوط تماس وهمية بين الشأن العالمي والشأن الداخلي، وكذلك يمكن تحديد النشاط الاقتصادي لسكان الكرة الأرضية في ضوء التضاريس الجغرافية، وأن تتحدد حركة الاقتصاد العالمي من خلال تضاريس التكتلات العالمية، ويتحدد التاريخ الحضاري لشعوب العالم من خلال القرب، أو البعد من ثورة الحضارة الوهمية. وعلى ضوء الهيكل العام الذي تتجمع فيه هذه الخيوط يمكن استقراء الصورة العامة للقرية الكونية وتداعياتها.

وتطبيقًا للفرضيات المطروحة، يذهب الباحث إلى أن مناطق إقليمية بالمعنى السياسي قد تبلورت كانعكاس للصراع بين القوتين العظميين اللتين كانتا تمثلان قمة النظام الدولي منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى تفكك الاتحاد



محمد عابد الجابري

السوفييتي نهائيًا عام ١٩٩١م، فضلاً عن أن هذه المناطق قد تبلورت أيضًا كترجمة فعلية لسعي هذه الدول الكبرى إلى تحقيق مصالحها وأمنها القومي المباشر وغير المباشر من خلالها. على أن هذه المناطق قد أوجدت ثلاثة مستويات للتعامل والتفاعل في ما بينها يمكن تصنيفها كالتالي:

- مستوى النظام العالمي، ويقصد به أنماط التفاعلات الدولية على مستوى القمة بين الدول الكبرى، ولا

سيما الدولتان العظميان، والذي يترتب على نوعية العلاقات بينها مناخ العلاقات الدولية في العالم كله.

ـ مستوى النظام الإقليمي أو التابع، ويقصد به نظام التفاعلات الدولية في منطقة ما تُحدَّد على أساس جغرافي.

ـ مستوى سلوك الوحدات المكونة للنظام الدولي، وفي مقدمتها الدولة التي تعد أكثر وحدات النظام الدولي تعددًا، ويركز هذا المستوى على السياسات الخارجية للدول من دون تجاهل الأشكال الأخرى كالشركات


صادق العظم

المتعددة الجنسية والمنظمات الدولية والإقليمية والمتخصصة، والحركات الثورية التي تسعى من أجل الحصول على الاستقلال.

وبرصد هذا التفاعل خلال هذه الفترة يخرج الباحث بعدد من الملاحظات أهمها:

ـ أن النظم الإقليمية لها تفاعلاتها الذاتية، وهي تفاعلات محورية تؤخذ في الحسبان عند تقويم طبيعة علاقاتها بالنظام العالمي، ومن ثم، فإن استقلالية هذه الأنظمة هي مسألة نسبية.

ـ أن علاقة النظم الإقليمية بالنظام الدولي هي علاقة تبادلية، أي إن العلاقة لا تنحصر في تأثير ما هو عالمي فيما هو إقليمي فحسب، أو تأثير ما هو إقليمي فيما هو عالمي فحسب، بل تأثير كل منهما في الآخر في شكلٍ ارتباطي متبادل.

ـ أن مساحة الحركة وحريتها للنظم الإقليمية ترتبط كثيراً بوجود درجة الصراع بين قمة ازدواجية أو أكثر في النظام الدولي، حيث تتوافر لهذه النظم الإقليمية درجة أكبر في تحسين أدائها وزيادة فاعليتها ودرجة تأثيرها في النظام الدولي.

وهنا يمكن طرح سؤال يعين على تحديد خطوط التماس بين الشأن العالمي والشأن الداخلي، وهو يتعلق بصلاحية الشأن العالمي أو قدرته على إعادة صياغة المفاهيم والآليات والغايات من خلال إذابة المفاهيم والرؤى والسلوكيات والاستجابات الوطنية والدولية في بوتقة المجتمع العالمي، بحيث تصبح السيادة الوطنية والخصوصية القومية قضايا سياسية وثقافية في خبر كان.

ويعترض هذا التساؤل عدد من المحددات منها: مدى استقرار موقع الهيمنة في نظام العولمة، وهو مدى مفتوح يخضع لتناقضات داخلية موجودة في الوحدات المكونة والمدعمة لهذا الموقع، وهناك محدد آخر لا يقل خطورة عن سابقه ويتمثل في التوترات المتصلة بعولمة الاقتصاد، التي يمكن أن تحدث ردود فعل سلبية على الاستراتيجية العامة والسياسات التي يصوغها الشأن العالمي. وهناك أيضًا محدد خطير آخر وهو أزمة التكيف المؤسسي مع انفجار الخصوصيات الثقافية بكل أشكالها.

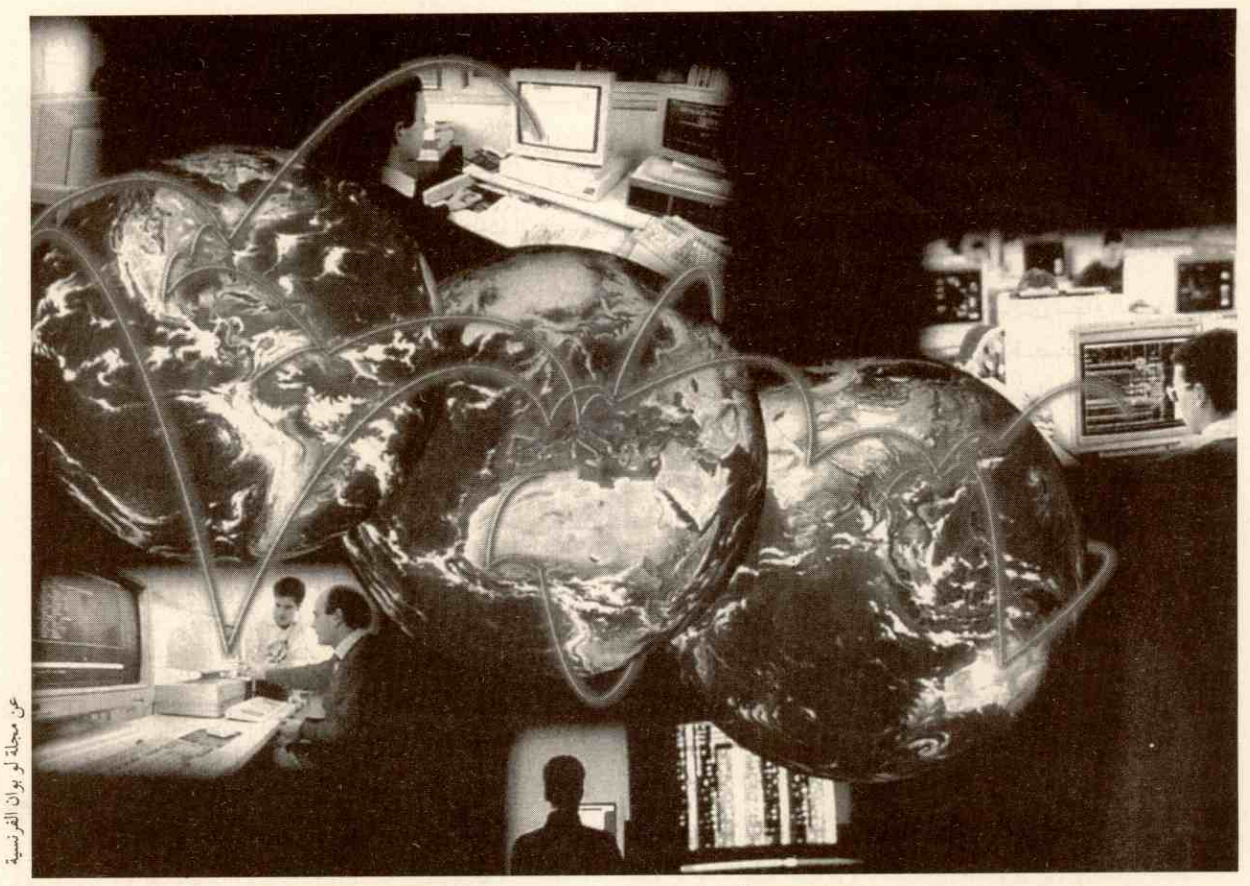
نفي الآخر وأمركة العالم

وإذا كانت «العولمة» تعني الانفتاح على العالم، وعلى الثقافات الأخرى مع الاحتفاظ بالخلاف الفكري الأيديولوجي.. فنحن تجاه ظاهرة مألوفة ومرغوب فيها. ولكن «العولمة» ـ كما يقول الدكتور محمد عابد الجابري المفكر المغربي ـ نفي للآخر، وإحلال للاختراق الثقافي محل الصراع الأيديولوجي. فالعولمة التي يجري الحديث عنها الآن نظام أو نسق ذو أبعاد يتجاوز دائرة الاقتصاد. العولمة الآن نظام عالمي يشمل مجال المال والتسويق والمعادلات والاتصالات.. كما يشمل مجال السياسة والفكر والأيديولوجيا.

هذا هو ما أكده نبيل زكي الخبير المتخصص في الدراسات الدولية في مستهل دراسة له بعنوان «أيديولوجية الهيمنة على العالم». فالعولمة إذن ليست مجموعة من العمليات تغطي الكوكب، أو مجرد آلية من آليات التطور الرأسمالي، بل هي أيضًا وبالدرجة الأولى أيديولوجية تعكس إرادة الهيمنة على العالم.

ومن هنا يرى عدد من المفكرين أن كلمة العولمة أصبحت مرادفة لعبارة «أمركة العالم». ويلفت الكاتب الصحفي ألفريدو فالاداو في كتابه الجديد: «القرن الحادي والعشرون سيكون أمريكيًا».. يلفت النظر إلى أن الولايات المتحدة تحاول ـ وحدها دون غيرها ـ الهيمنة على عولمة المؤسسات السياسية والاقتصادية الدولية، واحتكارها لنفسها، وساعدت المعلوماتية على تحقيق هذه العولمة.

وهكذا أصبحت العولمة تحمل



عن مجلة لو بوان الفرنسية

شبكات الاتصال لا تعترف بالمسافات والحدود

الجنسية الأمريكية. وتتصرف الإمبراطورية الأمريكية على أساس أنه لا توجد قوة مكافئة لها في العالم، فهي تملك المقومات الأساسية: قوة عسكرية لا نظير لها، وقدرة اقتصادية هائلة، ولا تخشى الولايات المتحدة من المنافسة.

رسملة العالم

ويرى المفكر السوري المعروف صادق العظم أن العولمة هي وصول نمط الإنتاج الرأسمالي عند منتصف هذا القرن تقريبا إلى نقطة الانتقال من عالمية دائرة التبادل والتوزيع والسوق والتجارة والتداول إلى عالمية دائرة الإنتاج وإعادة الإنتاج ذاتها. أي إن ظاهرة العولمة التي تشهدها هي بداية عولمة الإنتاج، ورأس المال الإنتاجي، وقوى الإنتاج الرأسمالية، ثم علاقات الإنتاج الرأسمالية أيضًا، ونشرها في كل مكان خارج مجتمعات المركز الأصلي.

والعولمة بهذا المعنى عند صادق العظم هي «رسملة العالم على مستوى العمق بعد أن كانت قد رسملته على مستوى سطح النمط ومظاهره.

ولكن العولمة - في إطار النمط الحضاري - ليس مجرد انتشار المعلومات، أو تذويب الحدود بين الدول، أو زيادة معدلات التشابه بين الجماعات والمجتمعات والمؤسسات، وليست في سهولة حركة الناس والمعلومات والسلع والخدمات والنقود وأشكال السلوك والتطبيقات بين الدول على النطاق الكوني، وكذلك فإن العولمة ليست مجرد تعميق في مستوى التفاعل والاعتماد

أبرزت العولمة دبلوماسية جديدة تتحرك في إطار العلاقة بين الشركات العالمية الكبرى والدولة

المتبادل بين الدول والمجتمعات، وليست تداخل الصناعات عبر الحدود وإعادة تنظيم الإنتاج، وانتشار أسواق التمويل وتماثل السلع المستهلكة لمختلف الدول.

ولو كانت القضية هي توحيد العالم وزيادة التجانس لما ظهرت الهواجس والمخاوف من آثار هذه العولمة، فالعولمة تعني - وهذا هو الأخطر - تعميم نمط حضاري يخص بلدًا بعينه، وهو الولايات المتحدة الأمريكية بالتحديد، على بلدان العالم أجمع.

وما يَعني الباحث هنا في الأساس

ظاهرة العولمة حاليا بداية لعولمة الإنتاج ورأس المال الإنتاجي وقوى الإنتاج الرأسمالية

هو تناول تأثير هذه العولمة - بما تحدثه من فجوات واسعة - في الدول النامية، وفي الشأن الوطني في أحد جوانبه على الأقل.

صورة أكثر تعقيدًا!!

فمع توسيع التجارة والاستثمار الأجنبي سوف تتسع الفجوات الاقتصادية والاجتماعية بين الدول النامية غير القادرة على مواجهة هذا التحدي الذي تفرضه العولمة من جهة، والدول المصنعة القادرة على مواجهة ظاهرة العولمة والاستفادة منها من جهة أخرى، وتخفي العولمة وراءها صورة أكثر تعقيدًا، فلم تعد الأمور تسير وفقًا لنظرية «ريكاردو» في «التبادل الحر» حيث التجارة الخارجية في صالح كل الشركاء.. ذلك أن الفارق في التقدم التاريخي بين الشركاء، ووجود أسواق شبه أبدية تحت سيطرة الشمال الصناعي.. والثقافة والتقاليد والعوامل النفسية و«اليد الخفية» للأسواق العالمية.. كل ذلك يؤدي دورًا لغير مصلحة الدولة الفقيرة التي لن تتمتع بفرصة مكافئة لتجاوز تخلفها في ضوء قرارات «عالمية» تتولى تحديد السياسات الاقتصادية للدول الوطنية.

ومن ناحية أخرى، يشير عزمي بشارة في سياق الحديث عن التفاوت الاجتماعي في ندوة «العرب والعولمة» التي أقامها في بيروت مركز دراسات الوحدة العربية يشير إلى أن الجديد في عملية العولمة المعاصرة هو طغيان قوانين التبادل العالمي المفروضة من جانب المراكز الصناعية الكبرى، على قوانين واحتياجات الاقتصاد المحلي للدولة الوطنية وإخضاعها لها بالكامل.

وإذا ألقينا نظرة فاحصة على الوضع الاجتماعي للجنس البشري - كما يقول بشارة - فإننا نجد تناقضا مذهلا مع هذه الثورة التكنولوجية الهائلة، فكل الإحصاءات الاجتماعية تكشف عن تردي مستويات معيشة الأغلبية الكبيرة لبني البشر، وازدياد التفاوت الاجتماعي. ولم تعد البطالة دورية تتصاعد وتهبط مع كل دورة النشاط الاقتصادي، إنما أصبحت متأصلة في الهيكل الاقتصادي ذاته لكل الدول الرأسمالية الكبرى. ولم يعد ثمة شعور بالأمان الاجتماعي والاقتصادي، بل إن الاحساس بالضياع وعدم الاستقرار بات شرطا دائمًا للحياة.

ويخلص نبيل راغب في دراسته إلى أن شروط الانتماء إلى «العالم» واضحة في ضوء أعمدة العولمة الستة:

- تبني مبادئ نظام السوق وفتح الأسواق والاقتصاد الحر (إطلاق يد القطاع الخاص، وتقليص دور الدولة).
- الاندماج في النظام الاقتصادي العالمي، والتزام قواعد اتفاقية الجات ومنظمة التجارة العالمية (في إطار نظام بريتون دودز).
- أسواق مالية كوكبية.
- أيديولوجية ليبرالية جديدة.
- تكنولوجيا جديدة للإعلام والاتصالات.
- الديمقراطية، والتعددية، وحقوق الإنسان.

دول عازلة

أخيرًا، يخرج علينا د. محجوب عمر الخبير المصري البارز في الدراسات الفلسطينية، بدراسة جادة يعطي فيها جل اهتمامه للحديث عن تطبيقات «العولمة» في الصراع العربي الإسرائيلي.. ويذهب فيها إلى أن الظاهرة التي يطلق عليها «العولمة» تشكل إطارًا يحيط ويؤثر ويحكم كل الظواهر السياسية والاقتصادية والثقافية للجماعات البشرية (الأمم والدول) على ظهر الكرة الأرضية.. وتؤدي دورًا مؤثرًا بل حاسمًا، أحيانًا في حركة هذه الظواهر الجزئية بل هي تفرزها في بعض الأحوال لحسابها الخاص، وباتفاق المصالح فيما بينها. أي إن المصلحة الكونية أو العالمية تفرز في محصلاتها أحيانًا دولاً لا يسوّغ قيامها إلا أنها دول عازلة بين القوى

الكبرى. فبعد قرون من الحروب الإمبراطورية في العصور الوسطى، ظهر في النهاية عصر الدول القومية أو الدول - الأمة، وتفتت الإمبراطوريات السابقة. واتفقت الدول الناشئة الكبيرة منها على استمرار بقاء جزر فيما بينها، سواء لضمان أشكال الشرائط الحدودية المتنازع عليها عن التقسيم، أو لخلق جسور اقتصادية وثقافية أو مالية لم يكن من الممكن القفز عليها أو إذابتها، كما هو الحال مع الدول العازلة في وسط أوروبا وفي آسيا.

أما بالنسبة إلى إسرائيل فإن أوروبا بقواها الاستعمارية المختلفة اتفقت على زرعها في قلب منطقة الشرق الأوسط، وجعلها قلعة أوربية متقدمة تسمح إقامتها بانسحاب الجيوش العسكرية من بلدان المنطقة، وفي الوقت نفسه تبقى على نفوذها.

وهناك إجماع الآن على أن دولة إسرائيل مع قيامها منذ خمسين عامًا لم تشكل بعد دولة - أمة. ويمكن إثبات ذلك بتبين مكوناتها الداخلية البشرية بنويًا واقتصاديًا وحضاريًا. والتساؤل كبير حول ما إذا كانت - كدولة - تصلح بوتقةً لهذه المجموعات البشرية المتنافرة المشكّلة لها، أم تزيد من تمايزهم؟ والسؤال المطروح دائمًا هو ما إذا كانت مثل هذه الدولة الحديثة يمكنها أن تعيش خارج إطار مصالح القوى العالمية الاقتصادية والسياسية في زمن سيادة «العولمة»، وأن تكون ذات سيادة مطلقة - كما يقول بعض قادة الصهيونية - أم إنها قد تتعرض في لحظة من اللحظات التي تضعف فيها قوة المصالح العالمية (العولمة) إلى التراجع أو التشقق والتنافر، أو حتى النزاع الداخلي؟

إسرائيل وعدم الاستقرار

لقد بينت تجارب الخمسين عامًا الماضية أن القيادات الصهيونية الإسرائيلية حرصت دومًا على أن تحتمي بقوة عالمية كبرى، ولكن ذلك لا يمنع أن ثمة محاولات من جانب القيادة الإسرائيلية للإفلات من التبعية المنفردة لأمريكا باستعادة العلاقات السابقة بدول الغرب الأخرى الكبرى في أوروبا، أو حتى بالدول التي كانت تشكل المعسكر الاشتراكي السابق، خاصة روسيا.. أي محاولة الانتقال من تبعية غربية إلى تبعية غربية أخرى. وعلى الرغم من أن ذلك يجري في إطار العولمة عمومًا، إلا أنها قد تتعرض في أثناء (النقل) إلى حالة عدم الاستقرار، وافتقاد التوافق. هذه الحالة تفتح الباب للثغرات التي يمكن الاستفادة منها عربيًا، وتصبح إسرائيل معرضة في أثناء الحركة إلى أخطار الهجمات التي قد تشن عليها من جانب المعسكر العربي الذي يفترض أن يغتنم الفرص المترتبة على حالات عدم الاستقرار النسبي.

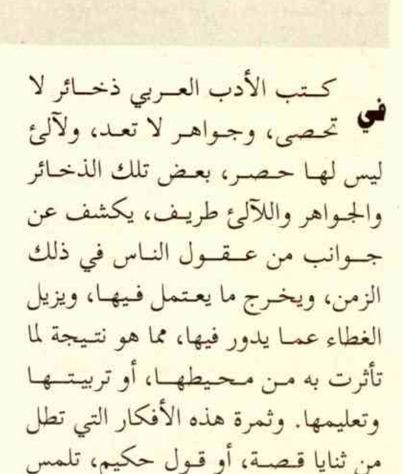
ويخلص الباحث إلى أن المجتمع الدولي بأشكاله المنظمة يفتح أبوابه لاشتراك الدول القومية بشروط، ويتعامل معها أيضًا بشروط. والدول العربية في هذه المرحلة لا تريد سوى أن يقبلها مجتمع الدول الحديث هذا.

ولكنها في كل الأحوال لا تستطيع أن تتنازل عن مصالح لها، منها وأهمها مصلحتها في استعادة فلسطين كمكون عربي لمنظومتها على كل المستويات. وهي بذلك تعارض السياسات الإسرائيلية كلية، بل هي تعارض في الأصل قيام دولة إسرائيل. وإذا كانت الدول العربية، بوصفها ممثلة لمجموع الأمة العربية، مستعدة لتقديم تنازلات، فإن لذلك حدودا تضمن استمرار مصلحتها الخاصة، حتى ولو تنازلت قليلا لدولة إسرائيل، فتلك هي قاعدة تشابك المصالح المتعارضة في عالم اليوم.

ولكن إسرائيل، خاصة بعد نتنياهو، ترفض هذه القاعدة في التعامل، وليست على استعداد لتقديم ما يُرضي العرب عامة والفلسطينيين خاصة. وهي بذلك تختار أن تكون دولة كبرى فاشية إذا صح التعبير، ولا تترك مجالاً للدول الكبرى

> **اختارت إسرائيل أن تكون دولة فاشية كبرى ترفض التوقيع على المواثيق الدولية المنظمة لمجتمع العولمة العالمي الجديد**

الغربية الصانعة للمجتمع الدولي الراهن وحاميته لكي تتعامل مع دول المنطقة التي تطالبها باستمرار بالضغط على إسرائيل، وهذه فرصة أخرى أمام الأطراف العربية توفرها علاقات العولمة الحديثة التي تواصل ترتيب العالم طبقا لمواثيق دولية تستكمل بها ميثاق الأمم المتحدة وتحددها سلوكيات الدول أمنيًا واقتصاديًا وسياسيًا. ويلاحظ أن إسرائيل ترفض التوقيع على هذه المواثيق الدولية التي تنظم مجتمع العولمة العالمي الجديد.



الوضع وكشفه



عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

في كتب الأدب العربي ذخائر لا تحصى، وجواهر لا تعد، ولآلئ ليس لها حصر، بعض تلك الذخائر والجواهر واللآلئ طريف، يكشف عن جوانب من عقول الناس في ذلك الزمن، ويخرج ما يعتمل فيها، ويزيل الغطاء عما يدور فيها، مما هو نتيجة لما تأثرت به من محيطها، أو تربيتها وتعليمها. وثمرة هذه الأفكار التي تطل من ثنايا قصة، أو قول حكيم، تلمس جوانب الحياة.

والنص الواحد يكشف عن أمور عدة، كل واحد منها يستحق الوقفة، والتدبر، والتمعن، وتأتي منه متعة فكر تجعله، بجانب قيمته الأساسيّة، مسليًا مبهجًا، ويدخل السرور على النفس، ولا ينغص هذا أن يكون أحيانًا لم يقع، وإنما جاء به خيال أديب أريب متقن لفنه.

فبعض هذه النصوص هو إخبار عما لم يحدث، وليس له واقع أو حقيقة، إنه خيال مجنح ألّفه قائله بتؤدة ورويّة، ليخدم غرضًا من الأغراض، والغرض قد يتصل بالدين، و القبيلة، أو الحكم، أو طائفة من الطوائف، أو مذهب من المذاهب، أو مهنة من المهن، ليُرجّح كفّة على كفّة، أو يهدم ركنًا، أو يهزأ بجانب من الجوانب، أو يستهزئ بفئة من الفئات، أو يطعن في أحد، أو ينتقص قدرًا، أويلمز جانبًا، أو جاء بما جاء به للتسلية والمرح.

وكما يقول التعبير الحديث: هذا التخيل لا يبدأ من فراغ، وإنما يبنى على أمر من واقع زمنه، وما يعرفه الناس، وما ألفوه، وما هو متأكد من قبولهم له، فلا يجدون فيه نبوًا ولا غرابة، ولا انعزالاً عما هو متعارف عليه، ودارج بين الناس، فلا شذوذ، ولا استهجان.

وبعض هذه القصص المفتعلة تحمل في داخلها قوة تجعلها مقبولة، بل مرحّبًا بها، وقد يكون الإتقان فيها أكثر من الحقيقة التي لا تأتي بمثل هذه المتعة والارتجال فيها الذي هو من طبيعتها لا يأتي بمثل هذه الصور البديعة، ولهذا يمكن أن يقال أحيانًا: إن هذه القصص المفتعلة أجمل من الحقيقة، وأحيانًا تجمع من الفوائد أكثر مما تجمعه حادثة حقيقية واحدة.

وفي النص الذي سوف نسوقه تأتي أوصاف للقبائل مجمعة، لا تتجمع في الحقيقة ، وإثباتها في ظلها قد لا يكون واقعًا أو مقبولاً، وسوف يجلب الجدل ومحاولة النقض والتكذيب، في حين أنه في الصورة المتخيلة يأتي كأنه أمر مسلم به، لما بذل فيه من جهد يرمي إلى الإتقان في التلبيس.

كان هناك أدباء، وكان عندهم من القدرة على التعبير ما يجعل ما يضعونه لا يُكتَشَف بيسر، خاصة إذا عمد أحدهم إلى تقليد أسلوب أديب سابق كبير معترف له بالفضل، ومتخصص في لون من ألوان الأدب.

وكان عند هؤلاء الواضعين من الأدباء، ميول تتبعها حماسة تجعلهم يختارون للدعوة لها أسلوب نحل القصص، أو الشعر، أو هما معًا.

وما يأتي على هذا النمط لا يعدّ معيبًا في كل اتجاهاته إذا عرف أنه موضوع؛ لأنه يمثل لنا فكر ذلك الزمن، وإذا لم تكن الحادثة قد حدثت فعلاً، فإن بالإمكان أن تحدث، فليس هناك ما يحول دون ذلك؛ إذ إنها غير مستحيلة على البشر.

والقصة الآتية من هذا النوع أنشأها منشئ، وركبت على بشار بن برد؛ لأنها تليق به، ولم يبيّن مخاطب بشار، وهذا مدخل ضعف، والمدخل الثاني هو: من الذي كان جالسًا يسمع وبيده ورقة وقلم ودواة، ويسجل ما حدث؟ ومدخل ثالث، وهو القدح المتتالي لكل تلك القبائل العربية، من الذي له فائدة من ذلك؟ إلا الشعوبية التي تحمل غِلاً لهم، ولا تتوانى أن تركب عليهم القصص في اختراع عيوب، وافتعال نواقص، والقصة هي:

«وقف على بشار بعض المجّان، وهو ينشد شعرًا، فقال:

يا بشار، استر شعرك كما تستر عورتك.

فغضب بشار، وصفق بيديه، وتفل عن يمينه، ويساره ـ وكان يفعل ذلك إذا غضب ـ وأراد أن يقول هجاءً، ثم قال:

ويلك من أنت؟

فقال: أنا ـ أعزك الله ـ من باهلة، وأخوالي من سلول، وأصهاري من عكّ، ومنزلي نهر بلال.

فضحك بشار، وقال:

اذهب، فأنت عتيق لؤمك».

(سرح العيون: ٣٠٥).

الجبرية الجديدة

عبدالله بن سليمان القفاري

يدين الغرب في تقدّمه العلمي والتقني أساسًا لنظام معرفيٍّ أعلى شأنَ العقلِ، ورَسَّخَ المنهج العلمي التجريبي بجعله أساسًا يقوم على إخضاع المعرفة لشروط التجربة ومعاييرها، والقياس المبني على الحس والمشاهدة. وكما خضع الغرب لهذا النظام المعرفي في مجال العلوم التجريبية، أخضع نظامه العقلي لفلسفة قامت على ضروب من التأمل المنتج الفعال جيئة وذهابًا بين المقدمات والنتائج، وبين المبادئ والوسائل، وبين النظرية والتجربة، لينتج علومًا ونظريات وأفكارًا أثرت بشكل مباشر في تلك المجتمعات، وحملت تأثيراتها إلى مجتمعات أخرى كثيرة تقبلتها إلى حد بعيد.

إلا أن التجربة العظيمة لإعمال المنهج التجريبي، والتفكير العقلاني على ذلك النحو يتخللها اليوم محاولات تتصدّى لقيمة العقل البشري بوصفه حاكمًا لإرادة البشر، بل وتتجاوز حدودها لتقدم باسم العلم ـ إن صدقت ـ نماذج مشوهة ترسّخ تبعية الإنسان لغرائزه، وتحطم حاجزًا أخلاقيًا واجتماعيًا ظل صامدًا قرونًا وقرونًا منذ أُنزلت الشرائع السماوية، لتؤكد هذه المحاولات أن الإنسان مستلب الإرادة، وأن كينونته تخضع لعالم يحاول علماء الجينات وغيرهم كشف أسراره يومًا بعد يوم.

ولتبيان المسألة على نحو أفضل اقرؤوا معي هذا الخبر:

«أخيرًا قد يجد الأزواج الذين يخونون زوجاتهم عذرًا طبيًا لتفسير سلوكهم، بينما قد يتعين على النساء إجراء اختبار وراثي لأزواجهن المستقبليين قبل الزواج لمعرفة الطريقة التي سيتصرفون بها لاحقًا».

فقد أعلن علماء أمريكيون اكتشافهم مورثًا (جينًا) جديدًا يحدد السلوك الجنسي للرجال. وقال باحثون في معهد أبحاث السرطان في واشنطن «دين هامر» في بحث قدم أمام الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم في فيلادلفيا: «إن ممارسة الرجل الجنس مع أكثر من رفيقة له سبب وراثي».

وقد أورد الخبر بعض مقتطفات من التقرير الذي يؤكد أن انعدام الطهارة الجنسية، وتوجُّهَ الأفراد إلى ممارسة الجنس مع أكثر من رفيقة بسبب عامل وراثي؛ وقد تمكن الفريق من استخلاص المورث الخاص بهذه الظاهرة، وهو «مستقبل دوبامين دي ٤»؛ فقد أظهرت الدراسات التي اقتصرت على الرجال دون النساء أن ٣٠٪ منهم قد يحملون هذا المورّث لديهم بعد الولادة، وأشارت إلى أن ذلك قد ينطبق على النساء أيضًا.

وربما قرأ كثيرون منكم أيضًا الخبر الذي قد لا يبتعد عن هذا كثيرًا، ويدور في فلكه، حيث تداولت وسائل الإعلام اكتشاف مورّث جديد مسؤول عن سلوك الشذوذ الجنسي المتفشي في الغرب!

وقد أشار ستيف كونور المحرر العلمي للصنداي تايمز في مقالة له إلى أن العلماء تمكنوا من اكتشاف المنطقة الخاصة في الدماغ البشري للإيمان بالله، وهي منطقة يمكن عدُّها مسؤولة عن الغريزة التي تدفع بالإنسان إلى الاعتقاد الديني، فقد أدّت دراسة أجريت على عدد من المصابين بداء الصَّرَع الذين عرف عنهم تمرسهم بتجارب روحية عميقة، إلى الكشف عن شبكة من الأعصاب التي تقع في مقدمة الدماغ، والتي تصبح

مشحونة كهربائيًا كلما فكروا بالله.

وأشار إلى أن الفريق العلمي في جامعة كاليفورنيا الذي توصل إلى هذه النتائج قدّم ورقة بهذا الخصوص جاء فيها: «من المحتمل وجود آلة عصبية في الدماغ وقف عملها للدّين على وجه التحديد، وأوضحت نتائج البحث أنّ إيمان المرء بدين، أو حتى بوجود الله، ربما كان يعتمد على مدى نشاط الشبكة العصبية المكهربة والمخصصة للاعتقاد الديني».

كما يعتقد هؤلاء أنه إذا صدقت نتائجهم، وكانت «منطقة الإيمان بالله» موجودة في الدماغ فعلاً، فإن هذا يعني أن الملحدين ربما كانت لديهم شبكة عصبية كهربائية مختلفة!!

أمام هذا الحشد المتواصل لهذه النوعية من الأخبار العلمية التي تعرض بأشكال وصور مختلفة، علينا أن نتبين كيف يمكن، باسم العلم، ومن خلال ضروب من الممارسة تحسب على منهجه، كيف يمكن أن يسيء هذا العلم للإنسان أولاً فيسلبه شروط الإرادة، وخيارات التكوين، وطهارة النفس وتزكيتها، وقيم الفكر ومُثله، ليبدو مسخرًا لتكوين حيوي (لبيولوجية) لا إرادة فيه، منقادًا لمورِّثات تطالعنا كشوفها كُلَّ صباح، تَحكُم سلوكه وتصرفاته، بل تجعله عبدًا لفكر لاهوتي من نوع آخر، ربما يكون لاهوت العلم في زماننا هذا، وتلك مفارقة مخجلة محيرة، كيف يتاح للعلم أن يحرر الإنسان من لاهوت الكنيسة ليقع هذا الإنسان أسيرًا للاهوت العلم؟

كيف للمكون الوراثي والبناء العضوي الفسيولوجي للإنسان أن يطغى على دور التربية والتنشئة الاجتماعية؟

لانريد أن نحاكم العلم من خلال أخبار تنشر هنا وهناك قد يكتنفها كثير من الغموض، إلا أن ترويج هذه الأخبار، والتوسع في نشرها وإبرازها ربما يقود إلى استمراء تداولها، ثم تصنيفها على أنها حقائق ومسلمات علمية، وتلك تمثل إشكالية عقدية وأخلاقية لا يمكن التعامل معها إلا بإدراك قصور تلك الوسائل العلمية المستخدمة في الوصول إليها، هذا إن صدقت مناهج التجريب، وإذا لم تظللها نزعات وأهداف لا تمت إلى العلم بصلة.

إن الإيحاء الأول الذي تجلبه هذه الأخبار هو ضعف مسؤولية الإنسان عن أفعاله، وضعف دور التربية والتنشئة الاجتماعية وفاعليتها أمام المكوّن الوراثي والبناء العضوي (الفسيولوجي) للإنسان..

ألا يمكن جعل هذه النزعة العلمية نوعًا من الجبرية الجديدة تقدم هذه المرة باسم العلم، وتبنى على حركة الاكتشافات العلمية المتسارعة؟

وعند الانتقال إلى دائرة العلوم الأوسع ندرك كيف تثير بعض تطبيقات الاكتشافات العلمية جدلاً واسعًا حول الكثير من المسائل الأخلاقية والاجتماعية؟ وفي ضوء ذلك يظهر أن هناك جدلاً فكريًا في الآونة الأخيرة أخذ يتسع، ويعلو صوته حول مستقبل العلوم، واتجاهات البحث العلمي.

إن حُمّى الجدل الدائر الآن بين علماء الغرب حول هذه المسألة، تقف خلفه عقول تؤمن حقًا أن مستقبل العلم قد تحفه المخاطر، وتهدده عوامل أسهم العلم نفسه في صنعها على مر العقود.

كما أن هالة القيمة العلمية التي عمقت إيمان بعض المثقفين بأنّ تقدم العلم يولد التقدم الشامل للإنسان في جميع مجالات حياته، يبدو أنها تغيرت بعمق، فأصبح هناك تيار لا يؤمن حقًا بأن تقدم المعارف، أو تقدم الإنتاج ملازم لتقدم البشر.

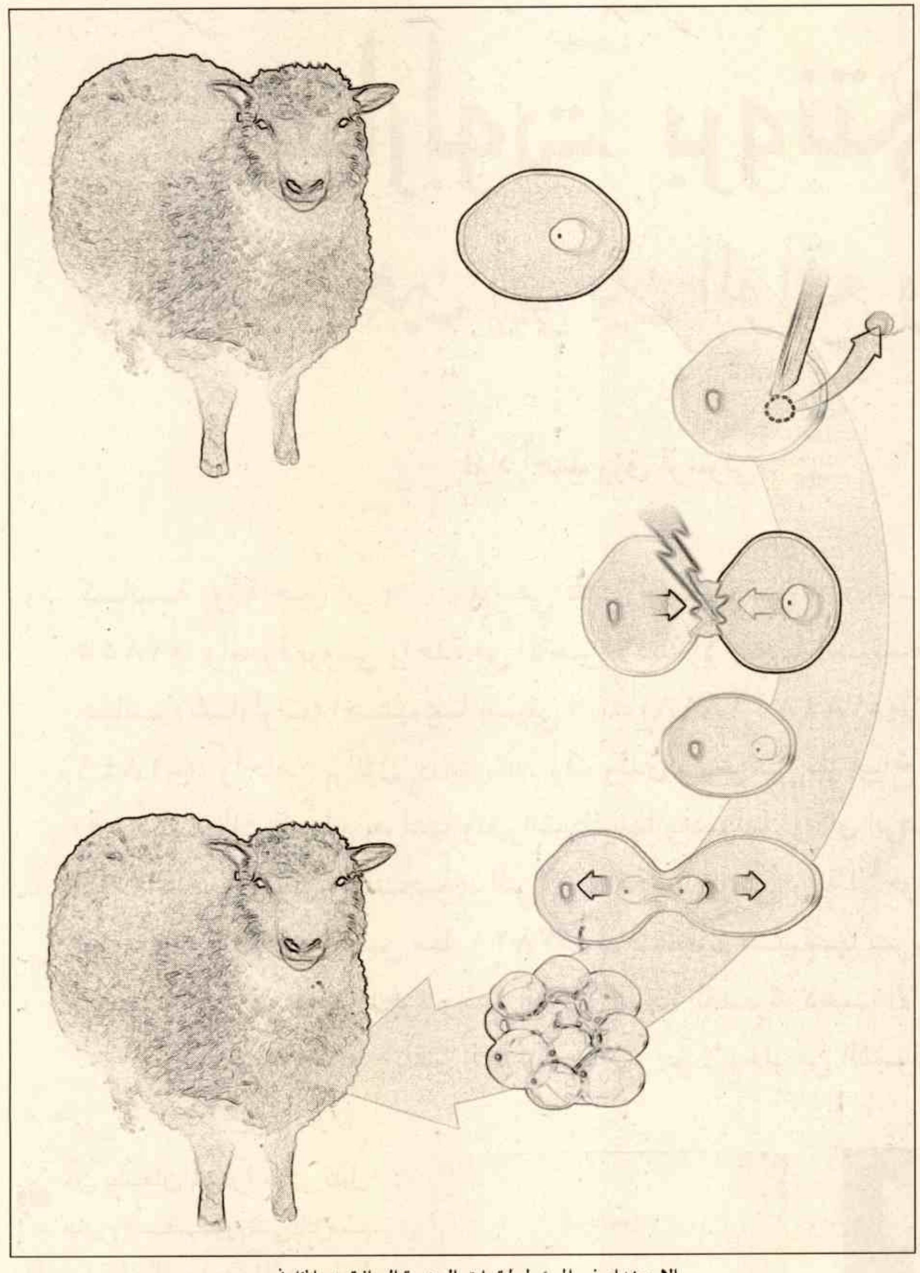
إن من أهم الإشكالات التي أصبحت تشكل عوائق في طريق التقدم العلمي - كما يراها بعضهم - هي ما يمكن أن يسمى بالتطبيقات غير الأخلاقية التي استثمرت مكتسبات العلوم في تطبيقات أصبحت مثار جدل واسع لا ينتهي حتى يثور من جديد؛ لأنه يصطدم بالبنية الثقافية للمجتمعات التي أخذت تتصور مآلها في خضم تطور هذا المارد العلمي الذي أصبح يهددها في بنيتها الاجتماعية، وقد يحطم سياجها الأخلاقي، وتطلعاتها الإنسانية. ويمكن الإشارة هنا إلى المفارقة المزعجة التي تتبدى في سمو الفكرة العلمية من جانب، وخلفية تطبيقاتها التي قد تنحدر من جانب آخر.

فزراعة الأعضاء البشرية كيف تحولت هذه التقنية الطبية التي أنقذت كثيرًا من المرضى الميئوس من حياتهم لتصبح مثار جدل أفرزته تجارة الأعضاء البشرية المزدهرة والمحظورة في آن واحد؟

كما أن الهندسة الوراثية، وما أثير من جدل واسع حول أخطارها المحتملة، والناشئة عن الاختبارات الوراثية التي قد تمس سلامة الإنسان، وقد تؤدي إلى التلاعب في صفات الجنس البشري قد تطغى على دور هذه الاختبارات في إمكان السيطرة على الأمراض الوراثية التي تقتل مئات الآلاف من الأطفال سنويًا.

كما أن مسألة مثل التناسل الصنعي، حيث استطاع العلم أن يغير أول مرة من ضوابط الولادة بفصله بين الجماع والتناسل،

بقدر ما أسهم هذا التقدم التقني في حل مشكلات كثير من الأزواج غير القادرين على الإنجاب بشكل طبيعي، أثار جدلاً واسعًا حول التطبيقات غير الأخلاقية عندما تضيع هوية الأب أو الأم وسط فوضى مصارف النطاف؛ ولعل ما يطالعنا ـ ويكاد يكون بشكل يومي ـ من مسائل أخلاقية وقانونية حول هذه المسألة تجعل الكثيرين يدركون عمق المأزق الذي حمله هذا التقدم العلمي ليغرق فيه الجنس البشري الذي عرف طريقًا واحدًا فقط للتناسل طوال تاريخه، ضمن له الاستمرار والتكاثر وفق سنن طبيعية لم تحترمها أنابيب الاختبار، ومعامل التكاثر التي تحولت في نظر بعضهم إلى كارثة محتملة إذا انفلتت من قيدها الأخلاقي.



الاستخدام غير المسؤول لتقنيات الهندسة الوراثية يثير المخاوف

ولعل ما قيل في الأمثلة السابقة يمكن أن يقال كذلك في مسائل كثيرة حول فروع العلم المختلفة، كالذرّة والزراعة والكيمياء وغيرها.

لقد دعا بعض العلماء في الغرب إلى فرض صرامة أخلاقية شديدة على استخدامات تطبيقات العلوم، ودعا بعضهم إلى ما أسموه بشرف الإنسان كضابط أخلاقي يتيح للعلماء الاستمرار في أبحاثهم ودراستهم، ويحمّلهم مسؤولية الانحراف بنتائج تلك الأبحاث إلى أي مستويات قد تهدد القواعد الأساسية للحياة على الأرض.

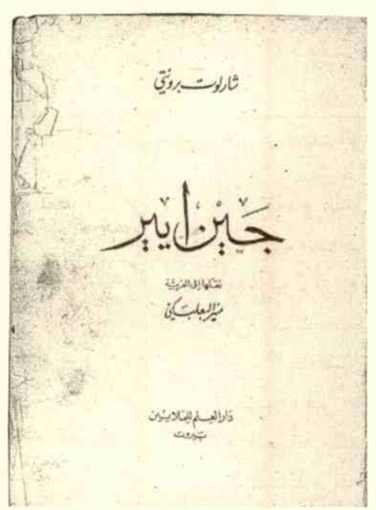
وبصدد هذا يقول جان همبرغر من أكاديمية العلوم الفرنسية: «إن رفض الإمكانات العلمية الجديدة لم يكن رفضًا أعمى، لكن هذا الرأي العام لم يكن ليخطئ عندما يطلب من العلماء أن يبذلوا جهدًا للتفكير في الأخطار المحتملة للكشوف والاختراعات الجديدة، وللتفكير في الجانب المظلم الممكن لأي تقدم. لقد ولى الزمان الذي كان فيه العلماء يعكفون في برجهم العاجي على هم واحد هو المعرفة العلمية المحض، ويتنكبون أي مسؤولية عن استعمال كشوفهم. إن ثورة العلم في زماننا لعميقة؛ فالباحث يسبق المجتمع إلى تحليل نتائج أعماله المقلقة منها والخيرة، وهو يضطلع بمسؤولية لم تكن معهودة قبل هذا الزمان، ويهتم بما لم يكن بالأمس من شأنه، ويشعر أنه مشترك في أخلاقيات التقدم إن لم نقل سياسته؛ إننا لا نستطيع أن نترك لقدرتنا الجديدة الحبل على الغارب بلا تحفظ ولا حذر».

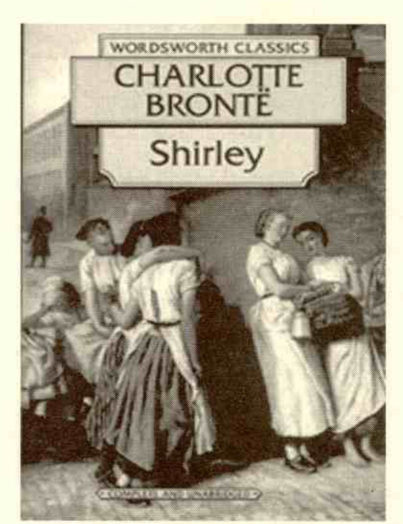
شارلوت برونتي
وروايتها جين إير بين الواقع والخيال

فؤاد أحمد رزق فرسوني

كـاتبـة رواية جين إير JANE EYRE هي شـارلوت برونـتي CHARLOTTE BRONTE ١٨١٦ - ١٨٥٥م، وأسرة برونتي واحدة من الأسر الأدبية الإنجليزية الشهيرة، وقد ضمت إلى جانب (شارلوت) أختيها إميلي EMILY (١٨١٨ - ١٨٤٨م)، وآن ANN (١٨٢٠- ١٨٤٩م)، وأخاهن برانول BRANWELL. وقد ولدن وترعرعن بين سباخ بوركشير بإنجلترا. وقد عُرفت تلك السِّباخ بعزلتها وتغيرات طقسها وفصولها. وكان أبوهن قسيسًا فقيرًا من أتباع الكنيسة المثيودية (المنهجية)، التي كان لفكرها أثر في تربية الأخوات، وتردّد صداها في أدبهن. توفيت والدتهن سنة ١٨٢١م، فاضطلعت شقيقتها بتربيتهن، وكانت في معاملتها لهّن مفرطة في الحزم والصرامة إلى درجة القسوة؛ ذهبت الأخوات إلى مدارس داخلية، وتلقين التعليم أيضًا في جوّ لا يخلو من القسوة.

وقد كُنّ يشغلن شطرًا غير قليل من وقتهن في الرسم والموسيقا والقراءة والأهم منها جميعًا الكتابة، وأصبْن تطورًا مبكرًا لخيالهن. وقد عملن مربيات فترة، ثم سافرت شارلوت وإميلي إلى بروكسل سنة ١٨٤٢م لدراسة الفرنسية، ومرت شارلوت هناك بتجربة حب فاشلة مع صاحب المعهد الذي كانت تدرس فيه، وفي سنة ١٨٤٢م استُدعيت





غلافا كتابين للمؤلفة

الأختـان للحضـور إلى إنجلترا عقب وفاة عـمـتـهـمـا اليـزابيث برانـوِل ELIZABETH BRANWELL. وقد نشرن مـجـمـوعـة شـعـرية مشـتـركـة سنة ١٨٤٦م بأسـمـاء مستعارة: (كَرَرْ وَ آكتن وَ إليس بِل CURRER ACTON AND ELLIS BELL.

واتخذت شـارلوت اسم كـرر بل، ولـم تكشـف عن هويـتــهـا الحقيقية للناشر إلا سنة ١٨٤٩م. واستخدام هاتـه الأخوات للأسماء المسـتـعـارة في هذه الفتـرة التي عشن من القرن الثامن عشر ليس بِدْعا لشيوع الظاهرة بين كـاتبات القــرن، ومنهـن: إيزابلا هارود I.HARWOOD، التي اسـتـخـدمت الاسم المسـتـعـار روس نيل ROSS NEIL، ومـاري كنجـزلي M. KING-SLEY التي استخدمت اسم لوكاس مـالت LUCAS MALET، وإيزابلا مايو I. MAYO التي استخدمت اسم إدوارد جارت EDWARD GARRET. وقـد نشـرت شـارلوت روايـتـهـا الثـانيـة: شـيـرلي SHIRLEYسنة ١٨٤٩م، ثم روايتها الثالثة: فيلت VILLETTE سنة ١٨٥٣م.

أعظم رواية لشاروت هي جين إير JANE EYRE، ومن نـاحـيـة ببليوجـرافية فقد انعكست شـهرة الرواية في صـدور عـدة طبعـات كـاملة ومختصـرة ومعدّلة منهـا؛ حيث صـدرت طبـعـتـهـا الأولى والثـانيـة سنة ١٨٤٧م مـشـتـملة على التصحيحات النهائية التي أجرتها الكاتبة.



شارلوت برونتي

وفي سنة ١٩٤٦م صدرت في لندن عن مطبـعـة زودياك ZO-DIAC، وصـدرت طبـعـة مـبسطة منهـا عن لونجمـان LONGMAN في لـنـدن سـنـة ١٩٤٩م في نـطـاق سلسلة لونجـمـان الإنجليـزية المبسطة، ثم نشرها كـولينز COL-LINS في لندن سنة ١٩٥٣م مع مـقـدمـة ودراسة ليوناي دوبريه B. DOBREE، ونشرها لونجمان كاملة فـي نطاق «سلسـلـة التـراث الأدبي» سنة ١٩٥٩م مع دراسة ضـافـيـة أعـدهـا أ.سي. وارد A.C.WARD، ونشـرهـا أيضـًا مـرة أخرى في نطاق «سلسلة المؤلفات القـيِّـمـة» بالإنجليـزية سنة ١٩٦٤م.

ولأهمية الرواية فقد ترجـمت إلى لـغـات أخـرى، فنشـرت ترجمتهـا إلى الفرنسية في باريس سنة ١٩٦٦م عن طريق جـارنير EDITIONS GARNIER. ومـن طبـاعـتـهـا الكاملة الموثوقـة تلك الطبـعــة التي أشـرف على إصـدارها ر.ج. دن R.J. DUNN،


آن برونتي


إميلي برونتي

ونشرها نورتون W.W.NORTON في نيـويورك سنة ١٩٧١م في ٥١٠ صـفـحـات، وفـي سنة ١٩٧٧م نشـرتها جـامـعـة نيـويورك مع دراســة لمارك شــورر MARK SCHORER، وأعقبت هذه الطبعات طبـعـات أخـرى صـدرت في نيويورك ولندن.

وتعـد رواية جين إير إلى حـد كبير سيرة ذاتية للكاتبة، حيث تعكس وقـائع حيـاتها في أحيـان كثيرة تجربة شارلوت برونتي. عاشت جين يتيمة، وعُهد بتربيتها إلى العمة القـاسيـة السيـدة ريد REED، وكان زوجها السيد ريد قد وصَّى زوجته بها خيرًا وهو على فراش الموت، غير أنها لم تأخذ بوصيته فعاملتها بفظاظة وجفوة طيلة عشر سنوات تعيسة قضتها جين معـهـا تحت سـقف واحـد، ومرضت ووهنت هناك، ولقيت عناية من المربية اللطيفة بسي ليـفن BESSIE LEAVEN، فلمـا تعـافت أرسلت إلى مـدرسـة لوود LOWOOD الداخليـة التي لم تكن الحياة فيها أقل قسوة، وهناك تصادقت مع الآنسـة تمبل MISS TEMPLE، وكـان تحصيلها جيدًا. وتخرجت جين وعملت معلمة في المدرسة ذاتها فترة، ثم غادرتها وهي في الثامنة عشرة من عمرها لتعمل مربية للطفلة الجميلة أديل فـارنز ADELE VARENS، التي كانت تعيش في ضيعة ثورنفيلد THORNFIELD قـرب مـيلكوت MILLCOTE، وهي ابنة السـيـد إدوارد روشستر EDWARD ROCH-ESTER من عشيقته الراقصة الفرنسية المنفصلة عنه؛ وكانت قريبته فيرفاكس MRS FAIRFAX مدبّرة المنزل، وهي تتمتع بدماثة ورقة وتفهم. وقـد عـاشت جين راضية في جو الضيعة الهادئ، وكـانت تنتـقل أنَّى شـاءت في أرجاء البيت، إلا أنها حُذّرت من محاولة دخول حجرة غريبة مغلقة في الدور الثالث كانت تسمع أحيانًا ضحكات صاخبة منطلقة منها. وبينما كانت تتمشى يومًا إذْ بها تصادف السيد روشستر وقد سقط عن حصانه، ودفعته كبرياؤه مع ألمه إلى أن يرفض مساعدة أحد لإكمال مسيرته إلى منزله. وقـد وجّه أسئلته لجين، وعلم أنها المربية الجديدة. وفي ذات الليلة أوقظت جين عـقب صراخ شق صمت الظلمة، فرأت الدخان منبعثًا من حجرة السيد روشستر حيث كانت النار شابة

الكتابة الروائية فن يمتزج فيه الواقع بالتصور، وربما لامست بعض عناصر الواقع حياة الكاتب

بفراشه. وكان من عادة هذا السيد حضور الحفلات في منازل أصدقائه المجاورة، وكان أيضًا يقيم الحفلات في منزله لأصدقائه، ومن بين الحضور الشابة المتأنِّقة بلانشي إنجرام BLANCHE INGRAM التي كانت تحاول أن تخطب وده، وتطمع في التزوج منه. وفي ذات يوم التقى روشستر جين في الحديقة، وأعرب لها عن رغبته في الزواج منها، واتفقا على إتمام الزواج خلال بضعة أسابيع، وعندما حضرا للكنيسة لاستكمال إجراءات الزواج اعترض السيد ماسون على ذلك؛ لأن السيد روشستر متزوج من شقيقته، على الرغم من أن روشستر قد أوضح (لجين) أحوال زوجته وما بها من مسّ موروث، إلا أن جين أصرّت على مغادرة منزل روشستر، وسافرت إلى ميدلاند MIDLAND، وبحثت عن عمل ، وبينما كانت تتجول بين سباخها رأت ضوءًا خافتًا متسللاً من أحد المنازل، فقصدته، واستقبلها فيه الأختان ماري وديانا وشقيقهما القس جون ريفرز JOHN RIVERS، ومن المصادفات أن يكون هؤلاء من أقربائها. وفي ذات يوم تقدم القسيس لطلب يدها، وأنذرها بغضب الله عليها إن رفضت عرضه، وكان يتهيأ للسفر إلى الهند، لكن صورة روشستر كانت ماتزال بعدُ متشبثة بخيالها



شارلوت واختاها إميلي وآن

تعد رواية جين إير سيرة ذاتية للكاتبة، إذ تعكس وقائع الرواية كثيرًا من جوانب حياتها

وجدانها، فعادت تبحث عنه في ثورنفيلد، ولم تجد في موقع منزله القديم سوى أطلاله وركامه، وعلمت أن زوجته المجنونة كانت قد أشعلت النار فيه، فأتت عليه، وقد سقطت هي نفسها، ووافتها المنية في ذلك الحادث، ولم تفلح محاولة روشستر لإنقاذها، وقد وقعت عليه حقيبة مشتعلة، في أثناء تلك المحاولة، فآذت بصره، وأدت إلى بتر ذراعه، وقد اضطر عقب الحادث للعيش في منزل صغير له استطاعت جين أن تشق طريقها إليه، ووصلت إليه، والتقت روشستر، الذي سُرَّ لمقدمها، وعرض عليها الزواج ثانية فوافقت، وتزوجا، وأنجبا طفلاً جميلاً، وقد تحسنت أوضاع روشستر واستعاد الإبصار بإحدى عينيه.

لقد أوجز الكلام عن الحدث وتسلسله والحبكة في الرواية، ومُهِّد لهذه المقالة بترجمة مقتضبة للكاتبة، ليتاح للقارئ التقاط العلاقات بين حياة شارلوت الكاتبة وجين بطلة روايتها وإدراكها بشتى أبعادها، وهي علاقة وثيقة إلى الحدّ الذي قاد بعض النقاد إلى القول بأن رواية جين إير سيرة ذاتية لشاروت، وتثير هذه المرئية إشكالية العلاقة بين سيرة الكاتب ومضوع كتابته، وهي علاقة قد تكون موجودة بالاحتمال لا بالضرورة. وينبغي أن يؤخذ في الحسبان أن الكتابة الروائية فن يُمتزج فيه الواقع بالتصوّر، وربما لامست بعض عناصر الواقع حياة الكاتب وبيئته، وإننا لنجد صدى قويًا لذلك في روايات العصر الفكتوري الإنجليزي، في القرن الثامن عشر التي تقدِّم لنا ثروة من المعلومات عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لذلك العصر.

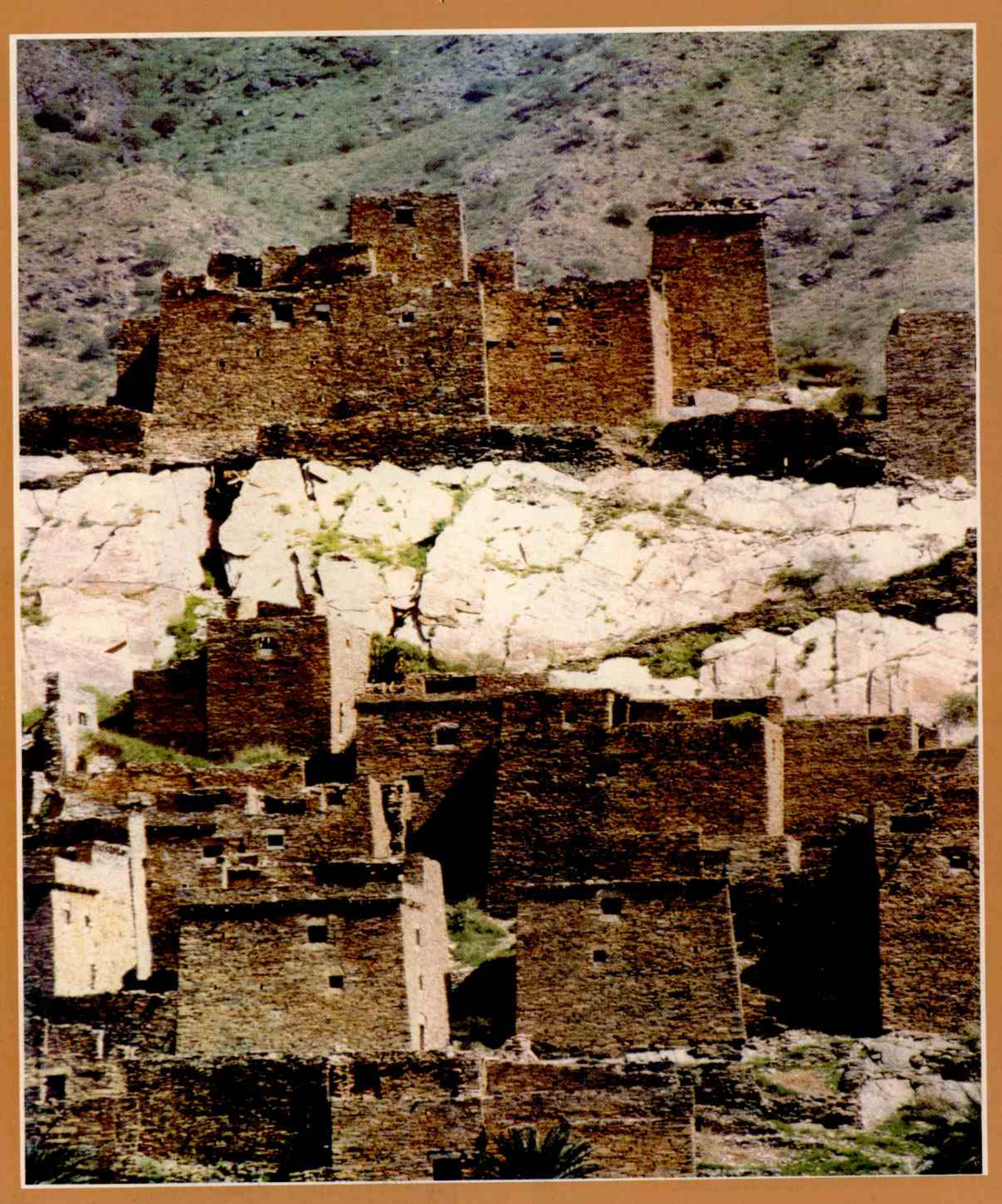
النشأة الدينية المحافظة للكاتبة تتبدى في نسيج روايتها

كانت شارلوت ابنة القسيس تعيش في جو أقرب إلى الكفاف في قريتها النائية في منطقة يوركشير، وقد اتخذت من الكتابة وسيلة لاختراق عزلتها المكانية والاجتماعية، بل وسيلة لتحقيق ذاتها، وإبراز شخصيتها، وبتوفيقها فيها تكون قد أفلحت في بلوغ غايتها، ولقد اندمجت بالكتابة، واندمجت الكتابة بها اندماجًا عزّ أن ينفصم، وتواصله سمة جوهرية لنجاحها وشهرتها في المجتمع الأدبي والنسوي الإنجليزي، وهي شهرة عاشت متعتها واستملحتها، ورغبت فيها، وسعت إليها قبل ذلك كله، وجدّت فنجحت في تلبية رغبتها، ولقد كان سعي جين إير وبحثها الذي انتهى إلى العثور على روشستر، فارس أحلامها، والزواج منه قمة تحقيق رغبتها، إذن فهنا نهايتان سعيدتان ختمت بهما حياة الكاتبة وبطلة روايتها. فمدار حياة الكاتبة ومدار حياة بطلة الرواية متمثل في السعي والبحث عن الغاية فالوصول إليها؛ وفي ذلك تحوير للآلية الروائية التي وجدت من قديم مثلاً في إلياذة هوميروس. وإنك لتجد النشأة الدينية المحافظة للكاتبة قد كان لها أثرها في نسيج روايتها، التي هيّأ القضاء والقدر وقائع مهمة فيها، وقد أخذت هذه الوقائع أماكنها على نحو ملائم جدًا في سياق الحدث الروائي، والنقد الموجَّه لتوظيف مثل هذه الوقائع في سياق الحدث الروائي مردود؛ لأن طروءها في حياة الإنسان أمر واقع، والرواية غنية بالرمز.

استطلاع

الطريق إلى ذي عين

عبدالله الكويليت - هاشم الشريف





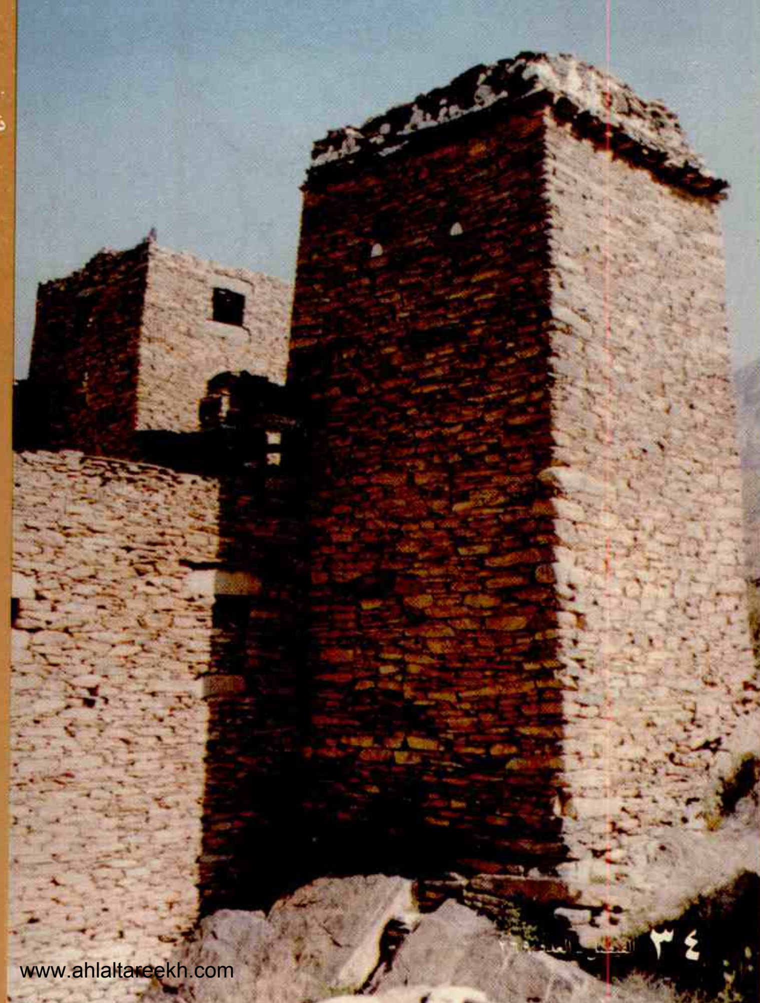
«مرحبًا هيل عداد السيل»

ربما تكون عبارة الترحيب هذه المشهورة لدى أهل منطقة الباحة بالنسبة إلى الغريب أو الوافد مجرد عبارة ترحيبية مزروعة في لافتة على طريق من طرقات الباحة، أو مجرد بطاقة دعوة سياحية لزيارة هذه المنطقة الجميلة، لكنك إذا تعمقت قليلاً في إنسان هذه المنطقة وجدت المعنى يختلف كثيراً، فالعبارة دعوة حب كبيرة مزروعة في القلب والوجدان، وتبث من القلب إلى القلب بعدد ماء السيل الهادر الذي يندفع فجأة.

إنها دعوة الحب التي ينشرها المضيف لضيفه، والصديق لصديقه، والفلاح لأرضه وسمائه، والأم لابنها الغائب حين يعود. أما الحبيبة فتهمس بها لحبيبها حين يؤوب وقد خبأتها سرًا في شغاف القلب، بعدما غمستها بماء الكادي وهي تضفر شعرها بالحناء، وذاكرتها بالحنين.

الساعة التاسعة صباحًا كنا قد غادرنا الفندق قبل قليل بمعية مرافقينا الودودين من إمارة منطقة الباحة التي قامت مشكورة باستضافتنا، ووفرّت لنا المواصلات.. وزد على هذا كله وجود هذه الرفقة الطيبة من أبنائها. مرافقان لولا صبرهما وأريحيتهما وبشاشتهما ـ على الرغم مما واجهاه من عناء ـ لما كان هذا الاستطلاع، فلهما منا أيضًا كل الشكر.





.. من أبراج ذي عين

الفندق الذي غادرناه يتربع على قمة شاهقة تطل بدورها على عقبة الباحة التي سننحدر منها إلى (ذي عين) القرية الأثرية التي تسكن الوادي، وتشهد على الزمان.

أما مدينة الباحة فتطل من علٍ، فهي تسكن الجبل، ويسكنها الجبل بضبابه، وغيومه، وغاباته، وطيوره، وشموخه !! لذا فللمكان ـ هنا ـ سطوته على الناس، وعلى المناخ والبيئة بجميع تفرعاتها مثلما للزمان سطوته على (ذي عين). وسطوة المكان هنا فرضت اسمها على الناس، والجغرافيا، واللغة أيضًا، ومن هنا أخذت الباحة اسمها. «فالباحة كلمة تحتل معاني كثيرة، فهي تعني قاموس الماء ومعظمه،

الطريق إلى ذي عين

وتعني ساحة الدار، والنخل الكثير الباسق. والباحة عند أهل البحر ما بعد غوره ، والبياحة هي شبكة الحوت، وفي الحكاية تعني بئرًا عَلْيَمًا لا يعرف لها قرار. والباحة تعني الأرض الفسيحة، وفي اللغة الباحة هي: الساحة وفناء الدار، والماء ومعظمه، والنخيل الكثير، وباحة الطريق وسطه»(١).

الموقع

ذي عين قرية تغفو في حضن تهامة، أما الباحة الأم، الباحة المنطقة، فيتسنم جزء منها جبال السروات، والجزء الباقي في تهامة. وإذا أردنا تحديد الباحة على الخارطة الجغرافية فهي «تقع في الجزء الجنوبي الغربي من المملكة العربية السعودية، وبالتحديد على خطي الطول ٤١ْ و ٤٢ْ وخطي العرض ١٩ْ و ٢٠ْ وحدودها الإدارية كالتالي:



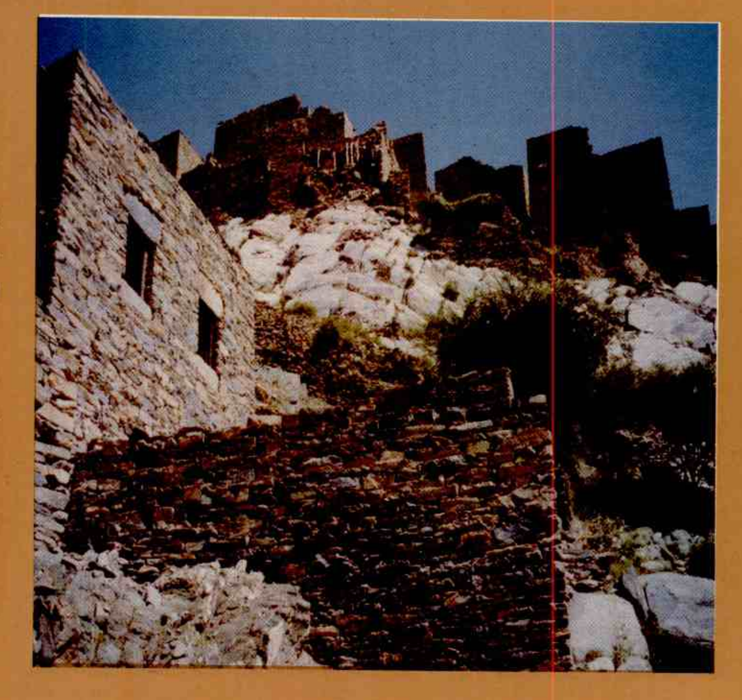
الاقتراب من مدخل ذي عين

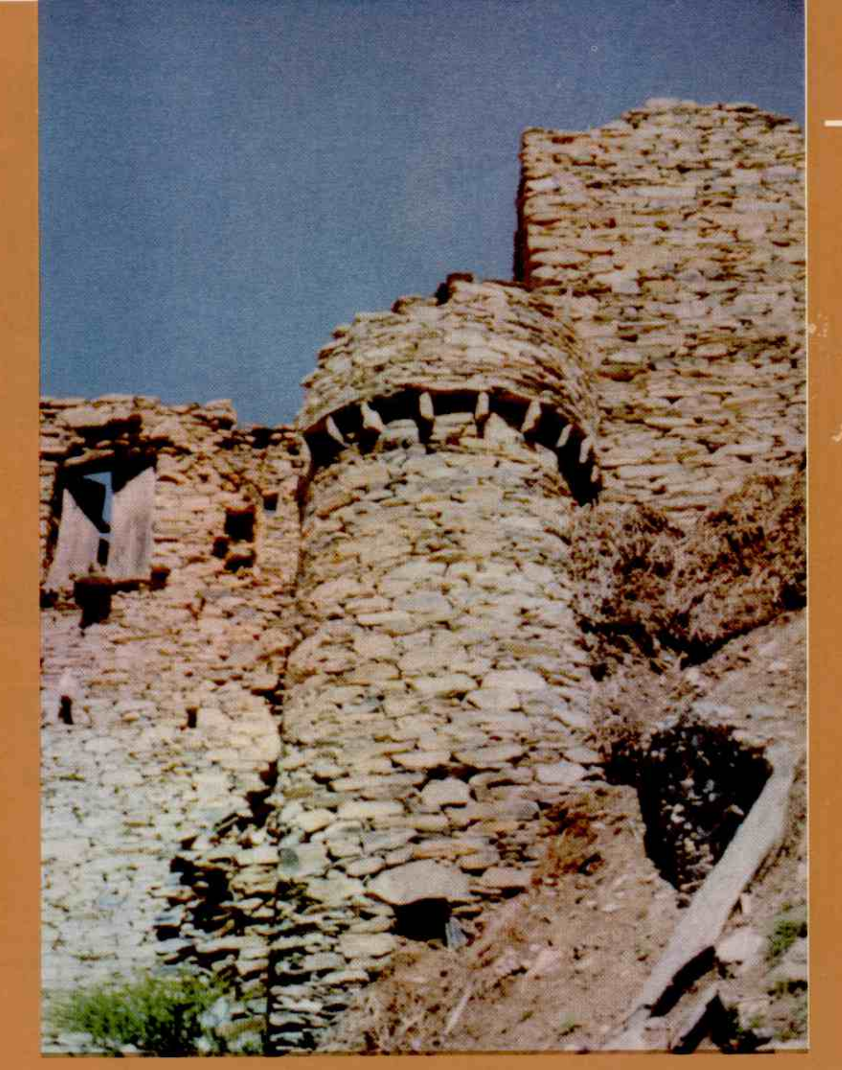
من الشمال: رنية، وتربة، والطائف
من الجنوب: القنفذة
من الشرق: البيشة
من الغرب: الطائف والليث.

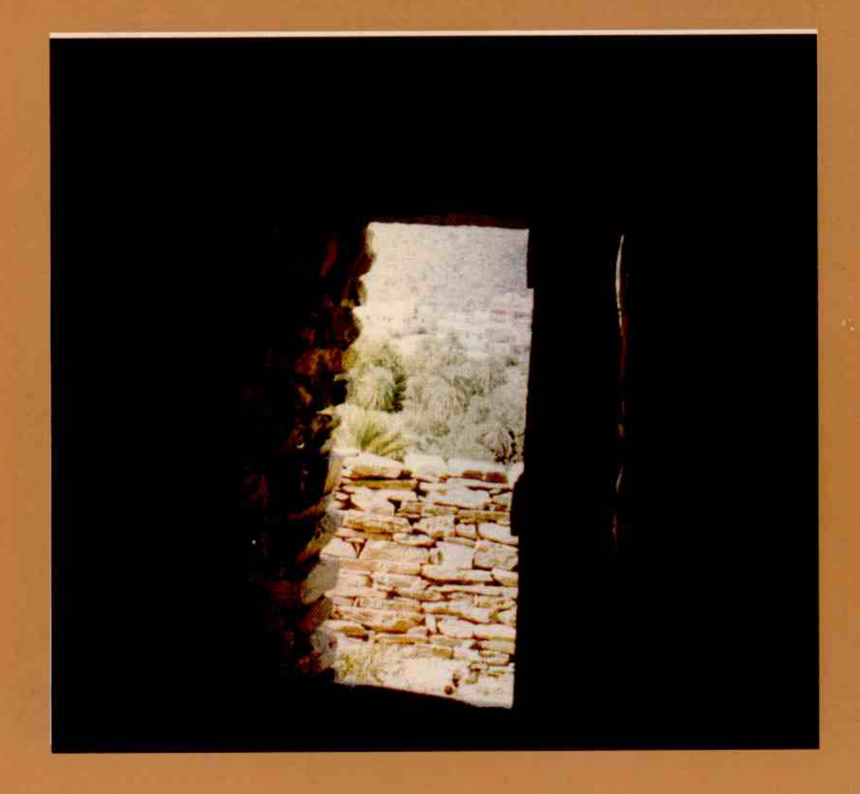
وتسكن قبيلتا غامد وزهران منطقة الباحة، وتسمى المنطقة بهما أيضًا (بلاد غامد وزهران).. وغامد ـ كما هو معروف ـ اسم جد قبيلة غامد من أزد شنوءة، وهو غامد بن عبدالله بن كعب بن الحارث، وقد غلب الاسم على البلاد التي يسكنها بنوه، فسميت البلاد باسم جد القبيلة، وكانت تعرف في كتب الأقدمين بسراة غامد بالنسبة إلى السراة. وتنقسم قبيلة غامد إلى ثلاثة أقسام هي: غامد الحاضرة بالسراة، وغامد البادية بسفوح السراة، وغامد الحاضرة والبادية بتهامة.

أما بلاد زهران فسميت أيضًا باسم جد القبيلة، زهران بن كعب بن الحارث بن كعب من أزد شنوءة، ويجتمع زهران وغامد في كعب؛ وكانت تعرف في كتب الأقدمين بسراة دوس، وسراة بني فهم، وبني عدوان «بالنسبة إلى السراة».

وتقسم زهران إلى قسمين: زهران الحاضرة بالسراة، وزهران الحاضرة والبادية بتهامة»(٢).







المناخ

يختلف المناخ باختلاف الارتفاع والانخفاض؛ فالمناخ في المناطق المرتفعة معتدل صيفًا بارد، نسبيًا، شتاءً، وفي المناطق الأقل ارتفاعًا معتدل صيفًا بارد شتاءً، وفي تهامة، وخصوصًا المنطقة الساحلية، شديد الحرارة صيفًا معتدل شتاء.

الطريق إلى ذي عين

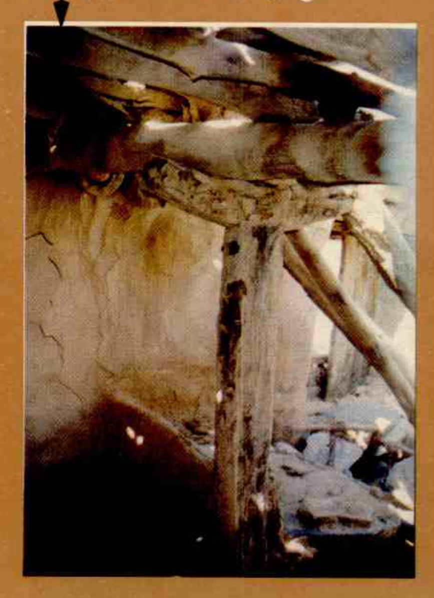
كيلو مترات قليلة لا تتعدى أصابع اليد الواحدة بين الفندق والحاجز الأول الذي يؤذن بالنزول في عقبة الباحة.. هذا الحاجز يغلق وقت اشتداد الأمطار خوفًا على أرواح الناس، وأخبرنا السائق عن وفاة ١٢ شخصًا قبل مدة قريبة عندما انهار أحد الجسور: «إنك لا تستطيع أن تتنبأ بما تفعله المياه بالجبال» هكذا قال السائق، ثم أضاف وهو يؤشر بيده من نافذة السيارة إلى خط ترابي متعرج وبزوايا حادة على الجبال التي أمامنا: «انظروا إلى الطرق القديمة هناك. كانت المسافة تأخذ منا مسيرة يوم ونصف صعودًا أو نزولاً، وربما تأخذ أكثر إذا كانت الأمطار شديدة. أما إذا كانت الأمطار شديدة جدًا فلا يركب الطريق إلا المضطر ، المريض أو صاحب الحاجة الشديدة!»

حين بدأنا النزول صارت الجبال عن يميننا. وكان هناك غرابان يحلقان في منتهى الحرية، رؤوس الجبال تكسوها غلالة شفيفة من ضباب خفيف، والطريق الإسفلتية تأخذ شكل أفعى ضخمة حفرت على جسد الجبال من دون استئذان منها!!.. الأشجار تغطي السفوح بنسب متفاوتة حسب رخاوة التربة وشدتها، وحسب قربها وبعدها من الشقوق والأخاديد التي حفرتها الأمطار. وعلى الرغم من تنوع الغطاء النباتي؛ إلاّ أنك تستطيع تمييز بعض الأشجار المعمرة التي تنمو بكثرة مثل العرعر والسرو والزيتون البري، وتشكل هذه النباتات بعض الغابات في منطقة الباحة والتي تزيد على العشرين





سطح المنزل وقد سطت عليه يد الزمن





نقش على أحد الأبواب الخشبية القديمة



أحد الأبواب القديمة



كتابة قديمة تعلو أحد الأبواب: أين دارسو الآثار منها؟!

غابة، خاصة إذا ما عرفنا أن هذه المنطقة ترتفع عن سطح البحر ما بين ٢١٠٠م، إلى ٢٤٠٠م.

كما أن متوسط درجة الحرارة السنوي الذي يبلغ في الصيف ما بين ٢٠ - ٢٤ درجة مئوية ساعد على زراعة نباتات أخرى تشتهر بها المنطقة، مثل: الحنطة، والشعير، والذرة، وبعض أنواع الفواكه والخضراوات مثل: اللوز والرمان والعنب.. إلخ.

أما تهامة، ومنها قريتنا (ذي عين)،



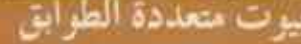
القرية تناغمت مع بيئتها حتى صارت جزءاً منها

فهي المنطقة الواقعة بين سلسلة جبال السراة والبحر الأحمر، التي يراوح ارتفاعها عن سطح البحر ما بين ٩٥م إلى ٥٥٠م، وهي شديدة الحرارة صيفًا معتدلة شتاء، ويزرع بها الدخن، والذرة، والسمسم، والموز، والكادي، وبعض الخُضَر، ومتوسط درجات الحرارة السنوي صيفًا من ٣٢ - ٣٣، وشتاءً من ٢٦ - ٢٧ درجة. أما متوسط كميات الأمطار فهي من ١٠٠ - ٤٠٠ مليمتر في السنة.

وعندما انتصفنا في الطريق أغرانا منظر الطبيعة، وزاد إغراءنا وجود بعض القرود من فصيلة البابون، قرب الطريق، فطلبنا من السائق التوقف للتصوير، وامتثل لطلبنا مجاملاً على الرغم مما يشكّله ذلك من خطر علينا وعلى الآخرين بسبب تعرّج الطريق، وضيقه النسبي!

الحرارة اشتدت عن ذي قبل، وكلما ازداد انحدارنا ازدادت الحرارة، كنا خلّفنا وراءنا العديد من الجسور الخرسانية والأنفاق التي حُفِرَتْ كالأنابيب داخل أحشاء هذه الجبال (بعض هذه الأنفاق يمتد طولها ٣٠٠ متر أو أكثر قليلاً.. فلك أن تتخيل إصرار الإنسان على الرغم من عناد الجغرافيا!!).

سألت مرافقي عن عدد هذه الأنفاق، فأجاب: إنها تقارب العشرين نفقًا، وقد تزيد أو تقل، ولم يكمل؛ فقد أشار بيده - فجأة - إلى بعض



بيوت متعددة الطوابق



صورة جانبية للقرية



أي ذكريات خبأتها هذه البيوت؟

المزارع الصغيرة جدًا، وقال: استعدوا فقد بدأنا ندخل ذي عين!!

ذي عين سطوة الزمان

إنها العاشرة صباحًا، لقد استغرق مسيرنا ما يقارب الساعة. ثم ترجلنا من السيارة، ووقفنا أمام إحدى «العشش» التي تستخدم عادة استراحة للمزارعين من هجير الشمس، بالإضافة إلى كونها «دكانًا» للتصريف السريع لبعض المنتوجات، مثل: الموز البلدي، وزهور الكادي. وعلى جانب الطريق تواجهنا اللوحة المعدنية التي تشير إلى ذي عين، القرية الأسطورية التي تتربع على عرش ربوة صخرية منذ زمن سحيق.

القرية لا تبعد سوى مسافة أمتار قليلة من الخط الإسفلتي، ويفصلنا عنها مزرعة تمتد كلسان أخضر؛ بل قل غابة صغيرة من أشجار الموز والنخيل بطول ٣٠٠م وعرض ٥٠م تقريبًا.

ذي عين قرية شديدة الإغواء، فما إن تقف أمامها حتى ترى نفسك بحضرة التاريخ بكامل هيبته، ووقاره، ورائحته العتيقة!

تقول المعلومات القليلة المتوافرة لدينا:

«ذي عين، بلفظ العين المعروفة: قرية كبيرة من قرى قبيلة بني عمر الأشاعيب بتهامة زهران، تقع إلى الشرق من وادي راش شمال المخواة بمسيرة خمس ساعات للماشي، وهي في ربوة مرتفعة باسمها، وبالقرب منها منجم لصناعة المرمر استعمله المعلّم بن لادن. وتمتاز بوجود صناعات دقيقة، وخصوصًا الأواني المنزلية المصنوعة من سعف النخيل وأليافه. وهي تقع الآن على طريق الباحة - المخواة الذي يخترق عقبة الباحة، وتُعد من أهم المشاتي؛ إذ إن قريتها القديمة المبنية بالرخام زادت من شهرتها، ورغّبت زوّار المنطقة في مشاهدتها»(٣).

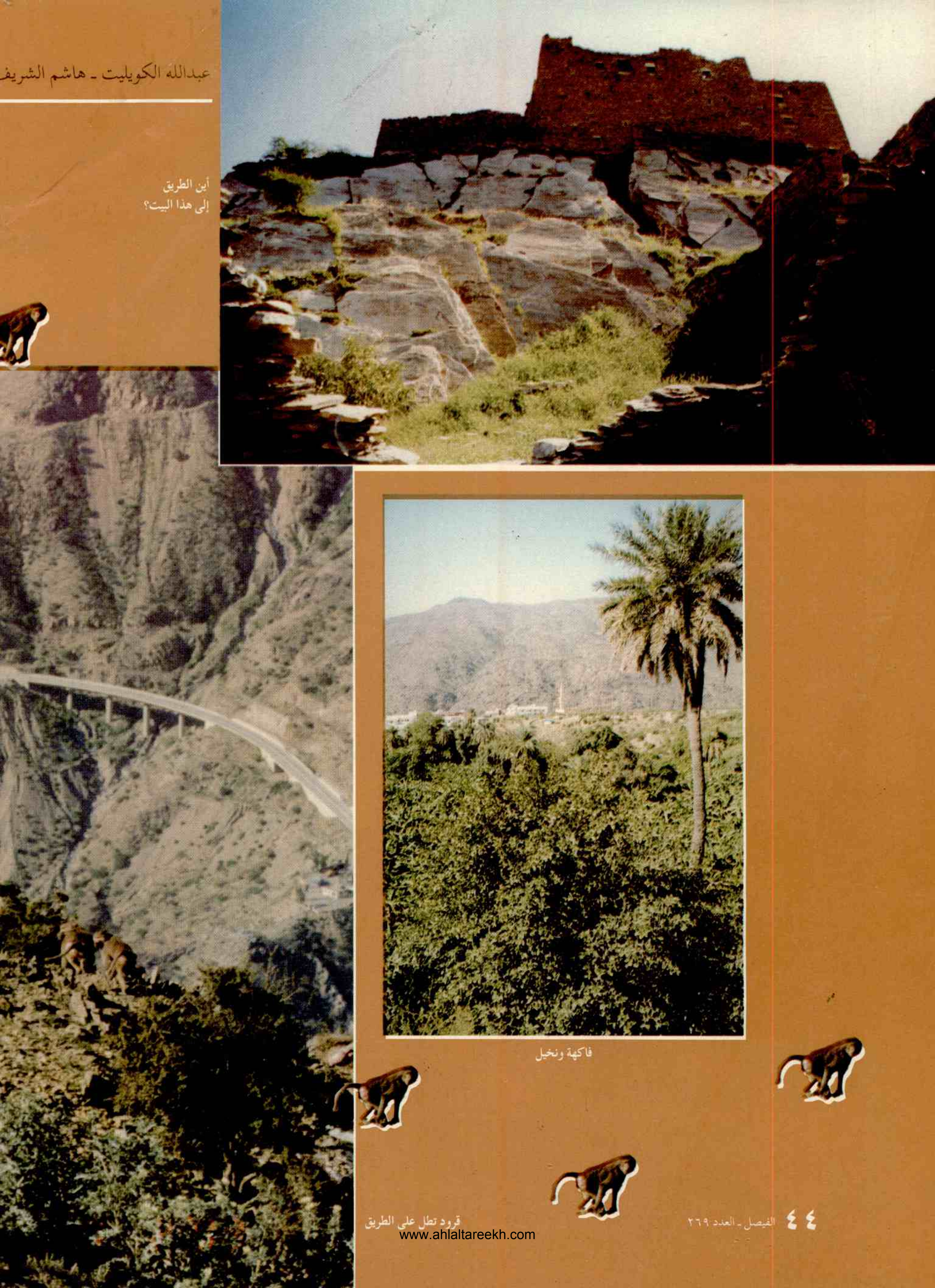
للأماكن شخصيتها، وطعمها، وروائحها، فما بالك إذا كان هذا المكان قديمًا، وسطت عليه يد الزمان، ولا زال يقاوم؟!.

ونحن نصعد - محمَّلين بآلات التصوير، والحرارة، واللهاث - احترمنا كثيرًا الإنسان الأول الذي بنى هذا الصرح الضخم بيديه العاريتين من كل شيء إلاّ من الإرادة، وقسوة الحاجة، فالبناء في بعض البيوت مع قلتها ترتفع





ذي عين.. النخل والصخر والموز والكادي



عبدالله الكويليت ـ هاشم الشريف

أين الطريق
إلى هذا البيت؟

فاكهة ونخيل

قرود تطل على الطريق

أكـثـر من ثـلاثة طوابق، والجـدران الحجرية مبنية بدقة هندسية مذهلة، فلا يوجد طين، أو مِلاط، أو إسمنت يبقي على التصاق هذه الأحجار بعضها ببعض على الرغم من صلابتها وتناغمها الهندسي الجميل. السقوف غير مرتفعة ومغطاة بالحجر والخشب، ويتوسط كل طابق باحة صغيرة تفضي إلى غرفتين أو ثلاث حسب مساحة بناء البيت، وربما حسب الموقع الاقتصادي، أو الديني، أو القبلي لصاحب هذا البيت أو ذاك. في مداخل البيوت تواجهك مصطبة حجرية يبدو أنها كانت مكانًا لإشعال النار بسبب آثار الرماد والسخام الذي يعلوها، ولست متأكدًا من صحة هذا الافتراض، فربما كانت هذه البقايا حديثة ومنذ عهود قريبة، بل ربما كانت هذه المصطبة مكانًا للاستضافة بسبب انعدام مكان للتهوية بقربها. الدرج مبني من الحجر والخشب، أما النوافذ فصغيرة جدًا، لا تكاد تسمح لشيء من الهواء، أو شيء من الضوء بالنفاذ إلا قليلاً، ويبدو أن صغر هذه النوافذ





ذي عين من عل

جُعل لحماية أهل الدار من كل دخيل إنسانًا كان أو حيوانًا.

ذي عين مكان بكر على قدمه. تقول الأسطورة: «إن رجلاً صالحًا كان يعيش في بيشة، شرق السروات، وبيشة بموقعها على أطراف الصحراء كان أهالي السروات يعدونها منتهى للحياة، فقيل فيها المثل الشهير: «ما ورى بيشة عيشة»، وكان الرجل الصالح يدّخر ما يكسبه من مالٍ على هيئة دنانير ذهبية في عكاز مجوف، وقضى عمره في العمل إلى أن امتلأ العكاز بالدنانير، وفي ذات صيف قائظ قصد بئر ماء في وادي بيشة ليشرب منه، فسقط العكاز في البئر، فقفز الرجل خلفه ولكن العكاز لثقله غار في قاع البئر، وخابت كل محاولاته لاسترجاعه، إذ إن البئر لا قرار لها، فقصد الرجل تهامة للرزق، وحين هبط من أعالي السروات، مرّ على أهل قرية مُجدبين، فطلبوا مساعدته في استخراج الماء وكان ذا علم فيه، فاشترط عليهم أن أول ما يخرج من الماء له، فوافقوا، فأشار عليهم أن يحفروا في الصخر

الطريق إلى ذي عين

لا تقل أسطورة عن قصتها إذ إن مزارع الموز لا تشرب إلاّ كلّ اثني عشر يومًا، فارتبط فتح الماء لسقيا المزارع بظهور نجوم في السماء، فكلما ظهر نجم سقيت مزارع عوائل في القرية. والأرض لا يمكن لفرد أن يتصرف فيها. فالحصص موزعة كأسهم، ولا



خلف الغصن.. أم خلف التاريخ؟



شجرة تين معمرة كبيرة الحجم بالقرب من عين ذي عين



قرب القرية. فتدفق الماء من الصخر وخرج عكازه مع الماء فالتقطه الرجل، وهمّ بالرحيل، ولكن القوم استوقفوه، وأبوا أن يأخذ العصا دون أن يعرفوا ما فيها، وما قصتها؟ فاستعصى عليهم، فقتلوه، فتوقف جريان الماء حيث قتل الرجل، وسميت القرية «ذي عين» نسبة إلى عين الماء فيها! ومزارع القرية

النزول من عقبة الباحة


ذي عين (القرية الحديثة)

يحق بيعها خارج الأسر، وهو نظام زراعي واجتماعي غاية في الإتقان والروعة والخصوصية؛ ولأن الحياة تبدلت قرر أهل القرية الانتقال للضفة المقابلة لبناء بيوت حديثة، وتركوا هذا التراث على حاله دون مساس»(٤)

ذي عين مكان سطت عليها يد الزمن، وبدأت الظروف الطبيعية، وشدة الإهمال تعبث بهندامها الذي صمد طويلاً..

ذي عين شاهدة على عظمة الإنسان القديم الذي بناها.. كما هي شاهدة على جهل الإنسان المعاصر الذي أهملها بجهله وكسله ونكرانه!!

ذي عين منطقة تستوجب منا الاهتمام والحب الذي يتمثل بصيانتها ودراستها من جميع الجوانب التاريخية والاجتماعية والمعمارية.

.. ذي عين حرستك عين الله من عيون لم تعرف بعد كيف تنظر إلى تراثها؟!

المراجع

١- الباحة: أحمد صالح السياري.
٢- المعجم الجغرافي لبلاد غامد وزهران ط٣، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، تأليف علي بن صالح السلوك الزهراني.
٣- المصدر السابق
٤- «ذي عين» بعيدة عن عين: أحمد البوق، جريدة البلاد العدد ١٥٥٥٦ شوال ١٤١٩هـ.

نحو المشروع الجمالي:

علم الجمال والثقافة الإسلامية

أحمد محمود الخليل

الوعي الجمالي من أهم أشكال الوعي الإنساني، وتنجم أهميته عن مساهمته في إغناء الجانب المعرفي من وجودنا، وفي تطوير قدراتنا على الاكتشاف الدائم لأنفسنا وللعالم من حولنا. إنّه يقارب الوعي الديني من حيث الانفعال بالكون، وعرفانية الحدس. والرغبة في تجاوز المحدود إلى المطلق. وهو يماثل الوعي الفلسفي من حيث الولع بتشريح بنائية الوجود، والعمل لتحديد غير المحدود، وتعقيل غير المعقول.

إن الإيمان هو محور العرفان الديني، والاقتناع محور العرفان الفلسفي. أمّا محور العرفان الجمالي فهو الاندهاش. والاندهاش في نهاية الأمر اكتشاف. وها هنا بالتحديد تكمن أهمية الوعي الجمالي على الصعيد المعرفي العام، ومن هنا تستمد الدراسات الجمالية قيمتها الواقعية والوثوقية في آن واحد.

والآن...

ما ماهية الجميل؟

وما مفهوم الجمال؟

وما حقيقة علم الجمال؟

وبعد هذا كله: ما آفاق الوعي الجمالي في الثقافة الإسلامية؟

ماهية الجميل:

للجميل في كتب اللغة معنيان: أولهما حسّي، وثانيهما معنوي. فالجميل هو الشحم يذاب ثم يجمع(١). والجميل ضدُّ القبيح(٢). ويشير ابن قتيبة (ت:٢٧٦هـ) إلى المناسبة بين الدلالتين في قوله: «والجميل الودَك بعينه. ووصف الرجل يراد أنّ ماء السِّمَن يجري في وجهه»(٣).

ويبدو أن دلالة الجميل الحسية أشرفت على الانقراض في الشعر العربي منذ أيام الجاهلية الأخيرة. ذلك لأن الشعراء نادرًا ما يستعملون لفظة الجميل بمعنى الوَدَك (الشحم المذاب).

ولعلّ الشاعر المخضرم أبا خِراش الهذلي هو الوحيد الذي استعمله بهذا المعنى(٤).

أما الدلالة المعنوية للجميل فهي أكثر دورانًا في أشعار العرب القدماء. ونذكر على سبيل المثال قول ذي الإصبع العدواني، مخاطبًا ولده أُسَيدًا:

أأُسَيدُ، إنْ مالاً ملكْـ...

تَ فسرْ به سَيرًا جميلا(٥)

ونذكر أيضًا قول أبي خراش نفسه، معتذرًا إلى أميمة زوج أخيه المقتول عروة:

ولا تحسبي أنّي تناسيتُ عهدَه

ولكنّ صبري، يا أُمَيمَ، جميلُ(٦)

مفهوم الجمال

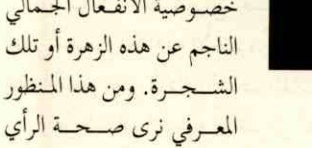
إن الحديث عن الجميل يسلمنا إلى البحث في الجمال. والجمال في

اللغة مصدر الجميل، وهو الحُسْن يكون في الخَلْق والخُلُق(٧). واختار ابن دريد (ت ٣٢١هـ) أسلوب تعريف الشيء بنقيضه، فقال: «الجمال ضد القبيح»(٨).

والتمس الإغريق السابقون سقراط (ت:٣٩٩ق.م) «تعريف الجمال في عبارات كمّية ومكانية. فالموسيقا انتظام في الأصوات، والجمال المجسّم انتظام في النِّسب»(٩). ولا عجب في ذلك. فقد كان القوم يعيشون طور هيمنة الإدراك الحسي، ولم تكن مفاهيمهم المجرّدة المحدودة لتسعفهم في المجالات المعرفية الدقيقة. وليس هذا فحسب، بل نرجّح أنّ الجمال نفسه كان يتجلّى لهم، على الأغلب، في ما هو كمّي ومكاني؛ شأنهم في ذلك شأن كلّ أبناء حضارات فجر التاريخ.

أمّا في العصور الحديثة فيذهب هيوم إلى أنّ «الجمال هو انتظام الأجزاء وتناسقها، إمّا بفعل طبيعتها الأصلية، أو بفعل الرغبة، وبشكل يعطي لذّة ورضى نفسيًّا»(١٠).

ويرى جورج سانتيانا (ت: ١٩٥٢م) أن «أول خطوة في تعريف الجمال هي استبعاد جميع الأحكام العقلية، وجميع أحكام الواقع، وأحكام العلاقة»(١١).



سقراط

ومن المهمّ أن نأخذ في الحسبان أن مفهوم الجمال نسبي. وكون الجمال نسبيًّا يعني أنه ليس ذاتيًّا خالصًا، ولا موضوعيًّا صرفًا، إلا إذا أردنا بالذاتية الفرق بين الموقف الجمالي عند هذا الشخص وذاك، وأردنا بالموضوعية خصوصية الانفعال الجمالي الناجم عن هذه الزهرة أو تلك الشجرة. ومن هذا المنظور المعرفي نرى صحة الرأي القائل بأنّ خاصة الجمالية لشيء ما ليست صفة لهذا الشيء. بل نشاط ذاتي، وموقف تتّخذه تجاه هذا الشيء(١٢).

علم الجمال

الحقّ أن بروز أهمية علم الجمال، على الصعيدين الفلسفي والأدبي، يرتبط في العصر الحديث باسم الفيلسوف الألماني بومجارتن (ت:١٧٦٢م). وقد أدخله في كتابه «تأملات فلسفية»، ليصف دراسة معرفة الإنسان الحسية بالجميل، والتعبير عنه في أشكال فنية(١٣).

ويذكر أنّ بومجارتن، عندما أطلق هذا المصطلح، اعتذر عن إدخال مثل هذا الموضوع بين قصور الفلسفة(١٤). غير أنّ الأمر خرج عن إرادة بومجارتن وغيره، فقد تسلل علم الجمال بمبادئه ومفاهيمه وقيمه إلى كل مجال فيه أثر للجميل والجمال، وترعرعت في أكنافها علوم جمالية كثيرة؛ فثمّة علم الجمال البنوي، وعلم الجمال اللغوي، وعلم الجمال الدلالي، وعلم الجمال، وعلم الجمال الشكلي، وعلم الجمال النفعي، وعلم الجمال الاجتماعي - الرمزي، وعلم النفس الجمالي(١٥).

ولعلّ من المفيد الإلمام ببعض ما قيل في تعريف علم الجمال وأهميته النقدية، فهو في رأي سانتيانا غالبًا ما ينزع إلى أن يدخل في نطاقه تاريخ الفنّ وفلسفته، كما ينزع إلى إضافة كثير من الوصف والنقد إلى ما فيه من تفكير نظريّ عند تأثرنا بالجمال(١٦).

ويقال أيضًا: ما علم الجمال إلا فلسفة ما هو جميل. وأمّا الغرض من هذه الفلسفة فهو تملّك الواقع جماليًّا بوجه عام. وفي الأدب تشمل عملية التملّك هذه كل شيء من الكاتب حتى القارئ(١٧).

وأزال فرويد (ت:١٩٣٩م) شيئًا من اللَّبس بقوله: «علم الجمال يدرس الشروط التي فيها نشعر بالجميل»(١٨). هذا في حين يبدو شارل لالو غير راض عن ربط علم الجمال بعجلة المنطق أو الفلسفة؛ إنّه ينأى به عن مدارج الفكر، ويصعد به في معارج الحدس والعرفان، قائلاً: «إن الاستطيقا يجب أن تأتي من القلب لا من العقل، وإنّ علم الجمال إلهام وليس تفكيرًا»(١٩).

ولا يخفي أحمد أمين (ت: ١٩٥٤م) تبرّمه بنظريات علم الجمال. إذ لا يعدّها «أكثر من تسلية عقلية»(٢٠). وهو يعتقد أن خطر علم الجمال ناجم عن «أن الدارس الجمالي يتعمّق في البحث التفكيري المجرّد تعمقًا يؤدي به إلى أن يبتعد عن الموضوع الأدبي الذي يبحث فيه، فيغرق في لجج من التفكيرات الفلسفية والخلقية والنفسانية، تجعله في منأى عن الأدب والذوق الأدبي، بل تنتزع منه الحاسة الجمالية نفسها، فيصبح الدارس الجمالي لا جماليًّا، لأنه قد فقد حواسّه الفنية، واستحال إلى آلة مفكرة، لا ذوق لها، ولا إحساس فيها بالحسن»(٢١)

على أنّ الأمر، فيما نعتقد، أدق ممّا ذهب إليه كلّ من لالو وأحمد أمين. ذلك لأن مهمة علم الجمال ليست مجرّد تذوق الجمال فحسب، بل هو تفسير وتحليل وتقويم لهذا التذوق أيضًا.

إن التذوق الجمالي يعني، بادئ ذي بدء، الإحساس بالجميل، وتمييزه واصطفاءه. ويعني من ثَم الشعور به والانجذاب إليه، والاتحاد به. وأمّا العلم بالجميل فيعني التفكير جماليًّا، ويعني في الوقت نفسه الشروع في الفحص والتنقيب، والتحليل والتركيب، والاستقراء والاستنباط، والتوقف طويلاً عند: ما هو؟ ولم؟ وكيف؟ وها هنا يغدو من الضروري الانتقال من شفافية الحدس إلى صرامة العقل، ومن آفاق الحقيقة إلى

مهمة علم الجمال ليست مجرد تذوق الجمال فحسب، بل هو تفسير وتحليل وتقويم لهذا التذوق أيضًا

ضوابط عالم الشريعة، كما يقول المتصوفة.

إننا لسنا في حاجة إلى علم الجمال في أثناء تجربة التذوق الجمالي. هذا صحيح، إلا أنّ علم الجمال يغني تجاربنا الجمالية، وينمي أذواقنا، ويهذّب مشاعرنا. وليس هذا فحسب. بل إنّ استيعابنا التذوق الجمالي عند الآخرين لا يمكن تحققه في غياب علم الجمال. وبذلك نكون أبعد الناس عن التسلية العقلية، ونكون أحوج الناس إلى التفسيرات الفلسفية والخلقية والدينية. وإلاّ فلن نتمكن البتة من فهم جمالية الوشم وتذوقه، عند عرب الجاهلية مثلاً.

الوعي الجمالي والثقافة الإسلامية

بعد هذا التطواف في ماهية الجميل، ومفهوم الجمال، وعلم الجمال، نحاول إلقاء نظرة على الوعي الجمالي في الدائرة الرحيبة للثقافة الإسلامية. والحق أن الأمر على طرافته لا يخلو من الصعوبة، ولذا لن نتتبع الآن كلّ اتجاهات الوعي الجمالي في الإسلام. ولن نستقصي جميع مذاهبه، وإنما نكتفي بتعرف منطلقاته الرئيسة ومحاوره المهمة، من المنظور الديني، والمنظور الفلسفي، والمنظور النقدي.

المنظور الديني

للحياة الإنسانية، بوجهيها (الدنيا والآخرة)، أهمية كبرى في العقيدة الإسلامية، والقضية المحورية، في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية الشريفة، هي الواقعية الإنسانية بوجهيها (المادي والمثالي). وتأسيسا على هذين الأصلين، فقد بات كلَ ما هو إيماني إنسانيًا بالضرورة، ومن ثم جميلاً بالضرورة أيضًا.

وهذه حقيقة لا تخفى على كلّ من يدقق النظر في الأصول النظرية الإسلامية. والأصول النظرية ضوابط محكمة لما يمكن أن يتحقق على الصعيد التطبيقي، حيث النافع والضار، والحلال والحرام، والخير والشر، والحق والباطل. وها هنا تحديداً ينبثق الجمال معبرًا عما هو إنساني في النافع والحلال، والخير والحق. وها هنا أيضًا ينكشف القبح عمّا هو غير إنساني في كل من الضار والحرام، والشر والباطل.

وفي دائرة العقيدة الإسلامية، تتحد الضرورة الوجودية بالضرورة الجمالية، ولا يكفي أن يكون الموقف صائبا، وإنما ينبغي أن يكون جميلا أيضًا. ولذا جاء الأمر للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ـ أن يهجر المرجفين هجرًا جميلاً. **المزمل**:١٠، وكان الأمر للمؤمنين أن يسرّحوا النساء *سَراحًا* جميلاً. **الأحزاب**:٤٩.

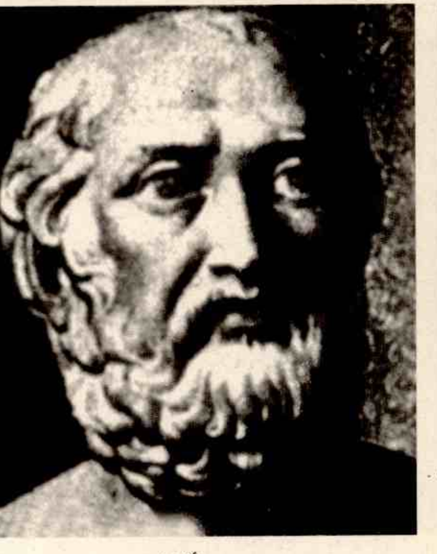
هذا، ويميط القرآن الكريم اللثام عن البعد الجمالي في بعض ما يمتلكه المرء على سبيل الانتفاع؛ وذلك في قوله تعالى: *والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ فيها دفْءٌ ومَنَافِعُ ومنها تأكلون. ولَكُم فيها جَمالٌ حين تُريحُونَ وحِينَ تَسْرَحُونَ*. **الأنعام**:٥ ـ ٦.

والحق أن العقيدة الإسلامية لا ترضى بجمال المضمون فقط. وإنما تطلب جمال الشكل أيضًا، ذلك لأن رؤية الإسلام رؤية متكاملة، لا إفراط فيها ولا تفريط. وعن النبي صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: «لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر.. فقال له رجل: إنه يعجبني أن يكون ثوبي حسنًا، ونعلي حسنة. قال: إن الله يحبّ الجمال. ولكن الكِبْر من بَطْر الحق، وغَمْط الناس»(٢٢).

ويرد في القرآن الكريم مرادف للجمال هو الحسن. قال الله تعالى: الذي أحسنَ كلَّ شيء خلقَه وبدأ خَلْقَ الإنسان من طين. **السجدة**:٧. هذا على وجه الشمول. ونلمح اهتمامًا كبيرًا بجمال الشكل في قوله تعالى مخاطبًا البشر: وصَوَّرَكُم فأحسنَ صُوَرَكُمْ. **التغابن**:٣.

ونقيض الجمال والحسن هو القبح. وما أكثر ما ندّد القرآن الكريم بالموقف القبيح، وبالممارسة القبيحة! ويقول الله في الطغاة من أمثال فرعون وهامان: ويومَ القيامَةِ هُمْ من المقبوحين. **القصص**:٤٢.

هيغل



أفلاطون

المنظور الفلسفي

يبدو المفكرون والفلاسفة المسلمون مهتمين اهتماما واضحا بتحليل الجمال وتنظيره. ولا ننكر أنهم كانوا مدفوعين إلى ذلك بتأثير المنطلقات الجمالية المتأصلة في العقيدة الإسلامية، وغنى الثقافة الإسلامية من جانب، وبتأثير الازدهار الحضاري المادي من جانب آخر.

في دائرة العقيدة الإسلامية، تتحد الضرورة الوجودية بالضرورة الجمالية، فلا يكفي أن يكون الموقف صائبًا، وإنما ينبغي ـ كذلك ـ أن يكون جميلاً



فرويد

ومع هذا لا نرى بدأ من الإقرار بأن المفكرين والفلاسفة المسلمين كانوا، وبدرجات متفاوتة متأثرين بالفكر الجمالي الإغريقي؛ وعلى نحو خاصّ مثالية أفلاطون (ت:٣٤٧ق.م)، والاتجاه الإشراقي.

إنّ ابن سينا (ت: ٤٢٨هـ) مثلاً يتحدث عن الجمال العقلي المقرون باللّذة السرمدية. ومتى يظفر المرء بهذا الجمال؟ فقط عندما يتخلص من عوارض البدن، ويتصل بالعقل الفعال (الله) تمام الاتصال(٢٣).

أمّا أبو حامد الغزالي (ت:٥٠٥هـ) فإنه يبحث في الحسن المطلق والقبح المطلق، وما بينهما من درجات، ويرى أنّ القريب من الحسن المطلق أسعد حالاً من القريب من القبح المطلق(٢٤).

ونلتقي في دائرة التصوّف اهتماما كبيرا بالجمال المطلق أيضا. وها هو ذا الشاعر المتصوف الشهير ابن الفارض (ت:٦٣٢هـ) يقول بصدد هذا:

وصرِّحْ بإطلاق الجمال، ولا تَقُلْ
بتقييده، مَيْلاً لزُخرُف زينة(٢٥)

وهذا الجمال المطلق الذي يتحدث عنه الفلاسفة والمتصوفة هو جمال روحاني؛ إنه جمال الربوبيّة، جمال المثل الأعلى.

ويبرز إزاء هذا الفكر الجمالي المثالي فكر جمالي مادي، يصرح منظروه بإطلاق الجمال عليه أيضًا، لكن من منحىً مخالف تمامًا. فهم لا يرون في الكون قبحًا؛ لأن كلّ ما خلقه الله هو جميل، ويحتجون في ذلك بقول الله تعالى: *الذي أحسَنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَه*. **السجدة**:٧. وكذلك بقوله عزّ وجلّ: *صُنْعَ الله الذي أتْقنَ كلَّ شيءٍ*. **النمل**:٨٨. وانتهى هؤلاء من بعد إلى أنّ الأشياء الجميلة مظهر من مظاهر الحق، وسمّوها المظاهر الجمالية.

والحق أن الجمال الإلهي ظلّ مصدرًا ثرًا لدراسات جمالية قيّمة، تدور في معظمها حول المراتب الأربع التالية: جمال الذات، وجمال الصفات، وجمال الفعال، وجمال الأسماء(٢٧)،

على أن الفكر الجمالي في الإسلام اغتنى بذلك الجدل الدقيق الدائر حول منشأ الحسن والقبح. فالأشاعرة مثلا يذهبون إلى أنّ «الواجبات كلها بالسمع، والمعارف كلّها بالعقل. فالعقل لا يحسن ولا يقبح»(٢٨). أما المعتزلة فيرون أنّ «المعارف كلها معقولة بالعقل، واجبة بنظر العقل.. والحسن والقبح صفتان ذاتيتان للحسَن والقبيح»(٢٩). وليس هذا الجدل ضربًا من الترف الثقافي، وإنما هو منحى اعتقادي فلسفي، يلقي بظلاله على مشكلات خطيرة، مثل الصواب والعقاب، والمسؤولية والحرية.

وإلى هنا نكون قد اطّلعنا على معيارين مهمين من معايير الفكر الجمالي في الإسلام؛ هما الشرع والعقل. وثمة معياران آخران لا يقلاّن أهمية عنهما؛ ألا وهما اللذّة والكمال.

أما اللّذة فهي، في رأي الفارابي (ت:٣٣٣هـ)، تحصل أكثر «بأن يُدرك الأجمل والأبهى والأزين الإدراك الأتقن والأهم»(٣٠). وتوسع الغزالي في تحليل الصلة بين اللّذة والحسّ الجمالي، فيقول: «اللذة نوع إدراك. والإدراك يستدعي مدركًا، ويستدعي قوة مدركة. فمن لم تكمل قوة إدراكه لم يتصور منه التلذذ، فكيف يدرك لذّة الطعوم من فقد الذوق؟ وكيف يدرك لذّة الألحان من فقد السمع؟ ولذة المعقولات من فقد العقل؟»(٣١).

وأما معيار الكمال فيرتبط عند الفارابي بفلسفته المثالية الغائية، تلك الفلسفة التي تشبه في بعض منطلقاتها فلسفة هيجل (ت:١٨٣١م) في العصور الحديثة. وقد ذهب الفارابي إلى أن الجمال في كلّ موجود هو أن يوجد وجوده الأفضل، ويحصل له كماله الأخير(٣٢).

ويقترب ابن سينا ممّا ذهب إليه الفارابي؛ إذ يقرر أن جمال كل شيء هو أن يكون على ما يجب له(٣٣). ويكاد الغزالي ينحو منحى هذين الفيلسوفين في موضوع العلاقة بين الجمال والكمال. وهو يرى أن جمال الشيء ناجم عن حضور كماله اللائق به. الممكن له. فإذا كانت كمالاته الممكنة حاضرة بأجمعها فهو غاية الجمال. وإذا كان الحاضر بعضها فله من الجمال بقدر ما حضر(٣٤).

والطريف أن الغزالي بحث في نسبية الجمال، وما يتفرّع عليها من ذاتية وموضوعية. فالقبح في رأيه نسبيّ؛ لأنّه قد يكون الشيء قبيحًا عند شخص حسنًا عند غيره، إذا وافق غرض أحدهما دون الآخر(٣٥). بل تنجم النسبية الجمالية عن اختلاف أحوال الفرد أيضًا، فهو قد يستحسن في بعض الأحوال عين ما يستقبحه إذا اختلف الغرض(٣٦).

ولا تقتصر اهتمامات الغزالي الجمالية على هذا الأمر فقط. وإنما يتطرق الرجل إلى مسألة الجميل والنافع. فالشيء الجميل قد يكون مرغوبًا فيه لا لحظّ يُنال منه وراء إدراك الجمال، بل قد يكون كذلك «لأن إدراك الجمال فيه عين اللّذة». ويضيف قائلاً: «وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجاري محبوب، لا ليُشرَب الماءُ وتؤكل الخضرة، أو يُنال منها حظّ سوى الرؤية»(٣٨).

الجدل حول الفكر الجمالي ليس ضربًا من الترف الثقافي، وإنما هو منحى اعتقادي فلسفي يلقي بظلاله على مشكلات خطيرة مثل الثواب والعقاب، والمسؤولية والحرية.

المنظور النقدي

لم يكن الإرث العربي الجمالي، في مجال النقد، أقل إشراقًا منه في المجالات الأخرى. والانطباعية التي نلمسها في النقد الجاهلي تشكّل بدايات هذا الإرث. فالخليفة عمر بن الخطاب يعدّ زهير بن أبي سُلمى أشعر شعراء الجاهلية، لأنّه كان لا يعاظل بين الكلام، ولا يتتبع حوشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه(٣٩).

وكانت الاهتمامات اللغوية تزاحم الانطباعية في ميدان التقويم الجمالي. وقد ترعرع هذا الاتجاه في كنف علماء جمعوا بين الأدب واللغة والنحو، كأبي عمرو بن العلاء(ت١٥٤هـ)، ويونس بن حبيب (ت١٨٢هـ).

وتكلّل النقد الانطباعي من بعد بظاهرة الاختيارات، مثل المفضّليات والأصمعيات. والحق أن كلاً من المفضل الضبّي (ت نحو ١٦٨هـ وقيل غير ذلك)، والأصمعي (ت:٢١٦هـ) لا ينقد الشعر الذي اختاره؛ بيد أنه باختياره ينبئ عن إعجابه بذلك الشعر، ويعزز مواقع الموروث النقدي، ويرفع من شأن قيمه الجمالية.

هذا، ويتطور النقد الانطباعي اللغوي، ويصبح فنًا للنقد في دراسات ابن سلاّم الجمحي (ت:٢٣٢هـ). فالرجل يأخذ بمنهج الطبقات في دراسة فحول الشعراء. ويقتضي هذا المنهج إعمال الفكر والشروع في الموازنة، والنظر إلى النقد على أنه تذوّق للشعر وعلم به أيضًا. وقال في ذلك: «للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات»(٤٠).

وتابع فن النقد تطوّره في أبحاث نقّاد أفذاذ، اشتهر منهم ابن قتيبة (ت:٢٧٦هـ)، وابن المعتزّ (ت:٢٩٦هـ)، وابن طباطبا (ت:٢٣٢هـ)، وقُدامة بن جعفر (ت:٣٣٧هـ)، والآمدي (ت:٣٧٠هـ)، والمرزباني (ت:٣٨٤هـ)، وعلي بن عبدالعزيز الجُرجاني (ت:٣٩٢هـ)، وأبو هلال العسكري (ت:٣٩٥هـ)، وعبد القاهر الجُرجاني (ت:٤٧١هـ)، وحازم القرطاجني (ت:٦٨٤هـ)، هذا علاوة على آراء نقدية قيّمة أدلى بها كلّ من الجاحظ (ت:٢٥٥هـ)، وابن عبد ربه (ت:٣٢٨هـ)، وابن رشيق القيرواني (ت:٤٦٣هـ).

إن هذا التراث النقدي ما كان قط ركامًا لفظيًا مملاً. إنّه جملة من النظرات الجمالية المهمة، ذات الصلة بجذور التجربة الشعرية، وقد بحث النقاد في الشعر من حيث ظروف نشأته، وأشاروا إلى حدّ (اللفظ والوزن والمعنى والقافية)، ودرسوا قواعده، وتوقفوا عند جمالية اللفظ والمعنى؛ بل نجدهم يستفيضون في الحديث عن مسألة استقلالية البيت، وصلتها بمسألة الوحدة العضوية(٤١).

بيد أن الاتجاه الجمالي في التراث النقدي يبدو واضحًا أكثر في آراء ابن طباطبا وحازم القرطاجني، ولا نرى شططا في أن نعدهما من علماء الجمال، فهما لا يكتفيان بتقرير الأحكام الجمالية وتعميمها، وإنما يصدران عن فكر جمالي متماسك ينتهي بهما أحيانًا إلى البحث في فلسفة الجمال.

إنّ ابن طباطبا لا يفصل جمالية الشعر عن طبيعة الإحساس الجمالي، كما إنه يعلل كنه الإمتاع الجمالي قائلاً: «والعلة في قبول الفهم الناقد للشعر الحسن الذي يرد عليه، ونفيه للقبيح منه... أن كلّ حاسة من حواس البدن إنّما تتقبّل ما يتصل بها، مما طبعت له، إذ كان وروده عليها ورودا لطيفًا باعتدال لا جور فيه، وبموافقة لا مضادة لها، فالعين تألف المرأى الحسن وتقذى بالمرأى القبيح الكريه»(٤٢).

ويبدو لنا أن نظرية الاعتدال هي أساس الفكر الجمالي عند ابن طباطبا، بل إنّه يصرّح بذلك في قوله: «وعلة كلّ حسن مقبول الاعتدال، كما أنّ علة كل قبيح منفّر الاضطراب، والنفس تسكن إلى ما وافق هواها، وتقلق ممّا يخالفه»(٤٣).

وأمّا حازم القرطاجني فيحلّل طبيعة الأدب نفسه، ويفيدنا ببحثه في



من مخطوط عربي

الأسس المكونة لكلّ تعبير فنّي، ذاهبًا إلى أنّها ثلاثة، ليس غير: الواقع الخارجي، والمعنى (الوعي)، واللغة.

ويقول في ذلك: «إن المعاني هي الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان. فكل شيء له وجود خارج الذهن، فإنه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لما أدرك منه. فإذا عبر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك، أقام اللفظ المعبّر به هيئة تلك الصورة الذهنية في أفهام السامعين وأذهانهم. فصار للمعنى وجود آخر من جهة دلالة الألفاظ»(٤٤).

إن هذه النظرة الشاملة الدقيقة هي منطلق حازم القرطاجني في تحليل جمالية الشعر. ولنتأمل قوله في معاني الشعر: «فمعاني الشعر.. ترجع إلى وصف أحوال الأمور المحركة إلى القول، أو إلى وصف أحوال المتحركين لها، أو إلى وصف أحول المحرّكات والمحرّكين معًا، وأحسن القول وأكمله ما اجتمع فيه وصف الحالين»(٤٥).

أرأينا هذا الانتباه الفطن إلى جوهر الإبداع الفني؟ أولا نكون من السذّج، في نظر حازم، إذا تناولنا وصف القفر في الشعر الجاهلي مثلاً، بغض النظر عن مجمل أحوال الشعراء وظروفهم؟ ثمّ أليس هذا الانتباه دليلاً على الوعي العميق لاشتجار الذاتية والموضوعية في كلّ خلق فني؟

لم يكتف ابن طباطبا وحازم القرطاجني بمجرد تقرير وتعميم الأحكام الجمالية، وإنما يصدران عن فكر جمالي متماسك

ولا بأس في أن نتوقف عند أمرين آخرين، لهما أهميتهما في الفكر الجمالي عند حازم، أولهما فعالية الجذر النفسي في النتاج الفني: «فالأمر يبسط النفس، ويؤنسها بالمسرّة والرجاء، ويقبضها بالكآبة والخوف، وقد يبسطها أيضًا بالاستغراب لما يقع فيه من اتفاق بديع، وقد يقبضها ويوحشها بصيرورة الأمر من مبدأ سارّ إلى مآل غير سارّ»(٤٦).

وقد يقال: إن هذا الكلام شبيه بما ذهب إليه أرسطو في حديثه عن المأساة والملهاة، والتحول والتعرف(٤٧). ونحن لا ننفي أن يكون حازم مطلعًا على كتاب أرسطو (فن الشعر)، أو يكون متأثرًا به، فقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية على شكل خلاصة منذ القرن الثالث للهجرة. غير أن حازمًا ليس مجرد ناقل ساذج. إنّه مفكّر يجيد الفهم، ويحسن التأمل، وله منطلقاته النظرية الخاصة به وبالثقافة الإسلامية التي ينتمي إليها.

وأما الأمر الآخر المهم في فكر حازم الجمالي فهو بحثه في جمال القبح، أو لنقل: جماليّة القبح، في نطاق نظريتي المحاكاة والتخييل. فالشيء الحسن وإن كان أحسن ما في معناه، فقد يوجد فيه وصفٌ مستقبح. وكذلك الشيء القبيح، فإنه وإن كان لا أقبح منه، قد يوجد فيه وصف مستحسن.

وبعد لم يكن الغرض من هذه الدراسة التدليل على أهمية الحسّ الجمالي ومكانته في الإسلام فقط، ولو كان الأمر كذلك لاكتفينا بشواهد محدودة من السلوك الإسلامي، ومن الفنون الإسلامية، ولما احتجنا إلى تسويد كلّ هذه الصفحات، وإنّما كان الغرض الأساسي هو الإشارة إلى أهمية علم الجمال ومكانته في الفكر الإسلامي بشكل خاصّ، وفي التراث الإسلامي بوجه عام.

ونعتقد أنّ المنطلقات الجمالية في الثقافة الإسلامية ـ وقد أحطنا بجوانب محدودة منها ـ هي خير معين لنا على تحديد ملامح صرح علمي في الغاية من الأهمية؛ ألا وهو علم الجمال الإسلامي.

الهوامش

١ـ ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مادة (جمل).

٢ـ ابن دريد، جمهرة اللغة، مكتبة المثنَى، بغداد، ص١١٠.

٣ـ ابن قتيبة، أدب الكاتب، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مصر، ١٩٥٨م، ص٨٣.

٤ ـ السكري، ديوان الهذليين، القاهرة، ١٩٤٥م، ٢:١٤١.

٥ ـ ذو الإصبع العدواني، ديوانه، تحقيق عبدالوهاب العدواني، محمد نائف الدليمي، الموصل، ١٩٧٣م، ص٧٢.

٦ـ ديوان الهذليين، ٢:١٤١.

٧ـ ابن منظور، لسان العرب، مادة (جمل).

٨ـ ابن دريد، جمهرة اللغة، ص١١٠.

٩ـ وِل ديورانت، مباهج الفلسفة، ترجمة أحمد فؤاد الأهواني، القاهرة، ١٩٧٥م، ١:٢٨٤.

١٠ـ انظر: إ. نوكس، النظريات الجمالية، ترجمة محمد شفيق شيا، بيروت، ١٩٨٥م، ص٤٦.

١١ـ جورج سانتيانا، الإحساس بالجمال، ترجمة مصطفى بدوي، القاهرة، ص٤٧.

١٢ـ دني هويسمان، علم الجمال، ترجمة ظافر الحسن، بيروت، ١٩٨٣م، ص١٢٩.

١٣ـ م. روزنتال، الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، بيروت، ١٩٨٠م، ص٩٤.

١٤ـ انظر: ول ديورانت، مباهج الفلسفة، ١:٢٨٤.

١٥ـ انظر: علم الجمال البرجوازي، ترجمة فؤاد المرعي، دار الفجر، حلب، ص ١٦، ٢٣، ٦١، ٨٨. وعبدالمنعم الحفني، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، القاهرة، ١٩٧٨م، ١:٢٨٨.

١٦ـ جورج سانتيانا، الإحساس بالجمال، ص٣٢.

١٧ـ هـ. ريدكير، الانعكاس والفعل، ترجمة فؤاد المرعي، دمشق، ١٩٧٧م، ص٧٦.

١٨ـ سيغموند فرويد، عسر الحضارة، ترجمة عادل العوّا، دمشق، ١٩٧٥م، ص٣٩.

١٩ـ شارل لالو، مبادئ علم الجمال، ترجمة مصطفى ماهر، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٩م، ص٣. وتعني الاستطيقا: علم الجمال، وهي مستمدة من اللغة اليونانية.

٢٠ـ أحمد أمين، النقد الأدبي، بيروت، ١٩٦٧م، ص٣٠٧.

٢١ـ المرجع السابق، ص٣٣٥.

٢٢ـ الترمذي، سنن الترمذي، حمص، ١٩٦٥م، ٦:٢١١. والبَطْر: الإنكار. والغَمْط: الاستخفاف.

٢٣ـ ابن سينا، الشفا، باريس، ١٩٨٢م، ١:٢٤٤.

٢٤ـ أبو حامد الغزالي، كتاب الأربعين في أصول الدين، مكتبة الجندي، مصر، ص١٧٠ ـ ١٧١.

٢٥ـ ابن الفارض، ديوانه، بيروت، ١٩٦٢م، ص٦٩.

٢٦ـ ابن قيّم الجوزية، الفوائد، مطبعة العاصمة، القاهرة، ص١٧٥ ـ ١٧٦.

٢٧ـ المرجع السابق، ص١٧٣.

٢٨ـ الشهرستاني، الملل والنحل، بيروت، ١٩٦١م، ١:٤٢.

٢٩ـ المرجع السابق، ١:٤٢.

٣٠ـ الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، دار القاموس الحديث، بيروت، ص٣٨.

٣١ـ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، المكتبة التجارية، مصر، ص١١٤٠.

٣٢ـ الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، ص٣٧.

٣٣ـ ابن سينا، النجاة، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٣٨م، ص٢٤.

٣٤ـ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ص٢٥٧٨.

٣٥ـ أبو حامد الغزالي، قواعد العقائد، القاهرة، ١٩٧٠م، ص١١٥.

٣٦ـ أبو حامد الغزالي، المستصفى، المطبعة الأميرية، مصر، ١٣٢٢هـ، ص٥٨.

٣٧ـ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ص٢٥٧٧.

٣٨ـ المرجع السابق، ص، ٢٥٨٦.

٣٩ـ ابن سلاّم الجمحي، طبقات فحول الشعراء، شرح محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ص٥٤.

٤٠ ـ المرجع السابق، ص٦. وابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٦م، ص٦٤، ٦٦. وابن رشيق، العمدة، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، بيروت، ١٩٧٢م، ١:٨٠، ٢٦٢.

٤١ ـ ابن طباطبا، عيار الشعر، تحقيق طه الحاجري، محمد زغلول سلام، القاهرة، ١٩٥٦م، ص١٤.

٤٢ ـ المرجع السابق، ص١٥.

٤٣ـ حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، تونس، ١٩٦٦م، ص١٨ ـ ١٩.

٤٤ ـ المرجع السابق، ص ١٣.

٤٥ ـ المرجع السابق، ص١١.

٤٦ ـ أرسطو، فن الشعر، ترجمة عبدالرحمن بدوي، القاهرة، ١٩٥٣م، ص٣٠، ٣١.

٤٧ ـ حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص٧٣.

علامات الترقيم فكراً لا تقليداً

(توطئة، والفاصلة)

أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري

لم تكن علامات الترقيم موجودة في تراثنا، ولم يستعملها علماؤنا في الطبعات القديمة كطبعات: بولاق، والجوائب، والهند، وطبعات الحجر.. ومن أجَلِّ المصنفات عن علم الإملاء ومكملاته لأبناء ذلك العصر وأوعبها كتاب «المطالع النصرية» لنصر الهوريني، ولم يذكر علامات الترقيم.. وإنما أخذها مثقفو النهضة العربية الحديثة من الإفرنج، وأصَّلوها في كتب الرسم الإملائي الكثيرة جداً.. كما تناولها المؤلفون في أصول تحقيق المخطوطات وأدبياته.

ولتعلم عظم أهمية هذه العلامات في إيضاح الكلام وتمييزه: انظر إلى مثل «تاج العروس» طبعة بولاق، و«حواشي تفسير البيضاوي» طبعات تركيا، و«حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي» - وهي نفيسة جداً، ثرية بنفائس العلم، إلا أنها لم تخدم بفهارس -.. فكل هذه الكتب يصعب فهمها من أول قراءة؛ لعوامل من ضمنها الدمج، والاتصال، والخلو من علامات تُميِّز الكلام، وتساعد على إيضاحه.

وأعظم من ذلك جمهرة مخطوطات الأسلاف، وما في كتب الأسلاف قبل الطباعة من رموز النساخ كعلامة الإهمال، وعلامة الشك، وعلامة المقابل..إلخ: إنما هو علامات لأمور عرضية، وليس علامات ملازمة للنص دائماً.

والرمز للمختصرات إنما هو أمور جزئية في النص(١).

.. ثم لما أخذنا علامات الترقيم من الإفرنج واجهتنا ثلاث مساوئ:

الأولى: استخدامها كيفما اتفق دون وعي تأصيلي؛ فتجد بعضهم يضع الفاصلة بين المبتدأ والخبر، والفعل والفاعل، والصفة والموصوف.

والثانية: استخدامها بإسراف حتى كثر الفراغ في السطور؛ بسبب الانتقال إلى أول السطر بعد نهاية كل جملة أو جمل دون تمييز لما يقتضي الابتداء من أول السطر.

والثالثة: استخدامها بدقة وأمانة كما تلقيناها من الإفرنج تقليداً دون أن نصحب ذلك باجتهاد وإضافة يفيان بمتطلبات التمييز والإيضاح في لغتنا.

ومن أسباب سوء استعمال علامات الترقيم - إضافة إلى فساد التقليد - أن القواعد غير واضحة، بل في بعضها قيود لا أثر لها في التقعيد.

ولم تعتن المطابع القديمة بعلامات الترقيم إلاَّ في وقت متأخر عندما بدأ العرب يستعملونها، وأول من قدم هذه العلامات للعرب - مأخوذاً تأصيلها من الإفرنج - أحمد زكي حيث نشر كتابه «الترقيم في اللغة العربية» سنة ١٣٥٣هـ، ثم أعاد تحقيقه ونشره شيخنا عبدالفتاح أبو غدة - رحمه الله - سنة ١٤٠٧هـ، وجاء بعده «برجستراسر» المستشرق الألماني؛ فضمن كتابه «أصول نقد النصوص ونشر الكتب» بحثاً عن علامات الترقيم، وطبع كتابه بالعربية سنة ١٩٣١م، ثم أعادت نشره دار المريخ سنة ١٤٠٢هـ بإعداد الدكتور محمد حمدي البكري وتقديمه.

وهذا المصدران هما مرجع المؤلفين بعدهما في الرسم الإملائي، وأصول تحقيق المخطوطات.

قال أبو عبدالرحمن: وكنت منذ عدة سنوات أحمل هَمَّ التأصيل لهذه العلامات، وأقوم بأعبائها تطبيقاً.

وما قلته من اجتهاد في علامات الترقيم يلزم مثله في الرسم الإملائي. ولكنني ها هنا أبادر

بجهد المقل في نظرتي التأصيلية لعلامات الترقيم.

والأصل الذي أنطلق منه - وهو أصل عام - قبل تناول كل علامة على حدتها: أن يُشترط في وضعها ألاّ تحدث لبسًا؛ لأنها وضعت للإفهام والتمييز، ومن مهمتها إزالة اللبس.. إذن لا يجوز وضع علامات تحدث لبسًا، بل لابد من اجتهاد يتخطى ما وقف عنده الأوربيون.. خذ نموذج ذلك: إذا توالى في ثلاثة أسطر ثلاث جمل معترضة فإنها تقتضي ست شرطات؛ لأن كل جملة واقعة بين شرطتين؛ فيحدث لبس عند القارئ في تمييز الكلام المتصل من الجمل المعترضة؛ فلا يفرق بين ما هو خارج الشرطتين وما هو داخلهما.. وها هنا يكون الاجتهاد بطريقين يجتمعان معًا، أو يُكتفى بأحدهما:

علامات الترقيم توجه نظر القارئ إلى مقصود الكاتب توجيهًا يزيل ما قد يرد عليه من احتمال

الاجتهاد الأول: إلغاء الشرطتين في جملة معترضة كثر دورانها، ولم يصبح القارئ بحاجة إلى تنبيه على أنها معترضة.. مثل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وكلمة (سبحانه، وتعالى)، وكلمة (رضي الله عنه).. وهذا يعني أن استخدامنا لعلامات الترقيم وقت الحاجة؛ فليست العلامات زينة وحلية جمالية في الرسم، وما كان منها كذلك فليس الجمال مقصودًا لذاته، بل القصد التيسير، والإيضاح، وأمن اللبس.. وعلامات الترقيم ليست زيادة عبء على الرسم المبني على التسهيل والتيسير، وإنما هي ضرورة للإيضاح؛ فلنأخذ منها بقدر الضرورة.

والاجتهاد الثاني: أن نُحمِّل القوسين مدلولاً آخر؛ فيكونا للجملة المعترضة بين جملتين معترضتين في كلام متقارب، ويأتي لذلك نماذج - إن شاء الله - في الكلام على الشرطتين.

على أن للمستشرق برجستراسر رأيًا آخر في إهمال علامات الترقيم في كتب العرب والمسلمين - مع أنه عني بذلك، ودعا إليه في الكتب الحديثة -.. قال: «فلا شك أننا عند طبع الكتاب نحافظ على كل هذا [يعني علامات الترقيم]، ونكمل الناقص في المواضع الموازية.. وأما غير هذا فيختلف فيه العلماء، وأكثرهم (حتى في الشرق) يذهب إلى إدخال النقط وغيرها في الكتب القديمة، ولا أرى في ذلك فائدة إلا في الأحوال النادرة؛ ذلك أن الناس تعوّدوا قراءة الكتب الشرقية من دون ترقيم، ولا يجدون مشقة إلا في بعض المواضع الصعبة، وفي زيادة الترقيم خطر الخطأ؛ إذ رأيت في بعض الكتب العربية التي نشرت أخيرًا بعض الجمل قطعت قسمين بنقطة دالة على الجملة؛ لأن الناشر لم يفهم تركيب الجملة، فظنها تامة قبل تمامها»(٢).

قال أبو عبدالرحمن: اللغة العربية أحوج اللغات إلى علامات الترقيم؛ لأنها أكثر رموزًا، وأوسع مدلولاً.

والتصرف في المخطوط الأصل بوضع العلامات لا يجوز؛ لأنه تغيير للتراث عن واقعه.. أما عند نسخه وطبعه فمن الضروري وضع العلامات حسب الضرورة.

وقراءة المخطوطات - وهي مغفلة من العلامات - ليست عادة سهلة عند الشرقيين، وإنما هي حرفة الخاصة.

وأما سوء استعمال العلامات فلا يعني تسويغ إهمالها، وإنما يعني ضرورة استعمالها وفق تأصيل صحيح.

وفضائل علامات الترقيم عند الضرورة في التالي:

- توجيه نظر القارئ إلى مقصود الكاتب توجيهًا يزيل ما قد يرد عليه من احتمال؛ فيعلم مثلاً بالعلامة أن الكلام معطوف، أو مستأنف...إلخ.. يعلم ذلك من مدلولها الرمزي الاصطلاحي.

- منها ما يقتضي توقف القارئ عند كلام مستقل قد يكون سطورًا عديدة؛ ليأخذ راحته، وليتأمله، ويتأكد من فهمه - لا سيما في الأساليب الفلسفية الغامضة -..ثم يقف عند كلام تام بعده؛ للأغراض السابقة نفسها؛ وليربط بين الكلامين.

- المساعدة على قراءة القارئ قراءة تصويرية فيها أنواع الانفعالات من تعجب واستفهام...إلخ.

قال أبو عبدالرحمن: على أنني سأذكر كل علامة معرفًا بها، وممثلاً لها كما هي في كتب التقعيد الحالية، ثم أشفع ذلك باجتهادي وتأصيلي مبينًا الضرورة فيه.

الفاصلة

فمن هذه العلامات الواو المقلوبة، أو الشولة، أو الفارزة، أو الفاصلة، أو الفصلة، أو عقفة العقرب، وصورتها هكذا«،».. قالوا في قاعدتها: إنها لفصل بعض أجزاء الكلام عن بعض، وقالوا في فلسفتها: ليقف القارئ عندها وقفة خفيفة!.

وأما مواضع استعمالها فقد استقرأها الأستاذ عبدالعليم إبراهيم، في أربعة مواضع، فقال: «أ- توضع بين الجمل التي يتكون من مجموعها كلام تام في معنى معين،(٣) مثل:(٤) إمداد الريف بالنور الكهربي يحقق فوائد كثيرة:(٥) فهو يساعد على حفظ الأمن، ويرفع مستوى المعيشة في القرى، ويشجع على إنشاء المصانع الريفية، ويحدّ من هجرة الريفيين إلى المدن.

ب - وتوضع بين أنواع الشيء، مثل: أنواع المادة ثلاثة: أجسام صلبة، وأجسام سائلة، وأجسام غازية،(٦) ومثل: التقديرات الجامعية هي: ممتاز، وجيد جدًا، وجيد، ومقبول، وضعيف، وضعيف جدًا.

جـ - وبين الكلمات المفردة المرتبطة بكلمات أخرى،(٧) تجعلها شبيهة بالجمل في طولها مثل:(٨).

كل فرد في الأمة مجند لمعركة المصير: الفلاح في حقله، والعامل في مصنعه، والطالب في معهده، والموظف في ديوانه.

د - وبعد لفظ المنادي: يا علي، حلّ موعد سفرك(٩).

وقال الدكتور موفق بن عبدالله بن عبدالقادر: «توضع بين الجمل، أو أجزائها المتصلة المعنى».. ثم أضاف وضعها بعد حرف الجواب مثل: نعم، أنا مجتهد»(١٠)

وقال الدكتور موريس أبو السعد:

(١١) الجمل المتصلة المعنى.

التواريخ.

- الجمل المستقلة الطويلة، أو المرتبطة معًا بحرف عطف مثل حرف الواو.
- الجمل المعطوفة على بعضها.
- الحروف والأرقام المتسلسلة ١، ٢، ٣، /أ، ب، جـ...

ويمكن إحلالها بالفاصلة المنقوطة.

ولا تستخدم للفصل بين:

- الفعل والفاعل.

(١٢) الفعل والمفعول به.

- الصفة والموصوف.
- الجار والمجرور.
- المضاف والمضاف إليه»(١٣).

وأضاف أكرم جميل قنبس التالي:

« - (١٤) بين فعل شرط وجوابه، مثل: إذا درست بجدٍ، نجحت بتفوقٍ.

- قبل ألفاظ البدل، (١٥) عندما يُرادُ لفتُ النّظر إليها، مثل: إنّ هذا العصر، عصر الميكانيكا، سهلت فيه المواصلات.
- بين القَسَم وجوابه، مثل: والله، لأفعلنّ الخير دائمًا.

توضع الفاصلة قبل الجملتين: الحاليّة والوصفية، مثل:

- رجعت إلى الصواب، وأنا مسرور———— (١٦) جملة حالية.

هذا كاتبٌ، قَلَمهُ بديعٌ. ———— جملة وصفية»(١٧).

وأضاف الأستاذ ناصيف يمين التالي:

« - بين المعطوف والمعطوف عليه، نحو: «الحواس الخمس هي: السمع، والبصر، والشمّ، والذوق، واللمس».

- بين الجمل القصيرة التامّة المعنى، (١٨) وإن استقلّت كلّ جملة بغرض، نحو: «الصدق فضيلة، والكذب رذيلة».
- بين الشرط وجوابه، وخاصة(١٩) إذا طالت جملة الشرط، نحو: «إذا لم تحترم من هم أكبر منك، فقد تقلّ مروءتك».
- قبل الكلمات التي يمكن حذفها دون أن يتغيّر معنى الجملة، وكذلك بعدها، نحو: «الإنسان الشريف، هبة الله، يعتبر كنزًا ثمينًا».
- بين جملتين مرتبطتين بالمعنى والإعراب، نحو: «خير الكلام ما قلّ ودلّ، ولم يَطُل فَيُمَلّ»
- بين الأجزاء المتشابهة في الجملة، كالأسماء والأفعال والصفات...(٢٠) التي لا يوجد بينها أحرف عطف، نحو: «المعلم النشيط يقرأ، يشرح، يقارن، يعلق، ويعلّل».
- بين الكلمات المفردة المرتبطة بكلمات أخرى، والشبيهة بالجملة، نحو: «ما ندم من استشار، ولا خاب من استخار(٢١).

وأضاف الدكتور الصادق عبدالرحمن الغرياني التالي: «بين الجمل القصيرة التي تتحدث عن شيء واحد، مثل: أبو بكر الصديق (رضي الله عنه)، أقام العدل، وجمع القرآن، وحارب المرتدّين، وقاتل ما نعي الزكاة.

- بين الجمل التامة، وشبه الجمل، مثل: لا تبال بما لقيت في إظهار الحق، وإقامة العدل، ونصرة المظلوم.

بين البدل والمبدل منه، نحو: أكرم والديك، أباك وأمّك(٢٢).



أحمد حسن الزيات

وقال الدكتور يحيى الجبوري: «الفاصلة، أو الفَصلة(،) (٢٣):(٢٤)

وتوضع في المواضع الآتية:

- توضع بين الجمل التي تتصل بفكرة جزئية واحدة.
- بعد لفظ المنادي: يا أبا زيد، اجلس مكانك.
- بين الجملتين المرتبطتين في المعنى والإعراب، مثل:

خير الكلام ما قلّ ودلّ، ولم يَطُلْ فَيُمَلّ.

- بين أقسام الشيء الواحد، مثل:

الشعراء عند القدماء: جاهلي، ومخضرم، وإسلامي، ومولد.

- توضع في مواضع السكتة المؤقتة، وخاصة في الشعر، مثل: يا رفيقي، نحن من نور إلى نور مضينا.
- بين الشرط والجزاء، وبين القسم والجواب، إذا طالت جملة الشرط أو القسم، مثل: إذا كنت في مصر ولم تكن ساكنًا على نيلها الجاري، فما أنت في مصر. ومثل: لئن أنكر الحر من غيره ما لا ينكره من نفسه، فهو أحمق.
- وبين المفردات المعطوفة إذا تعلق بها ما يطيل المسافة بينها فيجعلها شبيهة بالجملة في طولها، مثل:

محمد رجل فاضل، لا يخذل صديقًا، ولا ينكث عهدًا، ويبر أهله وإخوته.

- ويجوز وضع الفاصلة بعد الحرف لمنع اللبس، مثل:

سألته إن كان يريد مساعدة، فقال: لا، أكرمك الله»(٢٥).

وأضاف الأستاذ الأستاذ حليم سلوم وضعها بين المفردات إذا زيد الحشو بينها، وقسمها إلى فاصلة وقاطعة، وجعل القاطعة: بين جملتين مرتبطتين في المعنى دون الإعراب، أو كما بعدها سبب فيها(٢٦).

قال أبو عبدالرحمن: ولنعد إلى المواضع التي ذكروها موضعًا موضعًا؛ لنمحصها، ونحققها على هذا النحو:

- أن تكون بين جمل يتكون من مجموعها كلام تام مثل: إمداد الريف بالنور الكهربائي يحقق فوائد كثيرة: فهو يساعد على حفظ الأمن، ويرفع مستوى المعيشة..إلخ.

قال أبو عبدالرحمن: الصواب ها هنا علامة التفريع والتعليل، وهي الفاصلة المنقوط أسفلها بعد كلمة «كثيرة»، ثم توضع الفاصلة بين بقية الجمل هكذا: «إمداد الريف بالنور الكهربائي يحقق فوائد كثيرة؛ فهو يساعد على حفظ الأمن، ويرفع مستوى المعيشة.. إلخ».

والسبب في ذلك أنه استأنف ذكر الفوائد الكثيرة على سبيل التفريع؛ فعلم أن تفريعه تعداد للفوائد الكثيرة.

وتتعين النقطتان الرأسيتان بدل الفاصلة المنقوطة إذا لم توجد دلالة فاء التفريع، مثل: «من فوائد الكهرباء: المساعدة على حفظ الأمن، ورفع مستوى.. إلخ».

وحقيقة وضع الفاصلة ها هنا أنها لفصل جملة تامة عن جملة تامة من جهة، وأنها لمعرفة عطف جملة على جملة من جمل يشتركن في

جامع واحد هو «تفريع الفوائد الكثيرة».

- أن تكون بين كل نوع ونوع، وقسم وقسم.. من أنواع الشيء، وأقسامه.. سواء أكان مفردًا، أم جملة؛ فالمفرد مثل: التقديرات الجامعية هي - أو من دون «هي» -: ممتاز، وجيد جدًا، ومقبول، وضعيف، وضعيف جدًا.. والجملة كمثل: أنواع المادة ثلاثة: أجسام صلبة، وأجسام سائلة، وأجسام غازية.. ومثل: إمداد الريف بالكهرباء يحقق هذه الفوائد: المساعدة على حفظ الأمن، ورفع مستوى المعيشة.. إلخ.

وحقيقة وضع الفاصلة ها هنا: أنها لفصل جملة تامة عن جملة تامة، ومفردة عن مفردة.. هذا من جهة، وأنها لمعرفة عطف جمل، ومفردات.. يشتركن في جامع واحد هو الشيء

قيود الجملة كأجزائها شيء واحد لا يحتاج إلى فواصل

الذي يتفرع إلى أقسام أو أنواع مثل التقديرات الجامعية، والمادة، والفوائد.

- بين الكلمات المفردة المرتبطة بكلمات أخرى تجعلها شبيهة بالجمل في طولها مثل: كل فرد في الأمة مجند لمعركة المصير: الفلاح في حقله، والعامل في مصنعه، والطالب في معهده، والموظف في ديوانه.

قال أبو عبدالرحمن: الذي جعل المفردة شبيهة بالجملة في الطول ما تعلق بها من تقييد، وهو في حقله، وفي مصنعه، وفي ديوانه.. ولا أثر لشبهية الجملة ها هنا، ولم يستجد لدينا شيء خلاف القاعدة السابقة؛ فالفاصلة ها هنا موضوعة بين أجزاء من الكلية «كل فرد».. وحكم الأجزاء هو نفسه حكم الأقسام والأنواع.. وأنت تضعها سواء أتيت بالقيود كما مضى، أم لم تأت بها؟؛(٢٧) فتقول: كل فرد مجند: الفلاح، والعامل، والطالب، والموظف.

- بعد لفظ المنادى مثل: يا علي، حل موعد سفرك.

قال أبو عبدالرحمن: وجه هذا أنها فصل بين قولين، وعطفٌ لأجزاء قول صدر من شخص إلى شخص؛ فالشخص الأول قال للثاني: يا علي.. وقال له أيضًا: حلَّ موعد سفرك.. فهذا مندرج في القاعدة السابقة.

قال أبو عبدالرحمن: والأرجح من ذلك وضع نقطتين إحداهما فوق الأخرى؛ لأنها على تقدير لفظ قول آخر.. والتقدير: قال زيد: يا علي.. فانتبه علي، أو قال: نعم.. فقال له زيد: حلَّ موعد سفرك.

والسر في هذا أن النداء (يا علي) ليس هو القول المقصود بالسياق، وإنما هو قول ينبه ليسمع ويصغي، ثم يعقبه القول المقصود.. يقول الطالب مثلاً - واسمه علي -: قال لي الأستاذ: انتبه لدروسك، ولا تضيع وقتك، ولا تنشغل بالفضول واللهو، ولا يذكر «قال لي الأستاذ: يا علي»، وعلى فرض أنه قال ذلك فهو على تقدير القول الثاني بعد انتباه علي، أو قوله: نعم.. ولهذا لا يُعَدُّ قوله: «يا علي» من أقوال الأستاذ التي يهتم بها؛ لأنها ليست جزءًا من توجيهه، بل هي كما ذكرت للتنبيه، ويليها بعد ذلك القول المقصود مقدرًا بكلمة «قال».

قال أبو عبدالرحمن: ولنفترض أن زيدًا قال: العقرب العقرب يا علي.. أو: يا علي العقرب العقرب.. كيف نضع العلامة؟.

والجواب أنه في الأولى يُكتفى بالعلامة بعد قال هكذا: «العقرب العقرب يا علي».. ولا توضع قبل «يا علي»؛ لأن «يا علي» قيد للقول.. أي أنت المعني بالقول، وسيأتي الكلام عن إلغاء العلامات بين الشيء وقيده.

وفي الثانية تقول: يا علي: العقرب العقرب.. فتضع العلامة قبل «يا علي» وبعدها حسب القاعدة المذكورة آنفًا.

- أن توضع بين الجمل.

قال أبو عبدالرحمن: هذا يشمل ما مضى في النقطة الأولى من جمل يتكون من مجموعها كلام تام، ويشمل جملاً لا يجمعها جامعُ قسمة كقولك: «الجو شديد الحرارة، والمشاغل كثيرة، والوقت قصير، والمسافات متباعدة، والإنسان من طبيعته الكسل، ولابد من استراق الوقت؛ لقضاء بعض الحاجات».. فهذه الجمل لا جامع بينها في ذاتها، وإنما يجمع بينها شيء خارجي، وهو المناسبة التي جعلتك تحشد هذه الجمل كأن تكون المناسبة إبداء العذر في تأخرك يومًا ما عن مكتب بعيد عن منزلك تعمل فيه.

- أن توضع بين أجزاء الجملة المتصلة المعنى.

قال أبو عبدالرحمن: لا توصف الجملة بكلمة جملة إلا أذا كانت تامة المعنى.. واتصال معنى الجملة يُعقل عندما لا يكون بين المحمول والمحمول عليه فاصل مثل: زيد رجل كريم.. وإذن فوضع الفاصلة بين هذه الأجزاء عبث.. وإنما الكلام الرشيد أن يقال توضع بين قيود الجملة مثل: «قرأت الكتاب من أوله إلى آخره في المسجد بعد صلاة العشاء في ليلة شاتية».. فكل ما بعد كلمة «الكتاب» قيود.. ولو جاز وضع الفاصلة بين القيود لوجب وضع النقطتين الرأسيتين بعد الكتاب، ثم وضع الفاصلة بين كل قيد وقيد على هذا النحو: قرأت الكتاب: من أوله إلى آخره، في المسجد، بعد..إلخ.

قال أبو عبدالرحمن: ولكن الصواب إلغاء العلامة بين الشيء وقيوده، وبين القيود ذاتها ما لم تكن متعاطفة مثل: قرأت الكتاب من أوله إلى آخره بعد الظهر، وبعد العصر، وبعد صلاة العشاء في ليلة شاتية.. في المسجد.. وها هنا تضع علامة القطع والاستئناف - وهي النقطتان الأفقيتان - بين «شاتية» و«في المسجد»؛ ليعلم أن «شاتية» صفة لليلة، وأن «في المسجد» عام لكل الأوقات المذكورة.

وإنما تورد الجملة وقيودها - إذا كانت غير متعاطفة - بلا علامات؛ لسببين:

أولهما: أن قيود الجملة كأجزائها شيء واحد لا يحتاج إلى فواصل؛ فلا لبس يحوج إلى ذلك.

وثانيهما: أن القيود ليست أنواعًا للمقيَّد، ولا أقسامًا؛ فتفرع بالنقطتين الرأسيتين، ثم توضع الفواصل بين القيود.. بل تدفق الجملة بقيودها بلا علامات أكبر إيضاح بأنك خلال جملة واحدة.

- أن توضع بين التواريخ.. ولم يذكر الدكتور موريس نموذجًا.

والجواب أنه لا خصوصية للتواريخ بكونها تواريخَ.. بل إذا كانت التواريخ في سياق القاعدة وضعت الفواصل.. مثل «توالت الأمطار بحمد الله على البلاد عام ١٤١٥، و١٤١٦هـ،

و١٤١٧هـ»؛ فها هنا وضعت الفاصلة بين قيود متعاطفة.

ـ الجملة المستقلة الطويلة، أو المرتبطة بحرف عطف مثل حرف الواو.. ولم يذكر الدكتور موريس أمثلة.

قال أبو عبدالرحمن: لا معنى للتقييد بالطويلة؛ فالفاصلة توضع وإن لم تكن الجمل طويلة.. ووضعها حسب القاعدة المذكورة آنفاً من كون الجمل يجمعها أمر ذاتي، أو يجمعها قصد خارجي من إرادة الكاتب.. وتوضع سواء أكان بين الجمل حرف عطف، أم لم يكن بينها حرف عطف(٢٨).. مثال الأخير: زيد كريم بماله، سمح بجاهه، رفيق في معاملته، فكه المعشر، نظيف المخبر.

قال أبو عبدالرحمن: هذه الفاصلة تشعر بالفصل بين الجمل الوصفية قراءة، وتنسق بعضها على بعض معنى.. ولم نضع نقطتين رأسيتين بعد زيد؛ لأن الجمل أوصاف وأحوال، وليست أنواعاً أو أقساماً يتجزأ إليها زيد.. ولكن لو قلت: صفات زيد: أنه كريم بماله، سمح... إلخ لجاز وضع النقطتين بعد زيد؛ لأن ما ذكر أنواع للصفات التي تجتمع في زيد.

ـ الجمل المعطوفة على بعضها.

قال أبو عبدالرحمن: هذا تكرار من الدكتور موريس لما سبق.

ـ الحروف والأرقام المسلسلة مثل: ١، ٢، ٣.. ومثل: أ، ب، جـ.

قال أبو عبدالرحمن: الأصل ذكر واو العطف إلا لنكتة تُسوِّغ طرحها؛ فتقول حينئذ: ١، ٢، ٣.. إلخ.. وتوضع الفاصلة قبل واو العطف حسب الضرورة.

وقول الدكتور: «ويمكن إحلالها بالفاصلة المنقوطة» تسويغ غير وجيه؛ لأن للفاصلة المنقوطة دلالتها الخاصة.

ـ بين فعل الشرط وجوابه مثل: إذا درست بجد، نجحت بتفوق.

قال أبو عبدالرحمن: الفاصلة بين الشرط وجوابه لا معنى لها؛ لأنها فصل بين جزئي جملة لم تتم كالفصل بين المبتدأ والخبر؛ فلا يجوز ذلك، وإنما تورد جملة الشرط كاملة بلا علامة.. فإن طال الفاصل بين الشرط وجوابه طولاً يحدث لبساً أو نسياناً وضعت النقطتين الرأسيتين قبل جواب الشرط.. وقل مثل ذلك عن الخبر والمبتدأ، والقسم وجوابه، وحرف الجواب والجواب كما سيأتي بيان ذلك في موضعه.

١٢ـ قبل ألفاظ البدل عندما يراد لفت النظر إليه مثل: إن هذا العصر، عصر الميكانيكا، سهلت فيه المواصلات.

قال أبو عبدالرحمن: الفاصلتان ها هنا فضول، وفي غير محلها؛ بل يوضع البدل بين قوسين، ولا توضع الفاصلة قبل الخبر؛ فيكون الرسم هكذا: إن هذا العصر (عصر الميكانيكا) سهلت فيه المواصلات.. فإن جعلت الجملتين خبريتين كان الرسم هكذا: «إن هذا العصر عصر الميكانيكا.. سهلت فيه المواصلات»؛ فتشعر علامة القطع والاستئناف أن الجملة خبر آخر، أو خبر لمبتدأ مقدر.

ـ أن توضع قبل الجملة الحالية مثل: رجعت إلى الصواب، وأنا مسرور.

إحدى المخطوطات التي لا يوجد بها علامات الترقيم

قال أبو عبدالرحمن: وضع الفاصلة ها هنا وضع أرعن؛ لأنها تشعر بالخبر عن الرجوع إلى الصواب وحده، والخبر عن السرور وحده!!.. والواقع خلاف ذلك؛ إذ الكلام خبر عن الرجوع حال السرور، فالصواب أن الجملة الحالية قيد غير معطوف، وقد أسلفت أن القيود لا يوضع بينها فاصلة إلا إن كانت متعاطفة.

ـ قبل الجملة الوصفية مثل: هذا كاتب، قلمه بديع.

قال أبو عبدالرحمن: الوصف من تتمة الخبر، بل هو المقصود؛ فلا علامة بين الموصوف والصفة، أو بين الصفة والموصوف المتعلق بالمخبر عنه.. وإنما الفاصلة بين الصفات إذا تعددت.. ولكن إذا تعددت الصفات للموصوف، ثم جاءت صفة لشيء يتعلق به: فإنك تضع علامة القطع والاستئناف مثل: زيد كاتب، كريم الأصل، عفيف اللسان.. قلمه بديع، وسيفه صقيل.

ـ أن تكون بين المعطوف والمعطوف عليه نحو: الحواس الخمس هي: السمع، والبصر.. إلخ.

قال أبو عبدالرحمن: لا خصوصية للعطف، بل هذا داخل في القاعدة السابقة عن وضع الفاصلة بين الأقسام والأنواع.

ـ أن توضع بين الجمل القصيرة التامة المعنى وإن استقلت كل جملة بغرض نحو: الصدق فضيلة، والكذب رذيلة.

قال أبو عبدالرحمن: لا خصوصية للقصر، بل توضع بين جملتين طويلتين مثل: الصدق فضيلة في كل حال، والكذب رذيلة إلا في أمور مستثناة شرعاً.. والفاصلة ها هنا تعني ما سبق من تمييز، وعطف جمل على جمل يجمعها جامع.. والجامع ها هنا إرادة الكاتب الخبر بخبرين.

ـ بين الشرط وجوابه وخاصة إذا طالت جملة الشرط نحو: إذا لم تحترم من هم أكبر منك، فقد تقلّ مروءتك.

قال أبو عبدالرحمن: أسلفت بطلان وضع الفاصلة ها هنا، وإنما توضع النقطتان الرأسيتان.. وليس المعيار طول الجملة، بل المقياس مع الطول خوف نسيان الجواب أو حصول اللبس مثل: إذا لم تصلح نيتك، وتحافظ على صلواتك، وتمنع الأذى عن إخوانك، وتتورع في كسب المال؛ فتأكل من عرق جبينك، وتتحرج من أكل المال بالباطل ـ مثل الربا، والرشوة، والقمار ـ.. بل تبالغ في التورع إلى حد الوسوسة: فلا تأمن العقوبة من الله تعالى، وفساد دنياك عليك مع فساد دينك.

ـ قبل الكلمات التي يمكن حذفها دون أن يتغير معنى الجملة، وكذلك بعدها نحو: الإنسان الشريف، هبة الله، يعتبر كنزاً ثميناً.

قال أبو عبدالرحمن: لا أثر لقيد إمكان الحذف، بل الصواب ألاّ توضع قبل «هبة»؛ لأن الجملتين مبتدأ وخبر، وتوضع قبل «يعتبر»؛ لأن عطف خبر على خبر.. فإن كانت هبة الله بدلاً وضعتها بين قوسين ولم تضع علامة غيرها.

ـ أن توضع بين جملتين مرتبطتين بالمعنى والإعراب نحو: خير الكلام ما قلّ ودلّ، ولم يطلْ فيملّ.

قال أبو عبدالرحمن: الارتباط في الإعراب غير شرط، والارتباط في المعنى ضروري.. وهو التقاء الجملتين في جامع.. والجامع ها هنا الخبر عن خير الكلام بأنه يجمع صفتين؛ فذلك عطف خبر على خبر.

ـ أن توضع بين الأجزاء المتشابهة في الجملة كالأسماء والأفعال والصفات التي لا يوجد بينها أحرف عطف نحو: «المعلم النشيط يقرأ، يشرح، يقارن، يعلق، ويعلل».

قال أبو عبدالرحمن: لا معنى لقيد «المتشابهة»، ووضع الفاصلة يميِّز أفعال المعلم، ويعطف بينها في المعنى.. ولابد أن نبحث النكتة البلاغية في ترك حرف العطف؛ فإن لم نجد نكتة فلابد من حرف العطف، وإن وجدناه فالأفضل وضع علامة القطع والاستئناف هكذا: «يقرأ.. يشرح، والمعلم النشيط يقارن».

ـ أن توضع بين الكلمات المفردة المرتبطة بكلمات أخرى، والشبيهة بالجمل نحو: ما ندم من استشار، ولا خاب من استخار.

قال أبو عبدالرحمن: ليس ها هنا مفردات، ولا شبه جملة، وإنما ذلك عطف جملة على جملة.

ـ النص الأول من كلام الدكتور الغرياني فيه فضول بذكر القوسين؛ لأن الترضي دعاء، ولا يلتبس عند أحد أنه ليس خبراً.. ووضع الفاصلة قبل «أقام» فصل بين المبتدأ والخبر، وهما لا يفصل بينهما.. والفاصلة فيما بعد ذلك عطف صفة على صفة وفق ما سلف من تقرير القاعدة.. ولا خصوصية لوصف الجمل بالقصر في هذا الحكم.

ـ أن توضع بين الجمل التامة وشبه الجمل مثل: لا تبال بما لقيت في إظهار الحق، وإقامة العدل..إلخ.

قال أبو عبدالرحمن: لا خصوصية في شبه الجملة، بل ذلك عطف صفة على صفة.

ـ أن توضع بين البدل والمبدل منه نحو: أكرم والديك، أباك، وأمك.

قال أبو عبدالرحمن: أسلفت حكم البدل، والموجود ها هنا بدل جزء من كل؛ فلك أن تضع البدل بين قوسين، وتضع بين جزئي البدل الفاصلة هكذا: «أكرم والديك (أباك، وأمك)».. ولك أن تضع بدل القوسين نقطتين رأسيتين هكذا: «أكرم والديك: أباك، وأمك».

ـ توضع بين الجمل التي تتصل بفكرة جزئية واحدة.

قال أبو عبدالرحمن: وذلك وفق القاعدة التي سبقت.

ـ في مواضع السكت الخفيفة وخاصة في الشعر مثل:

يا رفيقي، نحن من نور إلى نور مضينا.

قال أبو عبدالرحمن: لا علاقة للفاصلة ألبتة بمواضع السكت.. ويجوز ها هنا وضع النقطتين الرأسيتين بعد رفيقي بدل الفاصلة؛ لأن ما بعدها سياق القول المقصود بعد التنبيه بالنداء كما مر بيانه.

ـ أن توضع بين المفردات المعطوفة إذا تعلق بها ما يطيل المسافة بينها؛ فيجعلها شبيهة بالجملة في طولها مثل: «محمد رجل فاضل، لا يخذل صديقاً، ولا ينكث عهداً، ويبر أهله وإخوانه».

يلاحظ وجود علامات الترقيم في هذه المخطوطة

قال أبو عبدالرحمن: هي بين المفردات، وإن لم تطل حسب ما مضى من قاعدة، وكل ذلك حال الضرورة، والصواب ها هنا وضع نقطتين رأسيتين بعد «فاضل»؛ لأن ما بعدها تعداد لأنواع فضله.. ولبيان حال الضرورة أذكر نماذج: «الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم أربعة ـ أو الخلفاء الراشدون هم، أو الخلفاء: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي».

قال أبو عبدالرحمن: لك أن تضع الفاصلة بين الأعلام زيادة تمييز بينهم في نظر العين.. ولك ألاّ تضعها؛ لأنهم محفوظون، واللبس مأمون.

وتقول: «ذهب إلى هذا الحكم أبو بكر، وعمر، وعلي، وعثمان، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عمرو، ومعاذ، وزيد، وأبو هريرة، وابن عباس، وعدد كثير من الصحابة رضي الله عنهم لا يعرف لهم مخالف منهم.. وذهب إليه الأئمة الأربعة (أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد)، وجمهور الظاهرية غير فلان وفلان، وجمهور الفقهاء.. وهم الليث بن سعد، وسفيان ابن عيينة، وسفيان الثوري، والأوزاعي، وأبو ثور، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وأبو عبيد القاسم، ومحمد بن نصر، وعمر بن عبدالعزيز، وأبو جعفر الطبري».

قال أبو عبدالرحمن: المنهج في هذا ترجيح وضع الفاصلة بين العدد الكثير من الأعلام؛ ليتميزوا، ويبرز للناظر من يريد معرفة اسمه منهم.. وأن يفصل أسماء الأئمة الأربعة بين قوسين؛ لأنهم بدل، ولا يضع الفاصلة بينهم؛ لأنهم عدد قليل معروف.. وأن يضع علامة القطع والاستئناف بين الصحابة ومن بعدهم؛ ليعلم أن العطف نسق لمن بعد الصحابة.. ويضع العلامة نفسها بعد جمهور الفقهاء؛ ليعلم أن العطف نسق لجمهور الفقهاء ـ غير من مضى ذكرهم.

قال أبو عبدالرحمن: وتوضع الفاصلة بين الأعلام الأعجمية وإن لم يكثروا؛ لأن غير العارف باللغة الأجنبية قد يظن أن العلم الثاني تتمة للأول، أو اسم لأبيه.. مثال ذلك: «الأدب المقارن/منهاجه، ومنظوره ل: ن ب ستالكت، وأدوارد زفيل».. وتضع النقطتين الرأسيتين بعد «ل» حتى لا يُظن أن «ل» من رموز اسم العلم، ولتعداد المشتركين في التأليف.

ـ أن توضع بعد الحرف لمنع اللبس مثل: «سألته إن كان يريد مساعدة، فقال: لا، أكرمك الله».

قال أبو عبدالرحمن: إنما يوضع ها هنا علامة القطع والاستئناف هكذا: «لا.. أكرمك الله».. على أن البلاغيين يرون أن إثبات الواو قبل الدعاء أجمل من واوات الخدود [يعني خصل الشعر المعكوفة] على أصداغ الملاح!.

ـ لا خصوصية للحشو في وضع الفاصلة بين المفردات، وإنما العبرة باللبس والطول المنسي.

ـ لا معنى للتقسيم إلى قاطعة وفاصلة؛ لأن المعنيين موجودان معاً كما أسلفت وكما سيأتي.

إضافة

توضع الفاصلة قبل كل كلام مستأنف جاء بعد جملة موقعها أول السطر، أو بعد علامة القطع.. وتلغى في المفردات والجمل الفرعية في

سياق الكلام، أو توضع ويكون قبلها علامة القطع والاستئناف، أو علامة التعداد والتفصيل (وهي النقطتان الرأسيتان)..

والاستئناف مثل: «أبو محمد بن حزم إمام جليل، متعدد المعارف، قوي الحجة، بديع الأسلوب، منظم الفكر.. تنظيمًا ظهر في منهجيته، وترتيبه لمسائله، وتفريعه المسائل على الأبواب.. وكان حاد الطبع، وفي بعض عباراته صلف وشدة؛ لهذا عابه كثير من العلماء من أمثال: أبي العباس بن العريف، وابن العربي، وفلان، وفلان، وغيرهم.. والأول شبه لسانه بسيف الحجاج.. ألف هذا الإمام كتبًا كثيرة جمة الفوائد، وهي: الإيصال، والمحلّى، والإحكام..إلخ.

أو: جمة الفوائد.. هي: الإيصال..إلخ.

أو: جمة الفوائد.. منها: الإيصال..إلخ»

قال أبو عبدالرحمن: يلاحظ في هذا وضع علامة القطع والاستئناف قبل «تنظيمًا ظهر»؛ لأنه سيرد معطوفات على غير ما قبل العلامة.. أي أنه سيتفرع شبه جمل.

ووضعتْ قبل «وكان حاد»؛ للغرض نفسه.

ووضعت علامة التعداد قبل «أبي العباس»؛ للغرض نفسه.

ووضعت قبل «والأول»؛ لأن الجملة مستأنفة غير معطوفة على ما سبق.. وهكذا وضعت قبل «ألف».

ووضعت الفاصلة قبل «وهي»؛ لأنه تم عطف جملة خبرية مفصلة على جملة خبرية مجملة واقعة بعد علامة القطع.

ودلت النقطتان الرأسيتان بعد «وهي» على أن المعطوفات بعدها عطف على ما بعدها مباشرة.

ووضعت علامة القطع قبل «وهي» - وإن كانت جملة معطوفة في المعنى؛ لأن الاستئناف من دون الواو.. وهكذا وضعت علامة القطع قبلها «منها».

القاعدة من جديد

- توضع الفاصلة للتمييز بين الجمل التي يجمعها قاسم مشترك، وبين الأجزاء والأقسام والأنواع.. وهذا التمييز من أجل نظر البصر حال الضرورة، ومن أجل الفهم؛ ليعلم العقل أن ما بعدها معطوف على ما قبلها في قاسم مشترك لفظًا ومعنى، أو معنى؛ فهي للفصل والوصل معًا؛ فالفصل دلالتها على التمييز، والوصل دلالتها على ارتباطها مع غيرها في جامع مشترك.

- الجامع المشترك: إما شيء ينقسم أجزاءً وأقسامًا، وإما شيء يتعدد إلى أنواع، وإما قصد الكاتب.. كأن يكون قصده مجرد الخبر؛ فالجامع «مجموع ما أراد الكاتب أن يخبر به، أو يأمر به إن كانت الجمل إنشائية».. أو أن يذكر مناسبة؛ فتكون الجمل ذات صلة بالمناسبة، ويكون الجامع المناسبة نفسها.

قال أبو عبدالرحمن: والجهة الجامعة قد تخفى على الكاتب، فيحتاج قبل الترقيم إلى التأمل في السياق، واتصاله وتفريعه المعنوي كهذا النص عن صنيع الأستاذ أحمد حسن الزيات رحمه الله في الترجمة: «يُفرغ في النص روح المؤلف وشعوره: باللفظ الملائم، والمجاز المطابق، والنسق المنتظم».

قال أبو عبدالرحمن: الجهة الجامعة «ما يُفرغ في النص».

توضع الفاصلة للتمييز بين الجمل التي يجمعها قاسم مشترك، وبين الأجزاء والأقسام والأنواع

الهوامش

١- قال أبو عبدالرحمن: كتبت مع الدكتور الفاضل يحيى محمود بن جنيد (الساعاتي) فصولاً مطولة عن أصول التحقيق، وعلامات النساخ ورموزهم.. نشر بعضها في الصحف، وبقيت بعد ذلك حبيسة اللمسات الأخيرة.

٢- أصول نقد النصوص ص١٠٥، دار المريخ.

٣- الفاصلة ها هنا لا معنى لها: بل يوضع مكانها علامة القطع والاستئناف (النقطتان الأفقيتان).. ولا مانع من إغفال العلامة؛ لأمن اللبس.

٤- موضع النقطتين ها هنا صحيح، ولكن ليس هناك ضرورة لبس تحوج إليهما.

٥- هاتان النقطتان مع الواو المقلوبة المنقوطة تشتركان في الرمز للتفريع.. إلا أن النقطتين لتفريع ما كان جزءًا أو نوعًا مما قبلها، أو يجمعها جامع مشترك.. وتتميز الفاصلة المنقوطة بالتعليل والنتيجة.

٦- هذه الفاصلة في غير محلها؛ لأنها توحي بالعطف على ما بعدها مباشرة.. والأولى هنا وضع علامة القطع والاستئناف.

٧- وضع الفاصلة ها هنا غير مناسب؛ لأنها فصل بين الجملة وقيدها.

٨- الأولى ها هنا إكمال السطر؛ لأنه لا ضرورة للفراغ؛ ولأن الفراغ تشويه، ولأن ذلك إهدار لفراغ ينبغي شغله.

٩- الإملاء والترقيم في الكتابة العربية ص٩٨.. ويلاحظ أن المؤلف يضع الحروف الأبجدية بين قوسين، والأولى وضع شرطة بعدها هكذا «أ -»؛ لأن مبنى الرسم على الاقتصاد.. وإنما توضع الأرقام والحروف الأبجدية بين قوسين في حالتين:

أولاهما: أن تكون الأرقام أو الحروف فرعية تحت رقم أو حرف رئيس مثل:

٥- وبنو زيد، وفروعهم كالتالي:

أ- آل غيهب، ومن علمائهم..إلخ.

ب- آل عيسى.. إلخ.

وأخراهما: أرقام التعليقات في الحواشي؛ حتى لا تلتبس أرقام التعليقات بين قوسين بالأرقام التي ترد داخل التعليقة.. مثال ذلك هذه التعليقة:

«(٣) هكذا ذكر المؤلف، وذلك خطأ للأمور التالية:

١- لكذا، وكذا..إلخ.

٢- لكذا، وكذا..إلخ.

٣- لكذا، وكذا..إلخ.

ثم تأتي تعليقة ثانية برقم(٤).. فلو كانت أرقام التعليقات قبل شرطة، وليست بين قوسين: لظن القارئ أن رقم(٤) امتداد لرقم(٣) الذي هو قبلها مباشرة.

١٠- توثيق النصوص وضبطها عند المحدثين ص٢٦٤.

١١- الأولى الأرقام مكان هذه النجوم.. وإنما تكون هذه النجوم حينما تُستنفد التفريعات من أرقام إلى حروف؛ فتكون النجوم حينئذ ضرورة.

١٢- الأولى ها هنا إلغاء النجوم، ووضع واو العطف والفاصلة، وإكمال السطر؛ لأن حكم هذه الأشياء ووضعها واحد؛ فلا تحتاج كل جزئية إلى ترقيم، ولأن الأولى شغل الفراغ.

١٣- الكتاب/ تحريره، ونشره ص١١٣ - ١١٤.

١٤- جعل المؤلف البحث عن الفاصلة تحت رقم (٥)، فكان الأولى أن يشغل ما قبل هذه الشرطات بالحروف الأبجدية.

١٥- لا معنى للفاصلة هنا؛ لأنها فصل بين الجملة وقيدها.

١٦- لا معنى لهذه الشرطة والتي بعدها، والأسلوب العربي أن يقول: «فهذه جملة حالية».

١٧- معجم الإملاء العربي ص ١٥٩و١٦٠.

١٨- ما قبل الفاصلة قيد الجملة؛ فوضعها فضول مشوش.

١٩- الأسلوب الفصيح حذف الواو في مثل هذا السياق، ولك أن تسقط العلامة قبل «خاصة» - بالواو، ومن دونها - ؛ لأنه لا فاصل بين الجملة وقيدها، ولك أن تضع العلامة الصحيحة، وهلى علامة القطع والاستئناف؛ لتشعر بأن في الكلام تقديرًا مثل: أخص، أو وتكون خاصة؛ فيكون الكلام على القطع والاستئناف.

٢٠- قال أبو عبدالرحمن: لا معنى لهذه النقط بين الموصوف والصفة!!.. وإنما تدل هذه النقط على الحذف.

٢١- المعجم المفصل في الإملاء ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

٢٢- تحقيق نصوص التراث في القديم والحديث ص ١١٨.

٢٣- يسميها المصريون (الشولة).. وهذه التسمية غير معروفة في البلاد العربية، وأصل الشولة: ما ترفع العقرب من ذنبها. المعجم الوسيط (شول) (الجبوري).

٢٤- الصواب هنا وضع النقطتين الأفقيتين، وتكميل السطر بالسطر الذي بعده.

٢٥- منهج البحث وتحقيق النصوص ص ٥٨ - ٥٩.

٢٦- الوسيط في النحو والإملاء ص١٤٧.

٢٧- ما رأيت أحدًا يجمع بين علامتين - باستثناء جمعهم بين علامتي التعجب والاستفهام -.. والصواب الجمع بينهما كجمعي ها هنا بين علامتي الاستفهام والتفريغ.

٢٨- قال أبو عبدالرحمن: أنت ها هنا تخبر عن الاستفهام ولا تستفهم، فلا توضع علامة الاستفهام.

مستجدات العصر ومتغيراته في ضوء السياسة التعليمية للمملكة وخططها التنموية

محمد بن إبراهيم الملحم

تتميز التربية من غيرها من المجالات بحاجتها المستمرة إلى التطوير والتكييف لارتباطها الوثيق بالعنصر الإنساني، هذا الكائن المتطور المتغير بمتغيرات كثيرة جدًا تحيط به، ومن هنا كانت التربية الخلاقة المبدعة هي تلك التي تنجح في ملاحقة التغيرات ومواكبة التطورات.

تقصد هذه المقالة إلى إبراز أهم التغيرات التي طرأت على المجتمع السعودي خلال السنوات الخمس الأخيرة، والتي يمكن عدها ذات طبيعة تفاعلية مع العملية التربوية، كما تحاول أن تقترح الأساليب والوسائل التي يمكن بها تكييف العملية التربوية أو تطويرها لتحتوي هذه المستجدات، وتتكيف مع التغيرات.

أهم المستجدات

مستجدات هذا العصر السلبية كثيرة ومتنوعة وسوف نصنفها على النواحي التالية:

الناحية الاجتماعية

الاتصال:

ساهمت وسائل الاتصال البصرية والسمعية والحركية في تكوين بنية جديدة من الأخلاقيات والعادات والاهتمامات والميول في المجتمع، ومن هذه الوسائل الهاتف والهواتف الخلوية، ووسائل النقل الحديثة، كالسيارات والطائرات، ووسائل الاتصال المرئية والمسموعة، كالتلفاز والمذياع والفيديو وشرائط الكاسيت وغيرها، وفي مقدمة هذه الوسائل أجهزة الاستقبال الفضائية RECEIVING DISHES التي كانت لها آثار سلبية كثيرة ومتنوعة أبرزها:

- سطحية التفكير وسذاجة الأهداف: حيث تركزت اهتمامات مشاهديها إلى حد كبير على الأزياء والتقليعات الحديثة والسفاسف وأخبار الفنانين والتقليعات الغربية وملاحقة الجنس الآخر، وما إلى ذلك من الترهات.
- إدمان السهر، وإهمال الإنتاج.
- اكتساب عادات وأفكار وافدة غريبة بفعل الشحن الإعلامي الموجه.
- انتشار ظواهر الطلاق والتفكك الأسري.
- انخفاض مستوى الاهتمام بالدين في مجالاته المتنوعة سواء العبادات أو المعاملات أو العادات والأخلاق.

هذا وإن آثار هذه الوسيلة أكثر بكثير من أن تعد، ولكن هذه أمثلة لتصور حجم المشكلة والدور الكبير لهذه الوسيلة الخطيرة.

الاختلاط:

يقصد به اختلاط الفرد بأجناس وشعوب أخرى سواء من خلال سهولة السفر والتنقل، أو من خلال العمالة الوافدة إلى المجتمع، مثل الخادمات المنزليات والسائقين والعمال مما ترتب عليه ظهور مفاهيم ومظاهر أخلاقية جديدة مثل: التستر غير النظامي - معاكسة الخادمات هاتفيًا - معرفة السائقين أسرار البيوت..

تعدد الملهيات وأنواع الترفيه:

لقد ترتب على هذه المظاهر المختلفة عدة سلبيات أثرت ولا شك في العملية التربوية التعليمية ومخرجاتها وأبرز هذه السلبيات: المخدرات والجرائم الأخلاقية، والعلاقات غير المشروعة، وقطيعة الرحم، والتفكك الأسري، والتسرب من المدارس، وتكرار الغياب، وانخفاض التحصيل، والتسيّب الاجتماعي.

الناحية الاقتصادية

- تعدد مصادر الإنفاق: الألعاب الإلكترونية، والهواتف الخلوية، واشتراكات القنوات الفضائية، والحاسب الآلي، والخدم والسائقين، والسفر، والمطاعم والحفلات.. كل هذه الأمور وأشباهها لم تكن سابقًا على قائمة إنفاق العائلة المتوسطة، أما اليوم فتكاد تصبح من أساسياتها.
- تعدد أنواع السلع والانفتاح الاقتصادي والتجاري.
- النمو السكاني وارتفاع معدلات القبول في الجامعات.
- دخول المهن سوق العرض والطلب كميًا ونوعيًا.

حيث تعد المرحلة الحالية مرحلة شبه الاكتفاء الذاتي في الوظائف العامة الواسعة النطاق (كالتدريس) والاتجاه إلى وظائف القطاع الخاص الأكثر طلبًا للجودة النوعية، في الوقت نفسه ظهر الاتجاه إلى خصخصة بعض المؤسسات العامة.



خادم الحرمين الشريفين: أول وزير للمعارف في المملكة العربية السعودية

الناحية الثقافية

- تراجع مستوى اللغة الفصحى عند طبقة المثقفين.
- مفاهيم الحداثة الفكرية وقولبتها في قوالب الحداثة الأدبية والفنية.
- مفهوم العولمة الثقافية بين أم الأرض وإشكالاته ومخاطره.
- أزمتا التطرف الديني من جهة والانفلات الأخلاقي من جهة أخرى.
- طغيان الأدب الشعبي على الأدب الفصيح.
- المفاهيم التحررية المناوئة لتعاليم الإسلام الصريحة والمتلبسة بلباس التحضر، كتحرر المرأة وسفورها، وتحكيم العقل في الدين، والتوفيق بين الأديان، أو بين المذاهب الضالة والمذاهب الأصيلة.
- أخلاقيات العلم الحديث وأزمة الاستنساخ.
- تقنية الإنترنت، وما تتضمنه من إمكانات لمصلحة الثقافة ومخاطر ضدها.
- رسالة الفن الموجهة ضد الثقافة العربية والإسلامية المتمثلة في بعض الأعمال السينمائية المشوهة للصورة أو التاريخ.

التكيف مع المتغيرات

التكيف في ضوء خطط التنمية

التنمية في مفهومها العام تدور حول عدة معان(١): اللحاق بركاب الحضارة، توفير الحياة الكريمة لكل فرد، التخلص من التبعية بكل صورها، وأخيراً كما عرفتها منظمة الأمم المتحدة أنها عملية غايتها الاندماج في حياة الأمم، والإسهام في تقدم المجتمع النامي بأقصى ما يمكن.

والتنمية المتمركزة حول الإنسان من أهم أشكال التنمية؛ ذلك أن الإنسان الذي يعدّ هدفًا للتنمية هو أيضًا صانعها، وعلاقتها بالتربية منبثقة من علاقتها بالإنسان الذي هو في الجهة الأخرى محور العملية التربوية. وهذه العلاقة أيضًا ينبغي أن تأخذ اتجاهها الصحيح يقول هيوناه كاوتري: «يعد الاقتصاد والمجتمع والثقافة والتعليم مظاهر مختلفة لحقيقة وحيدة.. ولا يجب أن نتحدث على سبيل المثال عن تطويع التعليم للاقتصاد، ولكن عن دمج التنمية الاقتصادية وتنمية الموارد البشرية؛ لأنه من الضروري أيضًا، بأسلوب معين، تطويع الاقتصاد لإمكانات التعليم وحاجاته، فمن الوجهة العملية، لا يجب الاستمرار في إعداد خطة التعليم بعد الخطة العامة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية»(٢).

ويقول أيضًا: «يجب إقامة صلة بين كل تنمية محلية وقيمها وثقافتها الخاصة، فلا يكفي أن ننقل إلى دولة في طور النمو مخزون المعارف المتداولة في البلاد المتقدمة؛ لأن هذه العملية تستبعد أي استنبات أصيل للعلم والتكنولوجيا في البلاد المستقبلة لها»(٣).

ولقد اهتمت خطط التنمية في المملكة بتنمية الفرد من خلال التطور الكمي الواضح في أعداد مؤسسات التعليم وأفراده من معلمين وطلاب وقياديين، ففي عام ١٤١١هـ كان عدد المدارس ٧٥٧٢ مدرسة والإنفاق ٩٠٦٢ مليون ريال(٤)، ووصل عام ١٤١٥هـ إلى ٨٦٩١ مدرسة والإنفاق إلى ١٤٠٢٧ مليون ريال(٥). كما اهتمت بدعم المؤسسات الأكاديمية الموجهة لأغراضه، وشجعت البحث العلمي حول قضاياه.

التكيف في ضوء السياسة التعليمية

لقد ركزت السياسة التعليمية في المملكة العربية السعودية على الإنسان بوصفه محوراً للتنمية لتقوم بذلك بدور مزدوج كوثيقة لسياسة التعليم وسياسة التنمية في آن واحد، لنجد أنها تتماشى مع الاتجاه الحديث والواعي للتنمية الذي أشرنا إليه في التقدمة السابقة، **ووردت فيها ٣٠ فقرة (٦) تحمل هذه الروح لعلنا نلقي الضوء على نماذج منها(٧):**

- فرص النمو مهيأة أمام الطالب للإسهام في تنمية المجتمع الذي يعيش فيه، ومن ثم الإفادة من هذه التنمية التي شارك فيها.
- تقرير حق الفتاة في التعليم بما يلائم فطرتها، ويعدها لمهمتها في الحياة على أن يتم ذلك بحشمة ووقار، وفي ضوء شريعة الإسلام، فإن النساء شقائق الرجال.
- تزويد الفرد بالأفكار والمشاعر والقدرات اللازمة لحمل رسالة الإسلام.
- تأكيد كرامة الفرد وتوفير الفرص المناسبة لتنمية قدراته حتى يستطيع المساهمة في نهضة الأمة.
- العناية بالمتخلفين دراسيًا، والعمل على إزالة ما يمكن إزالته من أسباب هذا التخلف، ووضع برامج خاصة دائمة ومؤقتة وفق حاجاتهم.
- الاهتمام باكتشاف الموهوبين ورعايتهم، وإتاحة الإمكانات والفرص المختلفة لنمو مواهبهم في إطار البرامج العامة، وبوضع برامج خاصة.

إن المتضمنات السابقة فيما يتعلق بالتنمية في المملكة والمتمركزة حول الفرد لكونه أساسا لها، ومتابعة ذلك في سياقات بنود سياسة التعليم يجعلنا نجزم بأهمية وضع تصور جديد للمرحلة المقبلة، إذا وضعنا في الحسبان المستجدات والمتغيرات القوية والمتعددة التي أبرزت في مستهل هذه المقالة.

وهذا يقودنا بشكل طبيعي إلى محاولة استلهام روح سياسة التعليم، والاتجاه العام لخطط التنمية في المملكة لرسم منظور عام، وآخر تفصيلي حول ما يجب أن تتولاه التربية في بلادنا للتفاعل المثمر مع هذه المستجدات تفاعلا يحافظ على هوية الفرد، ويصون المجتمع، ويترسم هداية نظام الشرع الحنيف، ودعوته الأصيلة في التطور والنماء، كما يأخذ بيد المجتمع من الحسن إلى الأحسن، ومن الجيد إلى الأجود ليتحقق المفهوم العام للتنمية الشاملة.

وفيما يلي محاولة لبناء هذا المنظور، وتوصيف ملامحه، وإبراز محاسنه، وتأكيد أهميته على الأسس المتقدمة، وضمن الأمور السابقة.

ملامح التكيف مع المستجدات

أولاً - في المناهج

لقد أكد كثير من الدراسات والمؤتمرات أن الجوانب الأساسية التي يجب أن تتجه إليها التربية لتواجه متغيرات المجتمع، ولتحقق النماء المنشود هي ما يلي: الحقائق والمعلومات المرتبطة بالواقع المعيش، وتعلّم المهارات، وتعلّم أساليب التفكير، وتعلّم

الاتجاهات والقيم(٨).

ـ تضمين المفاهيم والعادات الجديدة ضمن المناهج ذات الطابع التوجيهي، مثل مناهج التربية الإسلامية، واللغة العربية، والتربية الوطنية.

ـ التركيز على مادتي العلوم والرياضيات لكونهما هدفًا مرحليًا في مهمة المرحلة التنموية الحالية، ووضع الإجرائية الكفيلة بضمان تدريسهما على نحو إبداعي يقوم على الاستنتاج والتطبيق، ويهتم بأسلوب حلّ المشكلة.

ـ تنمية الاتجاهات نحو العمل الجماعي بروح الفريق حيث أسهمت الطرق التقليدية في تخريج طاقات فردية منغلقة على الذات لا تؤمن بالعمل التكاملي، مما يعوق مهمة التنمية والتطوير.

ـ في أنشطة المناهج المختلفة ينبغي التركيز على ضرورة الأخذ بمبدأ التعليم المستمر، والتعليم مدى الحياة، وتطوير الذات علميًا وعمليًا.

ـ إضافة مادة «الاقتصاد» ضمن المواد الإجبارية في المرحلة الثانوية، لتسهم في تثقيف الطالب حول مفاهيم الدخل، والإنفاق، والعرض والطلب، والجودة النوعية، وما إلى ذلك من موضوعات يحتاج إليها ليفهم العالم من حوله، ويتفاعل معه



تقر سياسة التعليم حق الفتاة في التعلم بما يلائم فطرتها

بصورة صحيحة.

ـ تطوير طرائق التعليم من أساليب الحفظ والترديد إلى الفهم والتطبيق والابتكار.

ـ إعداد المعلم إعدادًا يتناسب والمرحلة المقبلة، وفي هذه المقالة لا يسع المقام إلى أكثر من رسم صورة معلم المستقبل فهو:

- المعلم القدوة: دينًا وأخلاقًا ومعاملة وانضباطًا.
- المعلم المربي لا المعلم الموظف.
- المعلم المسؤول الحامل هم الجيل، ورسالة التغيير.
- المعلم التربوي عملاً لا شهادة.
- المعلم المتمكن علميًا من مادته.
- المعلم المثقف الذي يعرف ما يدور حوله على المستوى الثقافي، والاقتصادي، والعلمي، والاجتماعي.

ـ اختيار المعلم: وهنا ينبغي أن تبدأ هذه المهمة قبل تخرج المعلم في الجامعة أو كلية المعلمين حيث تنفذ قياسات دقيقة لاتجاهات الطالب وميوله، إذ هناك من يناسبه تدريس الأطفال، وهناك من لا يناسبه ذلك، مع إمكان نجاحه في تدريس الأكبر سنا، وهناك من يبدع في تخصص معين، ولا يستطيع غيره، وهكذا، تتم مساعدة الطالب على الاتجاه في المسار الذي يخدم العملية التربوية مستقبلاً بعد تخرجه.

كما ينبغي أن تصمم اختبارات ومقابلات مقننة لاختيار المعلمين، وترشيحهم لوظيفة التدريس، بحيث تكون هذه الاختبارات والمقابلات أدوات منبئة PREDICTING TOOLS لاستعداد المعلم لأداء المهمة التربوية بمستوى الكفاءة المأمول، أما ما هو موجود في أرض الواقع فلا يتعدى اجتهادات شخصية تصل أحيانًا إلى درجة المقابلة الشكلية غير المسؤولة.

ومن جهة أخرى ينبغي أن يوجه الاهتمام إلى المتفوقين والمبدعين من طلاب الجامعات غير التربويين في تخصصاتهم المختلفة والمناسبة لعملية التدريس، ككليات العلوم والهندسة، والحاسب الآلي، والزراعة، والبيطرة الإدارية، والآداب، واجتذابهم إلى مهنة التدريس بعد تقديم الدبلوم التربوي لهم.

ولا يكون الاجتذاب المذكور لهؤلاء المتميزين والمبدعين إلا بتوفير مميزات مادية أو معنوية، كأولية التعيين في المنطقة أو المدرسة المختارة، وكذلك فرص الابتعاث، واستكمال الدراسة بعد خدمة سنتين، وما إلى ذلك من الحوافز الممكنة والمغرية في الوقت نفسه، والتي يمكن ـ لو توافرت ـ أن تنافس عروض كبرى شركات القطاع الخاص ومغرياتها.

تعليم التعلّم

التعلّم هو: نشاط ذاتي يقوم به المتعلم ليحصل على استجابات، ويكوّن مواقف يمكنه بها مجابهة كل ما يعترضه من مشكلات(٩).

فغالبًا ما تتخذ عملية التعلّم حل المشكلات، ولذا ينبغي على المناهج الدراسية أن تتحول إلى هذا الاتجاه المهم، الذي يمثل الحلّ المناسب لكثير من المظاهر السلبية في إنسان اليوم. إن مهارة حل المشكلات تجعل من الفرد واثقًا بنفسه، متفاعلاً بشكل إيجابي مع دوره الاجتماعي والمهني والثقافي في محيطه الصغير، وفي مجتمعه الكبير، ومن ثم يصبح شخصاً منتجاً متحضراً، بناءً، أخلاقيًا، واعيًا، منطقيًا، موضوعيًا، وهذا لعمري هو المواطن الصالح.

ومن أهم المواد التي تحتاج إلى هذا النمط من التعليم مواد الحاسب الآلي؛ لأنها تتناول عنصراً متطوراً بشكل مستمر وسريع جدا، مما يصبح معه المنهج المصمم لسنة معينة لا تتجاوز صلاحيته بعدئذ سنتين أو ثلاثًا لتظهر بعدئذ لغات جديدة (بيسك ـ فيجوال بيسك ـ جافا)، وبرامج جديدة (وورد ستار ـ وورد بيرفكت ـ ميكروسوفت وورد)، وأحيانًا مفاهيم جديدة (دوس ـ نوافذ ٣٫١١ ـ نوافذ ٩٥)، وهلم جرًا..

ومن هنا ينبغي أن يركز منهج الحاسب الآلي في عرضه لموضوعاته على كيفية تعلم الموضوع ذاتيًا أكثر من تعليمه وتدريسه بشكل مباشر، فينمي بطريقة عرضه وبنائه ملكة التعلم الذاتي، ويطرح أسئلته وتدريباته على هذا الأساس، ويمثل الحاسب الآلي أفضل المواد لنجاح تطبيق أسلوب تعليم التعلم لما فيه من العلاقة الوثيقة بالتطبيق الآني على الجهاز، وإمكان الاعتماد على طريقة التجربة والخطأ بسهولة وواضحة كمدخل للتعلم الذاتي. كما ينبغي أن يضمن منهج الحاسب الآلي وحدة مفتوحة المحتوى يعدّها المعلم بنفسه بحيث يضمنها موضوعًا جديدًا من أحدث ما ظهر في الساحة، وبمعايير مسبقة محددة وواضحة ليسهم بذلك في ردم الهوة التي قد تظهر بين المنهج الموجود والواقع المحيط.

الاهتمام بمرحلة الطفولة

من خلال العرض المتقدم لأهم المستجدات من المؤثرات السلبية الجديدة في الفرد التي يفترض أن التربية تسعى إلى مكافحتها ضمن رسالتها تعديل السلوك، فإن مرحلة الطفولة تمثل التربة الخصبة لبذر بذور التوجيه والتوعية والإرشاد والتحصين ضد الأوبئة الفكرية والأخلاقية المتوقع تعرضه لها في مستقبله القريب. ومن جهة أخرى، فإن عدم العناية بهذه المرحلة على نحو خاص في جوانب المخرجات التعليمية لا يضمن فيها إنتاجية تعليمية فائقة، فيتقدم الطفل إلى المرحلة التالية ضعيفًا علميا بسبب التدريس الشكلي ومشوهًا نفسيًا بعقد المدرسين وممارساتهم غير التربوية، غير متفاعل مع مجتمعه الصغير،

مجتمع المدرسة مما يعده لمرحلة عدم التفاعل مع المجتمع الأكبر، وأخيرًا مقتنعًا بإمكان التقدم إلى الأمام في أي مجال بصورة جوفاء لا روح فيها، ذلك أن المدرسة قدمت له الأنموذج والمثال في ذاته هو.

لقد تضمنت توصيات ندوة مديري التعليم الثالثة بوزارة المعارف التي كان موضوعها «الطالب: قبوله وتحصيله وتقويمه» تسع عشرة توصية حول الصفوف الأولى من المرحلة الابتدائية مما يعكس أهمية هذه الصفوف، واهتمام القيادات التربوية الميدانية بها(١٠).

إن الاهتمام بهذه المرحلة أبسط ما يقال في شأنه أن يتمثل في الجوانب التالية:

الطاقات البشرية:

- المعلم المتخصص، وينتخَب من المعلمين المتميزين وبشروط خاصة.
- المشرف التربوي المتخصص.
- المدير المتخصص القادر على الإشراف على العملية التربوية الأصيلة لهذه السن.

المناهج:

- فصل مرحلة الصفوف الأربعة الدنيا (من الأول إلى الرابع الابتدائي) عن العليا، وضم الأخيرة إلى الصفين الأول والثاني المتوسط في مرحلة مستقلة.
- التقويم المستمر لمناهج هذه المرحلة وتطويرها باستمرار.
- تقديم أدوات تقويم للطالب موضوعية ومدروسة ثابتة مع تدريب المعلمين عليها.
- إنشاء مركز تدريب متخصص بمناهج خاصة لتدريب المعلمين المستجدين.
- تكوين إدارات متخصصة للتعليم الابتدائي في صفوفه.
- «التعليم الخاص»، و«مدارس تحفيظ القرآن»، و«التعليم الأهلي».

الإمكانات المادية

- الرواتب أو المكافآت الخاصة لمعلمي هذه المرحلة.
- المختبرات والمواد المساعدة على تنفيذ التعلم الاكتشافي.
- الأجهزة البصرية والسمعية والأفلام التعليمية المشوقة المصممة خاصة لهذه المرحلة.
- برامج الحاسب الآلي المصممة وفق أهداف واضحة، وغايات أصيلة، وبطرق شائقة ماتعة مع التركيز على مبدأ التعليم باللعب.
- تجهيز أدوات تعليمية خاصة بهذه المرحلة على غرار الأدوات التعليمية التي تعد للمواد المختلفة.. فكما أن للعلوم أو الجغرافيا مثلاً وسائلها وأجهزتها التعليمية الخاصة بها، فإنه ينبغي أن تكون للصفوف الدنيا وسائلها الجاهزة الشائقة والماتعة الأساسية منها والإغنائية.
- دعم الأبحاث العلمية المستهدفة لهذه المرحلة حسب متطلبات المجتمع ومؤثراته ومستجداته، مع تبني التوصيات الأصيلة الواقعية.

اللغة الإنجليزية

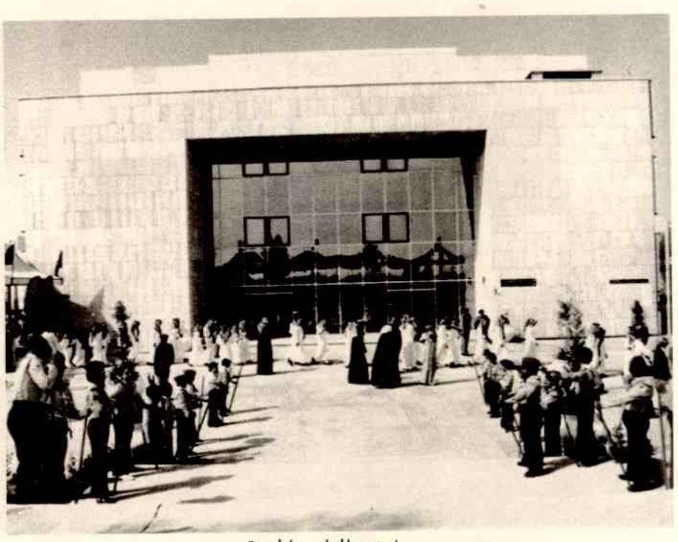
تمثل اللغة الإنجليزية اليوم لغة العلوم التقنية (التكنولوجية) التي تمثل مضمار السباق بين الأمم، ولا يقدم التعليم التعريفي باللغة قدرًا كبيرًا من الاستيعاب لإمكاناتها، وأساليب تطبيقها، ومن ثم فهم المعرفة المكتوبة بها فهمًا عميقًا وإدراكًا واعيًا، ومن ثم كان من الضروري أن يألفها الطالب ألفة لغته الأم، ويجيدها إجادة لهجته الأصلية، ولا يقدم الأسلوب الحالي لهذه الغاية الشيء الكثير، فالطالب يتعرف، أول ما يتعرف، إليها في المرحلة المتوسطة التي تمثل المستوى الحرج لمرحلة المراهقة، ومن ثم يمثل تقديم مادة جديدة خلالها خطوة لخطورها لتأثر تأسيس هذه المادة لدى الطالب بإرهاصات مرحلة المراهقة ومشكلاتها النفسية المتنوعة، هذا عدا أن تأخير تقديم المادة للطالب حتى يبلغ المرحلة المتوسطة يلقي في روعه شيئًا من التخوف إزاءها فيتفكر في أمر هذه المادة التي أخر تقديمها له حتى كبر وأنهى المرحلة الابتدائية مما يدل كنتيجة منطقية أنها صعبة ومعقدة.

وبناءً على دراسات سابقة (١١) فإنه يقترح أن تقدم مادة اللغة الإنجليزية ابتداءً من الصف الرابع أو الخامس الابتدائي لتحقق عدة منافع:

- التبكير بتعريف الطالب بها يمكن من استغلال قدراته البكر على الحفظ والانتباه.
- يسهم ذلك أيضًا في زيادة فترة تعامله مع اللغة ثلاث سنوات إضافية قبل الجامعة مما يزيد ألفته بها.
- يساعد ذلك على بناء منهج أكثر تدرجًا خلال تسع سنوات بدلاً من فترة ست السنوات الحالية يبدأ من المفرط في السهولة، وينتهي في المرحلة الثانوية بالتطبيق الآلي للغة، والفهم الواعي للغة العلم المكتوبة بها.
- يساعد ذلك على زيادة كمية التدريبات والممارسة ليتحول تعليم اللغة من التعليم التعريفي إلى التعليم القائم على التدريب والإتقان.

كما يساعد على تحقيق ذلك عدة عوامل تميز الفترة العمرية للصفوف العليا من المرحلة الابتدائية من فترة المرحلة المتوسطة(١٢) وهي:

- وصول ذكاء الطفل في مرحلة الصفوف الابتدائية العليا إلى نحو نصف ذكائه في المستقبل.
- تميز القدرات الخاصة من القدرة العقلية العامة.



إحدى المدارس الحديثة

- تكامل مهارة القراءة.
- ازدياد مدى الانتباه وحدته.
- نمو الذاكرة وظهور التذكر بالفهم.
- ازدياد استعداد الطفل لدراسة المناهج الأكثر تقدمًا.
- ازدياد حب الاستطلاع عند طفل هذه المرحلة.
- إدراك التماثل والتشابه اللغوي.
- ظهور الفهم، والاستمتاع الفني، والتذوق الأدبي.
- اختبارات التشخيص لاكتشاف المبتكرين وبطيئي التعلم.

حيث تحتاج هاتان الفئتان إلى الرعاية الخاصة اليوم؛ لأن المستجدات التي طرأت تحتم أهمية الاستفادة القصوى من المبدعين، بل اللجوء إليهم كطاقات بناءة تتجاوز الصعوبات والعقبات، وتقدم الحلول الخلاقة لمشكلات مستعصية، وتعمل بتفان في سبيل نجاح مشروعاتها وأفكارها.

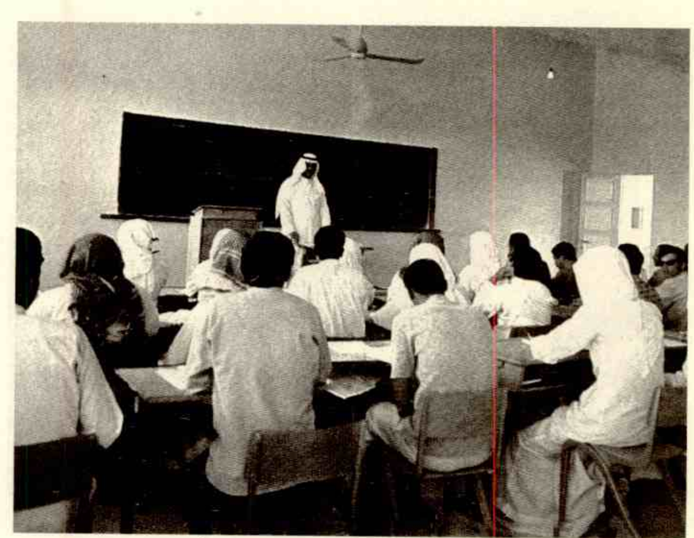
أما بطيئو التعلم فحاجتهم إلى الرعاية لا تقل أهمية عن المبتكرين المبدعين، فهم جزء من المجتمع، وبحاجة ماسة إلى وقايتهم من المؤثرات المحيطة، وتزويدهم بالمهارات المهمة للتفاعل الاجتماعي والثقافي مع مجتمعهم بطريقة بناءة ومفيدة، أما تركهم دون رعاية

فإن من شأنه أن يخلق فئات هدامة أو عالة على المجتمع على أقل تقدير، وهذه خسارة ينبغي للتربية أن تنجح في تجنيب المجتمع مخاطر حدوثها، أو تناميها خاصة مع وضع المخاطر المتعددة للمستجدات الطارئة في المجتمع اليوم في الحسبان.

الإرشاد الطلابي

ينبغي أن ينال هذا المجال عناية بالتدريب المتقن والمستمر، واختيار الكفاءات المؤهلة له، لا أن يكون محطة استراحة لكل من مل من مهنة التدريس، كما ينبغي أن يقوم بدوره في تثقيف المنزل، وأولياء الأمور تجاه مشكلات التربية ومداخلها وأساليبها، والسلبيات الشائعة، والحلول العلمية لبعض المشكلات المتكررة، والأدوار المطلوبة من أولياء الأمور نحو التحصيل المدرسي، والمشكلات النفسية والعصبية، وظواهر النمو ومطالبه، وطرق الاستذكار المختلفة لكل مادة، والكثير الكثير مما يحتاج إليه الأبوان للإسهام في مساعدة المدرسة على نجاحها في مهمتها.. وأشير بصدد هذا إلى تجربة قسم التوجيه والإرشاد الطلابي بالإدارة العامة للتعليم في المنطقة الشرقية بإقامة محاضرات تثقيفية للأمهات بالتعاون مع محاضرات من كليات التربية للبنات.

ثانيا ـ في الإدارة التعليمية



إعداد المعلم المرشد ضرورة لتعليم فعّال

الإصلاح الإداري:

الإصلاح الإداري للكيان التربوي يعدّ من أهم مداخل الإصلاح التربوي؛ لأن الأمة العظيمة التي وراءها تربية عظيمة لا يمكن أن تكون قد حازت تلك التربية العظيمة في ظل أنظمة أو ممارسات إدارية ضعيفة.

وهنا سنعرض موضوع الإصلاح الإداري على مبحثين: الأول المدخل التقليدي، وهو ما يتعلق بأساليب علم الإدارة ومفاهيمها في هذا الشأن. أما البحث الثاني فهو المدخل الإبداعي، وهو اتجاه حديث في الإصلاح الإداري.

المبحث الأول: المدخل التقليدي(١٣)

ويتضمن عدة أجزاء نوردها باختصار:

الإجراءات الخاصة بالتنظيم:

• تبسيط الجهاز الإداري لإزالة التعقيدات والتشابكات المعيقة للعمل والرافعة لكلفة الأداء.

• تحديد المسؤولية.

• اللامركزية في إدارة وحدات العمل.

والمشاركة في صنع القرار، وتحمل المسؤولية، وزرع الثقة بالنفس، وهي تتطلب أمرين مهمين من دونهما قد تعمل بشكل عكسي:

ـ إقامة نظام اتصالات فعال يربط بين القادة ووحدات العمل.

ـ الاهتمام بخطط التقويم، والرقابة، والمحاسبة.

• تعادل السلطة والمسؤولية: وذلك ليتوافر إمكان إنجاز الأعمال المناطة.

• اتباع سياسات دقيقة في اختيار الموظف.

ويستخدم في ذلك اختبار الأداء الأقصى MAXIMUM PERFORMANCE TEST ودراسة الشخصية للتنبؤ بالنجاح والملاءمة.

• تنسيق الوحدات المختلفة وتنظيمها على أسس موضوعية تمنع التداخل والازدواجية.

الإجراءات الخاصة بأساليب العمل:

ـ التدريب.

ـ تبسيط أساليب العمل.

ـ تنظيم وقت العمل وتقنينه.

ـ وضع الأدلة الإرشادية والكتيبات الموضحة لطرائق العمل.

ـ اتباع سياسات رقابية متطورة. مع وضع القضايا السلوكية والإنسانية نصب الاهتمام؛ لأن الرقابة القائمة على البطش والتهديد بقوة السلطة تخلق النفور وانعدام الثقة، ومن ثم التنصل من المسؤولية.

الإجراءات الخاصة بالحوافز:

ـ النظر إلى الرواتب بالقيمة الحقيقية للمرتب بالنسبة إلى أسعار السلع والخدمات، وليس بالنسبة إلى عدد وحدات النقود.

ـ الابتعاد عن الحوافز العامة التي لا تفرق بين العاملين.

ـ تلاؤم الحوافز مع الجهد المبذول.

ـ اكتشاف القياديين، وإعطاؤهم الفرص وتشجيعهم هو من أفضل الحوافز لهم.

ـ العقاب الفوري عند الحاجة إليه للمنحرف أو المخالف.

الإجراءات الخاصة بالقيادات الإدارية:

ـ أن يكون الرؤساء قدوة حسنة.

ـ حسن اختيار القيادات الصالحة.

ـ بث الأسلوب الديمقراطي والمشاركة في القرار بين القيادات.

الإجراءات الخاصة بالعلاقات الإنسانية:

ـ معاملة الموظفين على أنهم بشر لا آلات.

ـ الرعاية النفسية والاجتماعية والصحية.

ـ الموضوعية والعدالة في المعاملة.

ـ مشاركة الموظف في وضع أهداف الأعمال الموكلة إليه وبرامجها وخططها.

ـ الاهتمام بالشكاوى، وحلها بسرعة.

الإجراءات الخاصة بظروف العمل المادية:

ـ تحسين بيئة العمل كالإضاءة والتهوية والنظافة والتكييف.

ـ توفير الإمكانات المادية كالأثاث والآلات والأجهزة.

ـ ملاءمة مكان العمل من حيث المساحة والموقع.

ـ حسن توزيع العناصر البشرية على الوحدات، فلا يحصل تكدس في مكان دون آخر.

المبحث الثاني: المدخل الإبداعي(١٤)

هذا اتجاه حديث في الإصلاح الإداري دعا إليه أكثر من واحد من منظري الإصلاح الإداري لكونه أسلوبًا فعالاً للإصلاح خاصة في المنظمات المنتمية إلى دول نامية تحتاج إلى إصلاح كبير.

ويعرف الإبداع على أنه: «عملية فكرية تؤدي إلى حلول مبتكرة لمشكلة ما».

وإن الدعوة إلى الإصلاح الإداري من خلال الإبداع منطلقة من ملاءمة سمات الإبداع لمشكلات (أو معوقات) الإصلاح الإداري ملاءمة تجعل منه الأفضل للتفاعل مع هذه العملية.

وسمات المقدرة الإبداعية كما أوردها الكثير من الدراسات والكتابات كالآتي:

الطلاقة: يقصد بها إنتاج أكبر عدد ممكن من الأفكار الإبداعية.

الأصالة: يقصد بها عدم تكرار الأفكار. كما أن الأفكار المطروحة غير شائعة.

المرونة: (عكس التصلب الذهني) تعني القدرة على تغيير الحالة الذهنية مع تغير الموقف، وبصيغة أخرى القدرة على استخدام أكثر من نمط فكري تجاه مشكلة معينة.

الحساسية للمشكلات: إذ لدى المبدع القدرة على رؤية كثير من المشكلات وتمييزه في موقف واحد، ويعزل كل واحدة عن غيرها بسهولة.

الاحتفاظ بالاتجاه ومواصلته: حيث يمكنه التركيز فترات طويلة في مجال اهتمامه وتخطي المشتتات، والالتفاف حولها بسهولة ومرونة عند الحاجة.

القدرة على إدراك العلاقات وتكوين الروابط.

تطبيق الصفات الإبداعية على مشكلات الإصلاح الإداري:

بينت الدراسات العربية أن الأجهزة الإدارية في الدول العربية تعاني من عدة مشكلات. وسوف نورد هذه المشكلات، التي يمكن أن ننظر إليها على أنها عوائق للإصلاح الإداري (النمطي غير الإبداعي). وسنورد أمام كل مشكلة السمات الإبداعية التي يتطلبها تجاوز تلك المشكلة.

* تغييرات غير مترابطة وغير متكاملة في أهدافها وفي بيئاتها:

وهذه المشكلة تحتاج إلى الصفات الإبداعية التالية: الأصالة - الحساسية للمشكلات - الاحتفاظ بالاتجاه والاستمرارية - إدراك العلاقات.

* تغييرات سريعة

وهذه المشكلة تحتاج إلى عاملي: الطلاقة والمرونة.

* تغييرات مفاجئة غير متوقعة في الأهداف أو العوامل:

وهذه المشكلة تحتاج إلى عدة عوامل: الطلاقة - المرونة - الأصالة - الاحتفاظ بالاتجاه.

* عدم تلاؤم بين تغيرات الأهداف وتغيرات الوسائل أو الإمكانات:

هذه المشكلة تحتاج إلى إدراك العلاقات والقدرة على إيجاد روابط، وتشكيل عناصر الخبرة في بناء جديد يتماشى والموقف الجديد.

رابعًا - في الأنظمة المدرسية

مراحل التعليم الثلاث: تمثل المراحل الثلاث في تكوينها الحالي عائقًا أمام بعض التطورات التي يمكن اقتراحها للنقلة النوعية في التعليم، ومن ثم فإن المقترح المتقدم ذكره في مدخل المناهج والمتضمن تكوين المراحل بأربعة صفوف دراسية لكل منها يمثل تمهيدًا لإمكان تطبيق عدد من التطورات أبرزها:

- الاهتمام بمرحلة الطفولة.

- إدخال اللغة الإنجليزية في الصف الخامس الابتدائي (الأول المتوسط حسب التكوين المقترح).

- بدء التخصص في المرحلة الثانوية منذ الصف الأول (الثاني الثانوي حسب التكوين المقترح) مما يساعد على بناء مقررات التخصص بشكل أكثر فعالية من الناحية النوعية (حيث يمكث الطالب في التخصص ثلاث سنوات بدلاً من سنتين)، ومن ثم إعداد الطالب للجامعة إعداداً أفضل.

- في المرحلة الابتدائية: يقترح عمل مجالس محلية بكل مدرسة تتضمن أعضاء متطوعين من أولياء الأمور بنسبة لا تزيد على ٢٫٥٪ على الأكثر من إجمالي عدد الطلبة، ولهؤلاء الحق في اجتماع أسبوعي مع مدير المدرسة يطلعون فيه على كل ما يحدث في المدرسة من أمور فنية أو إدارية أو تربوية سواء أكانت تتعلق بالطلاب أم بالمعلمين أم بالمبنى المدرسي أم بالتجهيزات أم بالمناهج أم بالأنشطة، ويسهمون بإبداء الرأي والتصويت على القرارات، ورفع الملاحظات للمشرف المتابع، والمساهمة المباشرة في الأنشطة اللاصفية إن رغبوا؛ لأن من شأن ذلك أن يرفع كثيراً من الجودة النوعية في إدارة المدارس الابتدائية والعملية التدريسية على حد سواء.

- في المرحلة المتوسطة: ينبغي تكثيف عدد المرشدين الطلابيين لحاجة هذه المرحلة بشكل خاص إلى العناية والرعاية، ويقترح بصدد هذا ألا يكون المعيار في تحديد نصيب المدرسة بتحديد عدد ثابت لكل مدرسة، بل ينبغي أن يكون المعيار هو عدد الطلاب، وينبغي تحديد هذا العدد بعد دراسة وافية للواقع والإمكانات.

كما ينبغي أن يهتم في هذا الجانب بالعلاقة مع الأب لتبصيره بالمرحلة الجديدة؛ لأن خسارة الأب لابنه غالبًا ما تبدأ إرهاصاتها في هذه المرحلة، ولتفعيل هذا الجانب، فإنه ينبغي تقنين العمل وتأطيره ضمن خطوات إجرائية واضحة التفاصيل تقود المرشد الطلابي إلى تنفيذها كما هو موسوم لها، وألا يترك المبدأ للاجتهاد والحماسة الشخصية.

كذلك يمثل فتح المجال لمشاركة المعلمين في مهمة الإرشاد الطلابي جانبًا مهمًا من جوانب تقوية هذا الدور الحيوي المهم، على أن تكون المشاركة بناءً على اختيار مقنن لمن يصلح لهذه المهمة ممن يملك الحماسة والرغبة من المعلمين، وتوفر له الظروف المناسبة للمشاركة، مثل تخفيض النصاب.

إن مفهوم «المعلم المرشد» مفهوم مهم وبناء ومثمر جدا لو أحسن تطبيقه والإفادة منه؛ ذلك أن المعلم هو خير من يفهم نفسية الطالب، وصفاته الشخصية، وطباعه وميوله، ويمكنه أن يقرأ أفكاره أحيانًا، ومن ثم، فهو غالبًا يملك القدرة على توقع ردود فعله، أو تصرفاته المقبلة.. فإذا ما وفرت له الظروف، وشجع على العمل في التفاعل مع مشكلات الطالب فإنه سيكون موفقًا غالبًا إلى النجاح فيها بنسبة كبيرة.

المراجع

١- د. علي بن عيسى الشعبي «التعليم ومتطلبات التنمية». مجلة التوثيق التربوي. العددان ٣٣ - ٣٤: ١٤١٣ - ١٤١٤هـ. الرياض.

٢- هيوناه كاوتري وآخرون. «مفاتيح إستراتيجية للتنمية». ترجمة د. محمد حسام محمود لطفي. القاهرة. الشعبة القومية المصرية لليونسكو ١٩٨٤م.

٣- المرجع السابق.

٤- التعليم ومتطلبات التنمية، مرجع سابق.

٥- النشرة الإحصائية لوزارة المعارف الصادرة عن مركز المعلومات والتوثيق التربوي بتاريخ ١٤١٥/٧/٢٢هـ. الرياض.

٦- انظر البنود ذوات الأرقام التالية من وثيقة سياسة التعليم ٨ - ٩ - ٢١ - ٢٢ - ٢٧ - ٢٨ - ٣١ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٦ - ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٥٠ - ٥١ - ٥٢ - ٥٣ - ٥٤ - ٥٥ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦١.

٧- وثيقة «سياسة التعليم في المملكة العربية السعودية» الصادرة عن وزارة المعارف. ط٤. ١٤١٦هـ.

٨- انظر وقائع ندوة التعليم والتنمية التي نظمها المعهد العربي للتخطيط بالكويت، وعقدت في الإسكندرية ١٩٧٨م، وكذلك مقالة «التعليم ومتطلبات التنمية» للدكتور علي الشعبي. مجلة التوثيق التربوي ع٣٣ - ٣٤: ١٤١٣- ١٤١٤هـ، وكذلك الاتجاهات وتوصيات اللقاء السنوي الثالث للجمعية السعودية للعلوم التربوية والنفسية.. الرياض ١٤١١هـ. مجلة التوثيق التربوي ع٣٣ - ٣٤: ١٤١٤هـ.

٩- فاخر عاقل. التعلم ونظرياته. بيروت. دار العلم للملايين ١٩٧٧م.

١٠- وقائع وتوصيات ندوة مديري التعليم الثالثة. مجلة التوثيق التربوي. العدد ٣٥: ١٤١٥- ١٤١٦هـ. الرياض.

١١- انظر دراسة د. بدرية سعيد الملا. «مدى تأثير لغات أجنبية قبل الصف الرابع الابتدائي على مستوى النمو اللغوي للطفل في اللغة العربية». حول كلية اللغة العربية جامعة قطر. العدد١١: ١٤١٥هـ/١٩٩٤م ص ص٢٨٤ - ٣٥٦.

وكذلك دراسة محمد الملحم. «آراء أولياء أمور الطلبة ومعلمي اللغة الإنجليزية في محافظة الخبر حول إدخال مبادئ اللغة الإنجليزية كمادة مقررة في الصفوف العليا من المرحلة الابتدائية». متطلب لمادة بناء الاستفتاء. دبلوم القياس والتقويم. كلية التربية. مكة المكرمة ١٤١٧هـ.

١٢- حامد عبدالسلام زهران. علم نفس النمو (الطفولة والمراهقة). ط٥. بيروت. دار العودة ١٩٨١م. ص ٢٣٩ - ٢٤١ - ٢٤٤.

١٣- د. أحمد محمد عبدالهادي. الانحراف الإداري في الدول النامية. الإسكندرية. مركز الإسكندرية للكتاب ١٩٩٧م.

١٤- د. عاصم الأعرج. دراسات معاصرة في التطوير الإداري. ط١. عمان. دار الفكر للنشر والتوزيع ١٩٩٥م.

السخرية في روايات

عبدالفتاح عوض

إن النتائج التي يمكن التوصل إليها من هذه الدراسة في إطارها العام سهلة المنال، إذا ارتكزنا على نقطة واحدة، وهي تعرّف الأعمال الروائية للكاتب الإسباني جونثالو تورينتي باييستير GONZA-LO TORRENTE BALLESTER. وعملية التعرف هذه تكمن في دراسة كل المكونات الشكلية والفكرية التي تكوّن كل نتاجه الأدبي، أي إن رواياته هي الطريق إلى الكشف عن الخطوط الرئيسة له ولمفهومه الفني.

ولكن ما نأمله من هذه الدراسة هو أن تكون ذات قيمة مزدوجة، تساعد الباحث في فهمه ومعرفته لقدرات الكاتب الإبداعية واللغوية، والتركيز على مفهوم السخرية بصفة خاصة من ناحية، ومن ناحية أخرى تساعد في إبراز شخصية هذا الكاتب الذي أفسح المجال لعدد من الدراسات لدى عدد من النقاد والباحثين، وإن كانت هذه الدراسات محدودة العدد من دون أن يكون لهذا تفسير منطقي، أو عادل تجاه الإبداع الروائي لبايستير.

ولد جونثالو تورينتي بايستير عام ١٩١٠م في مدينة الفيرول التي أصبحت تسمى فيما بعد باسم الفيرول دل كاوديو، وهي ميناء وترسانة بحرية بالمحيط الأطلنطي تابع لمقاطعة لاكورونيا الواقعة بشمال غرب إسبانيا، وتلقى تعليمه الأولي في جليقية، ثم انتقل إلى مقاطعة أوبييدو لدراسة القانون. وفي عام ١٩٢٨م واصل دراساته الحرة للآداب والفلسفة في جامعة مدريد. التحق بهيئة تحرير صحيفة «لاتيرا»، حيث بدأ كتابة مقالاته الصحفية. تزوج للمرة الأولى عام ١٩٣٢م، وفي عام ١٩٣٦م حصل على وظيفة مدرس للتاريخ القديم، وفي العام نفسه توجه إلى باريس للحصول على درجة الدكتوراه، ولكنه عاد إلى إسبانيا قبل أحداث الحرب الأهلية الإسبانية، وفي عام ١٩٣٧م عاود اتصالاته بدور الصحف ونشر مقالاته الأولى بعنوان «الصواب والقدر للمأساة القادمة» RAZONY SER DE LA DRAMATICA FUTURA، ثم أصبح عضواً في هيئة مجلة «الإسكوريال» التابعة لحزب الكتائب التي كان يرأسها ديونيسو ريدرويخو.

وفي عام ١٩٣٣م نشر مسرحيته «رحلة الفتى توبياس EL VIAJE DEL JOVEN TOBIAS» التي لقيت نقدًا لاذعًا في ذلك العام، وإن كان قد فاز في مسابقة الأعمال الدينية التي عقدت في مدينة «شقوبية» بمسرحية دينية بعنوان «الزواج المخادع» (١٩٣٩م) EL CASAMIENTO ENGANOSO في العام نفسه.

وما إن وضعت الحرب الأهلية (عام ١٩٣٦ - ١٩٣٩م) أوزارها حتى نشر رواية «خابيير مارينو» ١٩٤٣م JAVIER MARINO، ثم بعد ذلك هجر مدينة شانت ياقب التي أقام بها فترة، حيث نشر روايته «انقلاب جواد لوبي ليمون» (عام ١٩٤٦م) EL GOLPE ESTADO DE GUADALUPE LIMON، وركز بايستير حياته وإقامته في مدريد من عام ١٩٤٧م إلى ١٩٦٤م، وكان خلال هذه الفترة يقوم بتدريس مادة التاريخ دون انقطاع، ويشارك بمقالاته في صحيفة «أريبّا»، وخلال هذه الفترة نشر كتابه «الأدب الإسباني المعاصر».

وفي عام ١٩٥٩م حصل على جائزة مؤسسة خوان مارش الإسبانية عن روايته «السيد يصل» عام ١٩٥٧م EL SENOR LLEGA. وفي أوائل الستينيات نشر روايتين «حيثما يدور الهواء» عام ١٩٦٠م DONDE DE LA VUELTA EL AIRE، و«عيد الفصح الحزين» عام ١٩٦٢م LA PASCUA TRISTE، وأدرج هذه الروايات الثلاث في ثلاثية أطلق عليها «اللذات والظلال» LOS AGOZOS Y LAS SOMBRAS.

وفي عام ١٩٦٣م نشر روايته «دون جوان» DON JUAN. وبعد ذلك بثلاث سنوات تلقى دعوة من جامعة «الباني» ALBANY لتولي وظيفة أستاذ مقيم، وخلال وجوده بالولايات المتحدة الأمريكية، كتب روايته «أوف سايد» OFF-SIDE التي نشرت بعد ذلك بقليل في إسبانيا، كما انتهى من كتابه «المسرح الإسباني المعاصر» ١٩٦٩م.

وفي عام ١٩٧٠م عاد إلى إسبانيا، حيث شغل درجة أستاذ التاريخ بجامعة مدريد. وإلى جانب عمله الأكاديمي بدأ في نشر روايته «أسطورة هروب خوطا بي» عام ١٩٧٢م LA SAGA FUGA DE J.B.، وكان للاعتراف الشعبي بهذه الرواية أثر كبير في نجاحها المنقطع النظير، مما أدى إلى إعادة طبع عدد من رواياته. ثم عاود رحيله إلى الأمريكيتين؛ إلا أنه عاد في عام ١٩٧٣م إلى «بونتيفيدرا» لأسباب عائلية، ومنذ ذلك التاريخ، وهو يقيم في إسبانيا بصفة دائمة.

ويشغل حاليًا منصب أستاذ ذي كرسي بمعهد سلمنقة، وقد حصل على مقعد بالمجمع الملكي للغة الإسبانية في عام ١٩٧٧م، حيث ألقى كلمة الانضمام إلى الأكاديمية بعنوان «حول الروائي وفنه»، وقد أجاب كاميلو خوسيه ثيلا الحائز على جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٨٩م قائلاً «أخيرًا تم الاعتراف بالإبداع الروائي لكاتب مشهور». ثم نشر جونثالو تورينتي بايستير روايات أخرى منها «صفحات من سفر الرؤيا» عام ١٩٧٧م FRAGMENTOS DE APOCALIPSIS التي أجيزت بجائزة النقد في العام ذاته. ثم نشر كتابًا نقديًا بعنوان «دون كيشوت كمجموعة» DON QUIJOTE COMO JUEGO،

باييستير


جونثالو تورينتي باييستير

ورواية أخرى بعنوان «الظلال المستردة» عام ١٩٧٩م LAS SOMBRAS RECOBRA-DAS تضمنت مجموعة من الأقاصيص غير المنشورة، ثم صدرت روايته «جزيرة السنابل المقطوعة» عام١٩٨١م LA ISLA DE LOS JACINTOS CORTADOS التي نالت الجائزة القومية للآداب في العام نفسه، كما حصل على جائزة أمير أشتوريش في الرواية مشاركة مع الروائي ميجيل دي ليبيس عام ١٩٨٢م.

ولقد سعدت بلقاء جونثا تورينتي باييستير حينما حضرت له سلسلة من المحاضرات التي نظمتها مؤسسة «خوان مارش» الثقافية بمدريد عن «مشكلة المذهبية في التيارات الأدبية المعاصرة» EL PROBLEMA DE LOS ISMO EN LAS COR-RIENTES LITERARIAS CONTEMPORANEAS، وكان ذلك في أوائل شتاء عام ١٩٨٩م، فوجدت فيه الإنسان الهادئ المشغول دائمًا بموضوعات الفكر، والمناهض دائمًا للديماغوجية والتعصب. إنه إنسان على قدر كبير من الذكاء والوعي، وقدرة فائقة على التخيل والإبداع، وانشغال بقضايا الثقافة والفكر سواء أكانت دينية أم فلسفية جمالية، شعرية كانت أم نثرية، اجتماعية كانت أم سياسية. وعلى كل حال يمكننا القول: إنه صورة نموذجية متميزة للفكر الخالص، صاحب الثقافة الواعية الناقدة التي تقوّم الشخصية، وأسلوب تطورها في إطار الفكر الإنساني الذي يسمو إلى الكمال والمثالية دائمًا. الشخصية التي وظفها في رواياته لتكون الفاعل العامل من حيث بناؤها وحركتها، وأن تكون في الوقت ذاته، الكائن الذي تتحرك بداخله النزعات المتكاملة للرجل والمرأة على حد سواء.

وكل هذا كان انطلاقًا من البيئة التي رسمها الكاتب للشخصية، ومواكبتها للحدث مع تفريدها من حيث كونها شخصية واقعية أو هامشية، رمزية أو مذهبية فكرية (أيديولوجية)، تنعكس سلوكياتها على الشخصية المتشككة المترددة، أو الثائرة المتمردة المجادلة في الفكرة أو الشخصية التي صنعها الفشل الاجتماعي، فضلاً عن إبراز الشخصية الطيبة الخيرة الموجبة، والشخصية الطيبة السالبة العاجزة، مع إفراد قوّة العقل الباطن لكل نموذج من هذه الشخصيات المتعددة التي يوردها باييستير في رواياته. وإن كنا نرى شخصية جونثالو تورينتي باييستير، كما وردت في مقدمة أعماله الكاملة، بأنها الشخصية التي ترتشف من النماذج التي صاغها وشكّلها في قوالبه الروائية.

ولو نظرنا إلى روايته الأولى «خابيير مارينو» (قصة ارتداد) JAVIER MARINO (HISTORIA DE UNA CONVERSION) لوجدنا أنها رواية غريبة من حيث التركيب الشكلي والفكري تبين نقص خبرة مؤلفها في ذلك الوقت. الرواية تدور حول قصة شاب يعيش أزمة القيم والمبادئ، وتدور أحداثها في بيئة بعيدة عن الواقع السردي، دون أن تقدم لنا أساسًا صلبًا يحقق التوافق بين عناصرها الروائية الرئيسة: الشخصيات والمواقف. ومع هذا فإن الرواية بها جوانب إيجابية جيدة إذا ما قورنت بالروايات المعاصرة لها في تلك الفترة، وقد أبرز هذه الإيجابيات عدد من النقاد بوصفها رواية تندرج تحت ما يسمى بروايات «الحدود الخارجية» التي انفصلت عن أسس الواقعية التي أسفرت عنها فترة ما بعد الحرب الأهلية الإسبانية. ولنذكر أنه على الرغم من أن أحداث الرواية تدور في فرنسا، وأن الشخصيات في أغلبها أجنبية وبعيدة عن البيئة الإسبانية، إلا أنها تعبّر بمنظورها الاستبطاني عن حالة التفكك التي سادت مجتمع إسبانيا من جراء تلك الحرب الأهلية البشعة.

وتعدّ رواية «إفيجينيا» IFIGENIA نموذجًا من الروايات ذات البيئة الأسطورية، فهي بعيدة تمامًا عن المنظور الواقعي المباشر، وإن كانت ذات إشارات رمزية سياسية، وذلك من خلال لغة أسلوبية راقية توضح الاتجاهات الفكرية (الأيديولوجيا) السياسية للكاتب.

وتدور أحداث رواية انقلاب جواد الولي ليمون في أحد بلدان أمريكا الجنوبية، حيث استطاع المؤلف أن يغوص في أغوار شخصياتها بطريقة (كاريكاتورية) ساخرة مركزًا على كيفية تقلب أطوار تلك الشخصيات التي ليست سوى نماذج واقعية مستوحاة من الواقع الأمريكي اللاتيني، تأكيدًا لنظرية الزمان والمكان التي أورد لها النقاد مجالاً واسعًا استنادًا لدراسات فلاديمير بروب على سبيل المثال في كتابه «مورفولوجيا الرواية».

وعن ثلاثية «اللذات والظلال» ذلك العمل الذي يضم روايات ثلاثًا «السيد يصل» و«حيثما يدور الهواء»، و«عيد الفصح الحزين» تنفرد كل واحدة باستقلاليتها وفرديتها، وفي الوقت ذاته تشكل مجموعة متكاملة مترابطة الخيوط، ولا يمكن الفصل بين واحدة وأخرى. وتتماثل هذه الثلاثية بثلاثية الكاتب العصري العربي نجيب محفوظ «السكرية، وبين القصرين، وقصر الشوق»، تدور أحداثها حول الواقعية الاجتماعية والنزوع في بعض الأحداث إلى الخيال الخصب الذي يضفي على العمل الأدبي صبغة فنية راقية لا يتوافر إلا لقليل من الكتّاب الروائيين الذين صقلتهم التجربة. وتظهر براعة باييستير في عرض البيئة ووصف الأماكن والأحداث والشخصيات المرتبطة بها، وذلك من خلال واقعين: الواقع الاجتماعي والواقع النفسي الذي تغوص فيه هذه الشخصيات، وكانت محصلة التوازن الاجتماعية المتنوعة في إطار العلاقات بين شخصيات الرواية لتعرّي نفسها بنفسها.

وتأتي روايته «دون جوان» لتأكيد الأسطورة التي خلدت الأدب الإسباني محليًا وعالميًا في ثلاثة أعمال: أولها: «لاثليستينا» عام (١٤٩٩م) LA CELESTINA المجهولة المؤلف، وإن كانت قد نُسبت في مجملها إلى فرناندو دي روخاس (ت:١٥٤١م)، وثانيها «دون كيشوت» (١٦٠٥م) DON QUIJOTE التي كتبها ميجيل دي رفانتيس (١٥٤٧ - ١٦١٦م)، وثالثها «دون جوان» DON JUAN تلك الأسطورة العالمية في الأدب الإسباني التي ابتدعها الكاتب المسرحي تيرسو دي مولينا (١٥٧١ - ١٦٤٨م) TIRSO DE MOLINA في مسرحية «ساخر إشبيلية ودعوة التمثال الحجري» (١٦٣٠م) EL BURLADOR DE SEVILLA Y CONVIDADO DE PIEDRA، حيث جعل دون جوان رمز المستهتر الذي لا همّ له إلا مغازلة النساء ليفتنهن، ثم لا يلبث أن يهجرهن حين يقعن في حباله. وسرعان ما عبرت هذه الشخصية حدود إسبانيا ليعاد خلقها من جديد على أيدي موليير MOLIERE (١٦٢٢- ١٦٧٣م)، فيصور دون جوان خدّاعًا للنساء، ولكنه مع ذلك يحب الخير، ويتصدق على الناس على الرغم من سخريته من المجتمع،

وإلى إيطاليا عـلى أيدي «جولدوني» GOLDONI (١٧٠٧ - ١٧٩٣م) الذي جعل بطله داعرًا مستهترًا لا يقيم للأخلاق وزنًا، وفي إنجلترا يرقى اللورد بايرون LORD BAYRON بقيمة ذلك البطل، ويجعله حامل فلسفته، فهو ضد رياء المجتمع وتقاليده الظالمة، وداعية إلى الحب الطليق، ذلك الحب الذي يسبغ عليه صبغة التقديس . وبهذا يكون بطله رمزًا لمن يطرده المجتمع من حظيرته، فهو ضحية التقاليد، والمتمرد عليها، المنتقم منها.

ولقد قام موتسارت MAZART بإخراج مقطوعة موسيقية عام ١٧٨٧م، وأيضًا شتراوس STRAUSS الذي أخرج قصيدة سيمفونية عام ١٨٨٩م، واستمرت أسطورة دون جوان في الأدب الإسباني، حيث تناولها أنطونيو دي ثامورا (١٦٦٤ - ١٧٢٨م)، وخوسيه دي إسبرونثيدا (١٨٠٨ - ١٨٤٢م) في «طالب سلمنقة»، وخوسية ثوريا (١٨١٧ - ١٨٩٣م) في «دون جوان تينوريو»، وأثورين (١٨٧٣ - ١٩٦٧م) في «دون جوان». وتنقلت هذه الأسطورة مع دوماس (١٨٠٢ - ١٨٧٠م)، وميرميه وبوشكين (١٧٩٩ - ١٨٣٧م)، وماترلانت، ومازالت تتناقلها الألسن حتى الآن في مختلف الآداب العالمية بوصفها الشخصية التي تمثل الواقع الإسباني؛ ولكنها في الحقيقة أسطورة؛ لأنه لا يمكن أن يتحقق ذلك في العالم. إنه إنسان منهمك في اللذات، ويمكن مقارنة شخصية «دون جوان» بمصباح علاء الدين في «ألف ليلة وليلة».

وتعد شخصية دون جوان من أعظم الشخصيات التي لقيت حظًا فرديًا في الأدب، وقد مثلت اتجاهات مختلفة، من حب طائش، إلى هجاء اجتماعي كان شقيًا، ويرجع شقاؤه إلى أنه قد جمع كثيرًا من الصفات التي يحسد عليها بوصفه رجلاً، وبها اندفع في طريق الشهوات، ولكنه كان يحتقر هذه الشهوات، ولا يجد سعادته في الانغماس فيها، فهو حائر لا يقر على قرار، ولا يرضى عن شيء. وهو لذلك من المتمردين على السماء، غير راض عن حظه وعن حظ الإنسان في الدنيا عامة. ويقامر بحياته في مغامراته، ولكن العقاب الإلهي يتابعه. فلا يزال ينتقل من خطر إلى خطر حتى يسلمه ذلك إلى الموت(١).

وقد تناول جونثالو تورينتي بايستير رواية «دون جوان» من منظور فكري، حيث طرح عددًا من المشكلات الفلسفية والجمالية انطلاقًا من أن الفرد قيمة اجتماعية وفلسفية.

وعن رواية «أوف سايد» (١٩٦٩م) OFF - SIDE يعود بايستير إلى خط الواقعية من حيث البيئة والموضوع، حيث يلقي بنظرة ثاقبة إلى العوالم الاجتماعية الخفية، تلك العوالم التي تمثل نماذج المجتمع المنبوذة من ذوي الشذوذ الجنسي والعاهرات والمرتشين والمنافقين، إلى العلاقات الصعبة التي يمكن أن تقيمها هذه النماذج البشرية مع قطاعات النظام الاجتماعي المستقر. والرواية تقليدية في طرح المشكلات من حيث احتواؤها في إطار الواقعية الاجتماعية، وإن كانت من وجهة النظر الشكلية تقدم تجارب فنية جديدة استطاع الكاتب أن يحقق فيها نجاحًا كبيرًا يساعد على إضفاء الحبكة الفنية للرواية.

وروايته «أسطورة/هروب خوطابي» نراها تمثل الإنتاج الروائي والإبداع الفني، حيث تكمن فيها الأساليب الفنية الجمالية التي استطاع أن يتميز بها جونثالو تورينتي بايستير في سيرته الأدبية. والرواية هي محاولة استكشاف عوالم أخرى بعيدة عن مفهوم الواقعية، حيث تتناول الخيال، والأسطورة، واللاواقعية، ونظرية التفاؤل بالأحلام، فضلاً عن العناصر التخيلية كافة التي توضع في نسق متكامل مبدع. وهذه الحبكة الفنية الأسلوبية تتوافق مع المنظور الفكري المكثف، حيث تعرض موضوعات تتعلق بالحياة كالسياسة والنزعة الدينية والشعور بالاستقلالية وحب الأرض والانتماء، بالإضافة إلى إثارة مشكلات لها علاقة مباشرة بمجال الفلسفة الجمالية من خلال منظور السخرية والمحاكاة الساخرة في الرواية الحديثة. ويكفي أن نقول أن بايستير كان يبلغ من العمر اثنين وستين عامًا عندما كتب هذه الرواية التي تعدّ تتويجًا لأعماله الروائية السابقة.

وحول مفهوم بايستير في الحبكة الفنية نرى أنه يقدم ظاهرة الحب والإثارة، بأنها تكون مبادرة من المرأة، وأن رد فعل الرجل في أغلب المجالات يكون سلبًا، ويرى أن الحب هو شعور أخلاقي بوصفه تعبيرًا عن جوهر الإنسان، وهو عنصر اجتماعي، حيث يرى أنّ العلاقات العاطفية المثيرة تكشف عن سلوك بعض طبقات المجتمع، وأن ثنائية الحب/الزواج تمثل واقعًا قهريًا، وإن كان واقعًا اجتماعيًا هادئًا، كما يرى أن الحب منظور نقدي يدور في إطار السخرية اللاذعة، والنكتة السياسية المضحكة.

وأمّا الجانب الديني في رواياته، فإنه ينظر إلى المشكلات الدينية لشخوصه الروائية من منظور ذاتي استبطاني يجعلنا ندرك ما هي حالات الشك والتردد والأزمات الشائكة التي تحملها كل شخصية من الشخصيات على عاتقها؟ كما يتناول العلاقة بين علوم اللاهوت وما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا)، كما ينظر إلى المؤسسات الدينية على أنها قيود تُفرض على المجتمع لمصلحة القادرين وضد الضعفاء، ويكمن هذا المنظور لدى بايستير في أن الكنيسة حليف دائم للسلطة، وعدو حقيقي للتقدم الفكري الحقيقي.

رواية «إميجينيا» ذات بيئة أسطورية بعيدة عن المنظور الواقعي المباشر، وتعبر عن الاتجاهات الفكرية السياسية للكاتب بلغة أسلوبية راقية

ومن خلال المنظور الاجتماعي يطرح قضايا لها ثقلها، مثل العلاقات بين المفكر والمجتمع، ووجود الأنظمة الاجتماعية الجديدة التي تصطدم بالهياكل القديمة، وعالم المنبوذ في المجتمع، فضلاً عن الطبيعة الفردية للإنسان.

وفي المنظور السياسي يعرض «الصراع بين الظروف والعقيدة» حيث يطرح التأثير الخارجي المتمثل في الحياة والظروف والتأثير الداخلي الذي يمثله الوازع النفسي، وذلك في إطار المفاهيم (الأيديولوجية) للإنسان الذي لا يمكن أن ينفصل عن كليهما. كما يعرض «الصراع بين مفهوم الذكاء والنظام (الأيديولوجي)»، حيث يشير إلى مناهضة المفكرين للعقائدية، الذين يتبنون دائمًا موقف البحث والنقد لأي نظرية من النظريات، وذلك يعارض، أحيانًا، المنظور السياسي المثالي، والدور الاجتماعي الذي يرسمونه. وفي مفهوم «الشكلية السياسية» يرفض بايستير وجود أي نمط من الطقوس السياسية ومعارضة كل ما ينجم عنها من أخطار وأضرار.

وعن منظور السخرية عنده، فإنه يلجأ في رواياته إلى مصادر متنوعة بداية من الجروتسكية إلى الهجاء، عن طريق السخرية السوداء، والدعاية الوردية، وسخرية اللامعقول، والمحاكاة الساخرة. ومن مصادره تغير القيم أمام اللامعقول، وقلب نظام اللغة، وتبديل مكان الكلمات، وتلطيف العبارة والتضاد والرد بالمثل، واللعب بالألفاظ من حيث الاشتراك المعنوي في اللفظ الواحد، أو على الجناس والطباق، واللعب بالمعاني من خلال الكناية والتورية والتعريض والمبالغة، وأن أغلب هذه المصادر تترابط فيما بينها للتكامل وتقدم لنا نموذجًا فرديًا خالصًا يتميز به الأسلوب الروائي للكاتب الذي وصفه النقاد بأنه أسلوب يتسم بالسخرية والهجاء والتهكم والمحاكاة الساخرة، وإن كنا نرى أن درجات هذه المفاهيم تتفاوت من رواية إلى أخرى، وربما كان يقصد بايستير أن يقدم الدرجات اللونية بنسب متفاوتة، وعلى جرعات وفقًا لما يقتضيه سياق الحال.

ومحاولة إثبات هذه الآراء لا يكون عن طريق الرصد والتسجيل وحسب، وإنما عن طريق البحث والتدقيق في الوسائل والمناهج التي استخدمها، والخصائص التي تميز وانفرد بها أسلوبه الأدبي الذي تتم دراسته لأن «علم الأسلوب» يسعى إلى المعرفة الحميمة للعمل الأدبي ولمبدعه عن طريق أسلوبه، وأن كل خاصية لغوية في الأسلوب تطابق خاصية نفسية، وأنه لابد أن يكون ثمة تناغم مستمر بين التعبير اللغوي والعمل الفني بأكمله...»(٢)، فضلاً عن الولوج إلى المصادر البلاغية، وكيفية توظيفها في خدمة الفكرة التي تؤكد وحدة العمل الأدبي، والتي هي محور الرؤية الجمالية الفلسفية المتمثلة في روايات باييستير، التي تعكس موقفاً حياتياً محوره المرارة والإحباط وضياع الرجاء وخيبة الأمل.

وبداية من رواياته الأولى، فإنه يقدم لنا عالمًا أدبيًا تختلط فيه الشخصيات التي لا تعرف هويتها، ولا اتجاه ظروفها الشخصية، أو قيمها الأخلاقية، أو إمكانات تحقيق ذاتها فكريًا وروحيًا. إنها شخصيات متألمة. كما أن الأحداث التي تتم عن مستقبل هذه الشخصيات في عالمه الروائي تقدم واقعًا مبهمًا ومتقلبًا بالمتناقضات. لقد كان تاريخ إسبانيا وظروفها السياسية مصدرًا من المصادر الأولية ـ سواء أكان ظاهرًا أم مستترًا ـ لإبداع هذه الروايات. مما يمكّننا من القول بأن هذا الواقع الروائي المتخيَّل قد تأثر بهذا الواقع التاريخي المبهم. ومن جانب آخر فإن النماذج الأخلاقية التي تطرحها الروايات لا تخطئ من حيث الالتزام السياسي، أو الإيمان الروحي، أو إمكانية الحرية الفردية والجماعية، أو الاتصال بين الأشخاص؛ هي جميعها بمنزلة مشكلات لا تجد حلاً فعالاً؛ إنها أشياء محكوم عليها بالتناقض الدائم، وإن هذه المستويات غير المتجانسة تعبّر عن ذاتها بلغة ملتوية متعددة المعاني.

إن هذه النزاعات من خلال الشخصيات والأحداث والأنماط اللغوية تشكل أدبًا ناتجًا من كاتب تكمن في داخله حالة عدم الرضا مع العالم المحيط به ومع ذاته. إن حالة عدم الرضا هذه لباييستير تنبع من موقفه نحو تطور إسبانيا ودوره فيه. لقد كان جونثالو تورينتي باييستير عضواً في حزب الكتائب، وكان مرتبطًا بأيديولوجية الحزب، وبالفريق السياسي الذي كان يرمي إلى تمثيل أيديولوجية إبّان الحرب الأهلية، وخلال السنوات الأولى لفترة ما بعد الحرب. ومع ذلك فإن المسيرة السياسية لإسبانيا بعد الحرب جعلته يعترف بخطأ ثقته الأولية في نظام الجنرال فرانسيسكو فرانكو، حيث كانت الرقابة ومطاردة المنشقين دليلاً على الإفلاس الأخلاقي للنظام السياسي آنذاك. وانعكس هذا في الإبداعات الأدبية التي أخرجها، فكانت شخصيات روايته بمنزلة الناطق والداعية إلى التأمل في أسرار الخالق.

كما أن الأحداث التي تسردها رواياته هي انعكاسات لتناقضات ذاته، ومن ثم أصبح أسلوبه الوسيلة التي يفصح عنها ضمير الأنا.

ومن ثم جاءت السخرية والهجاء والمحاكاة الساخرة لتكون الوسائل الأساسية لفنه الروائي. سخرية وتهكم وهجاء ومحاكاة ساخرة، هي أشكال مبهمة غامضة للخطاب الروائي، تصدر أحكاماً نقدية لاذعة على مسمع ومرأى القارئ الحاد البصيرة، وإن هذا الغموض يسَّر للكاتب التعبير عن مشاعره العدائية دون أن يتجاوز دائرة إدراك ووعي سلطات الرقابة الحكومية. ومن جانب آخر، فإنها مصادر فعّالة لإيصال هذا الشعور إلى المبعدين والمعذبين. كما أن حالة الاستهجان هذه الموجودة في مفهوم السخرية والهجاء والتهكم والمحاكاة الساخرة كانت أساسية لنقل رؤية جونثالو تورينتي باييستير للعالم، وحالة عدم الرضا التي كانت تغلب عليه.

إن القوى التعبيرية من مدلول السخرية والتهكم والهجاء والمحاكاة الساخرة تكمن في كيفية تنوع مستويات المعنى، إحداهما المستوى الظاهري، والأخرى مستويات باطنية، فالسخرية تنظم العلامات اللغوية؛ بغية توصيل معنى يختلف عما تفصح عنه الكلمات حرفيًا. ويمكن أن يحدث هذا على مستوى الجملة، أو على مستوى أحداث سردية أكثر تعقيداً. السخرية تقتضي إدراكًا نقديًا يتم التعبير عنه بخطاب متعدد المعاني. كما أن مصطلح السخرية يستخدم أيضًا لتحديد موقف وجودي ينطلق من مفهوم ومن قضية اليقين.

والسخرية كما عرّفها معجم الأكاديمية الملكية الإسبانية بأنها «مزاج رقيق وغير ظاهر وصورة بلاغية تكمن في إدراك عكس ما يقال»، وهذا يشدنا إلى المشهد الذي ورد في رواية «دليل الأعمى» لا ثاريو دي تورميس LAZARILLO DE TORMES عندما بدأ الأعمى يواسي «لاثارو» LAZARO الذي شج رأسه إبريق النبيذ: «كان يقول له مبتسمًا: لاثارو، وما رأيك؟ إن ما أصابك بالمرض يجعلك معافى، ويمنحك الصحة»، فالسخرية إذن هي رسالة لها وجه يفصل بين القول والواقع، وهي ليست مشكلة نقدية بقدر ما هي اتصال بين المرسل والمتلقي(٣).

روايته «خابيير مارينو» من روايات الحدود الخارجية التي انفصلت عن أسس الواقعية السائدة فيما بعد الحرب الأهلية الإسبانية

أما الهجاء فله مصادره خارج النص، حيث يستعمل اللغة، أو الفكاهة الساخرة ليقدم بطريقة مباشرة وساخرة في الوقت ذاته نقدًا وتهكمًا لاذعًا في مواجهة الشرور السياسية والاجتماعية والأخلاقية. ويرمي الهجاء إلى خلق روح النقد اللاذع أو النفور لدى القارئ تجاه الشيء المقصود بالهجاء والموجود في عالم الواقع.

وعن المحاكاة الساخرة، فإن هدفها الأول هو نظام وكيفية التعبير، فالخطاب القائم على المحاكاة الساخرة يفترض وجود خطاب مسبق لا يتم الإفصاح عنه، أي أن يكون متخفيًا تحت إطار ما يسمى بالنص الثاني بوصفه هدفًا لها، والتي تتطلب من القارئ أن يتعايش مع هذا النص الثاني، حيث إن محاكاته النقدية تظهر جلية في أسلوب المحاكاة الساخرة وخطابها. ويمكن القول: إن الهجاء يعتمد على ظاهر النص في حين أن المحاكاة الساخرة تعتمد على باطنه، «وإن الأدب الساخر يتخذ من الحياة موضوعًا له، والمناقضة ترمي إلى تشويه الأصل يقينًا، وتتخذ من الفن موضوعها. والمناقضة والأدب الساخر كثيراً ما يظهر كلاهما في عمل واحد، بل في موضوع واحد، فهما يتكاملان، ويغطي كل منهما الآخر.

كذلك نلاحظ شيئًا يحدث من تلقاء نفسه، يتمثل في أن المناقضة كثيراً ما تتحول من تقليد يهدف إلى مسخ عمل أدبي سابق وتشويهه، فتصبح عملاً يتسم بالأصالة الفنية. أما المناقضة اللاشعورية فلا وجود لها بداهة، على الرغم من أن الإنسان قد يميل إلى وضع التكلف الأسلوبي، والتهويل الشكلي، والاستنساخ تحت هذا العنوان»(٤).

وربما يظهر ذلك في رواية «دون كيشوت»(٥)، حيث يعدّ عنصر السخرية واحداً من أهم الجوانب التي تجعل منه عملاً متميزًا فريدًا، وفضلاً عن ذلك فلقد لقيت الطريقة التي استخدمها ثرفانتيس لإشاعة المرح والضحك البريء من ناحية، ومحاولة إصلاح المجتمع من ناحية أخرى، لقيت استحسانًا كبيرًا حدا بالروائيين أن يحاولوا تقليد هذا العمل بطريقة أو بأخرى. والسخرية في دون كيشوت تقوم على دعامتين أساسيتين:

أولاهما: الطريقة التي صور بها ثرفانتيس بطله كإنسان تسلطت على عقله فكرة

واحدة استعبدته، وجعلته أسيرًا لها، وهذه الفكرة هي أنه فارس مغوار ألقى على عاتقه مهمة إنقاذ العالم من الظلم والفساد. ودون كيشوت غير قادر على التفكير بطريقة مغايرة لما عهده في الروايات التي كان يقرؤها بنهم شديد، بل إنه حاول تطبيق ما بها من قيم ومثل عليا على العالم الذي يعيش فيه، وثرفانتيس حريص على ألا يجعل بطله إنسانًا مجنونًا لا يستطيع التفكير، بل جعله قادرًا على تقديم الحجج وإبراز البراهين، وإن كانت المقدمات التي يبدأ منها خاطئة دائمًا. وعلى سبيل المثال نجد «دون كيشوت» حائرًا كيف يعبّر عن خضوعه التام لرغبات حبيبته «دولثينيا» DULCINEA؟، وهي حبيبة لا وجود لها إلا في خياله - وكيف يكفّر عن أخطائه لكي ترضى عنه؟ لهذا فهو يحاول أن يجد مثالاً يحتذيه في الفرسان القدماء، ويوازن بين جنون «رولاند» وسوداوية «أماديس».

ثانيهما: التناقض بين شخصيتي دون كيشوت وسانشو. لاشك أن التناقض الحاد بين السيد وتابعه هو واحد من أهم سمات دون كيشوت وأبرزها، بل إنه ليصعب أن تتخيل دون كيشوت، من دون تابعه، فهما يمثلان إلى حد كبير وجهين أساسيين للطبيعة الإنسانية، فإذا كان دون كيشوت يمثل العقل فسانشو يمثل الجسد أو الغريزة، وإذا كان دون كيشوت يعبّر عن مثالية الإنسان غير الواقعية، فإن سانشو يمثل فطنة الإنسان الغريزية التي لا تأخذ في حسبانها الأفكار المجردة، بل تسعى إلى إشباع الحاجات الأساسية للإنسان. ويمكن القول إن التناقض بين الاثنين يولد نوعًا من السخرية لا ينصب على واحد منهما دون الآخر، فانشغال سانشو بمعدته طوال الوقت يثير الضحك عندما يوضح جنبًا إلى جنب مع عدم المبالاة غير الواقعية - بل غير الطبيعية - التي يظهرها دون كيشوت حيال الطعام، كما أن شجاعة دون كيشوت التي يمكن أن توصف بالتهور تتناقض مع جبن سانشو، وإن كان ثرفانتيس حريصًا على ألا يجعل من هذا الجبن دليلاً على خسة سانشو بقدر ما هو إشارة أو تنويه بالتصاق سانشو بالحياة، وحبّه الغريزي لها. فسانشو - على النقيض من دون كيشوت - لا يدخل المعركة إلا إذا كان لديه سبب لهذا، كأن يحصل على فائدة ما، أو يدافع عن مكسب مادي ما يمكن أن يحققه. فوظيفة سانشو الحقيقية في الرواية هي أنه يمثل اتجاهًا مناقضًا تمامًا لدون كيشوت، كما أن مناقشاته مع سيدة تعمل على توضيح عدم قدرة دون كيشوت على رؤية الواقع - أو بالأحرى رفضه لرؤية هذا الواقع - حتى ولو كان هذا الواقع واضحًا وضوح الشمس. والتناقض بين دون كيشوت وسانشو يولد نوعًا من السخرية الضاحكة والفكاهة الطيبة التي أصبحت مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالنموذج الذي قدمه ثرفانتيس في هذه العلاقة بين السيد والتابع.

ويظهر جليًا في روايات جونثالو تورينتي باييستير الاستخدام الشائع للمحاكاة الساخرة، حيث نجد أبعاد النقد الذاتي من خلال العلاقات بين النصوص الأدبية أيًا كان جنسها الأدبي، سواء أكان ملحميًا أم رواية مأساة تقليدية (كلاسيكية). ومع ذلك فإنه يمكن أن يستخدم أسلوب المحاكاة الساخرة وسيلةً لأسلوب الهجاء والنقد اللاذع، كما يظهر في رواياته الأولى «انقلاب جواد الوبي ليمون»، و«عودة يوليسيس»، و«إيفجينيا».

والمصادر الخارجية لهذه النصوص الأدبية تتمثل في الموقف السياسي لإسبانيا في مرحلة ما بعد الحرب الأهلية، حيث كان يتم تزييف الواقع من خلال نظرية القومية الوطنية المنتصرة التي كانت تتعايش مع أسلوب استغلال السلطة وتعسفها، وفرض القيود على الحريات والحقوق. ومن ثم استطاع باييستير أن يبتدع ما يسمى بالأسطورة السياسية من خلال أسلوب المحاكاة الساخرة بأن يبرز بعد المسافة بين الواقع والأقوال والبيانات الرسمية.

وفي الروايات التالية بدأ أسلوب المحاكاة الساخرة عند باييستير يكتسب بُعدًا (ميتافيزيقيًا) يتحدد في بناء وطابع الرواية، حيث اتّجه إلى استخدام الأسلوب السردي وسيلةً لطرح القضايا المتعلقة بالكون والوجود والحياة من خلال عملية الإبداع الأدبي المتمثل في علاقة اللغة بالأدب. ويظهر هذا الاتجاه في رواية «دون جوان»، ويصل إلى قمته في رواية «أسطورة/ هروب خوطا - بي» والروايات التي تلتها.

ونشير إلى أن هذه الروايات تمثل سلبيات المجتمع المعاصر وشروره كالمادية والسطحية والتعصب، كما تهاجم مبدأ الزعامة، والمانوية الأيديولوجية، والأساليب الملتوية التي وراء العمل السياسي، فضلاً عن انتقادها وهجائها لأسلوب التصريحات الجوفاء، والمذاهب الفريسة التي تتخذ الدين شعارًا، وإن كانت هذه الروايات تعالج بأسلوب جاد موضوعات الخطيئة والعقيدة والأخلاقيات وسماحة الأديان في العالم المعاصر. وفي ثلاثيته «اللذات والظلال»، وروايته «أوف سايد» بدأ باييستير استخدام الأساليب الفنية الواقعية لكي يقدم لنا عالمًا مصغرًا لمشكلات إسبانيا المعاصرة قبل الحرب الأهلية وبعدها، مع الإشارة إلى أسباب هذه الحرب الدامية ونتائجها على المستوى الجماعي والفردي، وتعالج هذه الأمور بأسلوب مباشر، وأحيانًا غير مباشر في كل رواياته حتى رواية «أسطورة/هروب خوطا بي» باستثناء «دون جوان»

استطاع باييستير إبداع ما يسمى بالأسطورة السياسية من خلال المحاكاة الساخرة لإبراز بعد المسافة بين الواقع والبيانات الرسمية

ويحاول باييستير أن يوضح من خلال بعض الشخصيات التي غالبًا ما تكون حرفتها كتابة أو رسم دقائق الحياة وتفاصيلها من حيث العلاقة بين الحياة والفن وإمكانات الفن كوسيلة من وسائل الاتصال بين طبقات المجتمع الذي يراه عالمًا فوضويًا ينظر الكاتب إليه بمرارة نفسية، ورغبة أكيدة في إصلاحه وفقًا للتقاليد المرعبة للمجتمع، فالإنسان الساخر «إنسان نشيط وعبقري»، ومعتز بحياته وأخ للأحياء أمثاله، وهذا الانتماء الواعي يكسبه قوة كبيرة، وقدرة خلاقة على منح الحياة كل اهتماماته وكل إمكاناته على النقد والمعارضة والمقاومة والكفاح. فهو إنسان ثوريّ التكوين في الواقع، وإن لم يستخدم أسلحة الحرب التقليدية المعروفة، إن سلاحه الموهبة والقدرة الغلابة على مواجهة النقائض والنقائص، وتعرف عناصر الانحراف فيها، وعلى صياغة الأساليب المناسبة لكشفها وإبرازها ووضعها في الضوء العام لتكون هدفًا لأكثر من عين، ونقطة التقاء كل اهتمام»(٦).

الهوامش

١- د. محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن «النماذج البشرية»، دار نهضة مصر، الطبعة الثالثة، القاهرة، ص ٢٩٣-٣١٦.

٢- د. صلاح فضل: علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٨٥م، ص٥٦.

٣- فرانسيسكو إندوراين: السخرية الدرامية في ثرفانتيس، مجلد تكريم خوسيه بليكوا، دار نشر جريدوس، مدريد، ص٦٩٥.
FRANCISCO YNDURAIN, LA IRONIA DRAMATICA EN CERVANTES, HOMENAJE A JOSE BLECUA, EDITORIAL GREDOS, MADRID, 1983, P. 695.

٤- أولريش فايسشتاين: التأثير والتقليد، ترجمة د. مصطفى ماهر عن الألمانية، مجلة فصول، المجلد الثالث، العدد الثالث، القاهرة، أبريل ١٩٨٣م، ص٢٠.

٥- انظر د. أميرة حسن نويرة: دون كيشوت وعنصر السخرية في الرواية الإنجليزية، مجلة عالم الفكر، العدد الثالث، الكويت، أكتوبر ١٩٨٢م، ص ٢٠٧-٢٤٢، وانظر: فرانسيسكو إيندوراين، المصدر المذكور، ص ٦٨٩-٧٠٨.

٦- د. حامد عبده الهوال: السخرية في أدب المازني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢م، ص ٣١-٣٢.

لايدن:

المدينة الجامعية في هولندا

قاسم السامرائي

تقع مدينة لايدن في دلتا نهر الراين في المنطقة الغربية الصناعية المكتظة بالسكان من هولندا، حيث تخترقها فروع نهر الراين الألماني لتصب في بحر الشمال، وهي لذلك تبعد بضعة أكيال عن البحر، وتقع جغرافيًا ما بين أمستردام (وهي العاصمة الرسمية لهولندا في الشمال)، ودن هاخ أو كما تسمى في العالم العربي: لاهاي (العاصمة الفعلية لهولندا)، وهو الاسم الذي يطلقه الفرنسيون عليها في الجنوب، وفي دن هاخ أو لاهاي توجد الدوائر الحكومية، والوزارات المختلفة، ومجلس النواب، ومحكمة العدل الدولية التي اتخذت لها بناية قصر السلام مستقرًا لها، وهو يعد من معالم المدينة التاريخية.



بناية مكتبة الجامعة الرئيسة القديمة



نسخة كبيرة من المصحف الشريف المحفوظة في مكتبة الجامعة

تبعد مدينة لايدن عن أمستردام بنحو ٣٠ كيلاً، وعن دن هاخ بـ ٢٠ كيلاً، وهي لذلك قريبة جدًا من سخبهول، وهو المطار الدولي الهولندي، إذ هو في منتصف المسافة التي بينها وبين أمستردام، وتحف بالمدينة قرى زراعية كثيرة، فما يكاد الزائر يترك المدينة حتى تستقبله المزارع الشاسعة

بأبقارها الفريزية المشهورة بإنتاج الحليب، وحيواناتها المختلفة ترعى حول القرى الصغيرة المنتشرة على ضفاف القنوات المائية الكثيرة جداً في هولندا، إذ تشكل هذه القنوات عصباً اقتصادياً مهمّاً في النقل.

لايدن وبرل

مدينة لايدن بسكانها البالغ عددهم ١١٦ ألف نسمة يمكن أن تُعد مدينة صغيرة بمقارنتها بأمستردام، ودن هاخ، وأترحت، أو روتردام، أو حتى خرونكن في شمال هولندا، إلا أنها تمتاز من هذه المدن بوجود أقدم جامعة هولندية، ومؤسسة برل للنشر فيها. وبرل أشهر مؤسسة نشر وتوزيع أوربية قامت على نشر النصوص الشرقية، والدراسات الاستشراقية عن الشرق وأهله ودياناته، وبخاصة عن العالم الإسلامي والإسلام، فقد تعاون المستشرقون الهولنديون في الجامعة



جريدة أخبار الجامعة الأسبوعية



بخاصة والمستشرقون الأوربيون بعامة مع مؤسسة برل في نشر أعمالهم، فصدر عنها الموسوعة الإسلامية (ولم تزل تصدر عنها الطبعة الجديدة باللغة الإنجليزية والفرنسية بما فيها من تشويه وأخطاء وأوهام)، والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف الذي عمل فيه الطلبة أكثر من الأساتذة، وتاريخ الرسل والملوك للطبري. والمعاجم الجغرافية بإشراف دي خويه، وكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير بتحقيق تورنبرج وغيرها، فلمعت أسماء أربينوس، وفنسك، ودوزي، وسخولتنس، ويان بول، وسنوك هورخرونيه المعروف في الجزيرة العربية بكتابه وأطلسه حول مكة المشرفة، وأسطورة اعتناقه الإسلام المزورة، إضافة إلى وجود جملة من المتاحف منها متحف العاديات القديمة حيث يوجد فيه معبد فرعوني صغير أهداه له الرئيس المصري السابق أنور السادات، ومتحف التراث الشعبي «للعالم الثالث»، وهو الوحيد في هولندا، ومتحف الحيوانات والأحياء، والمتحف العسكري وغيرها.

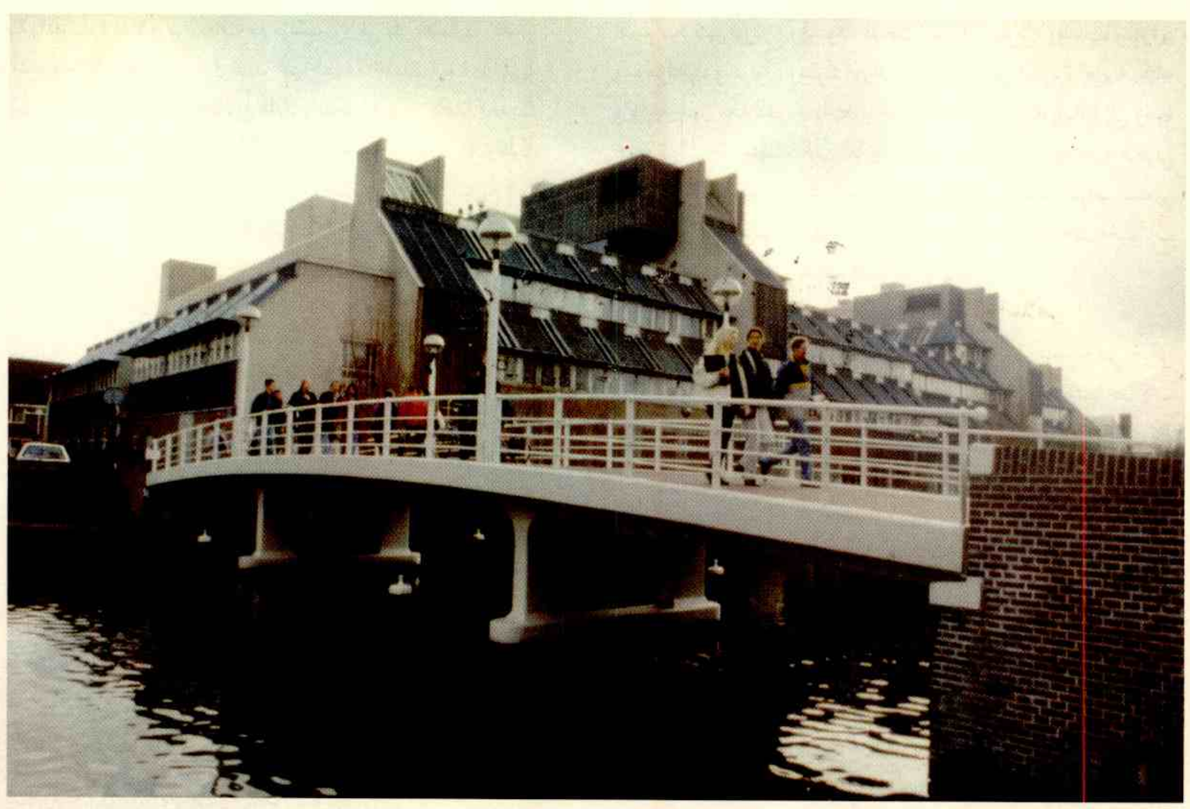
تحالف هولندي إسلامي

يؤكد مؤرخو مدينة لايدن أنها بدأت كمدينة في حوالي القرن الحادي عشر (الخامس للهجرة) إلا أنه سبقتها حركات سكانية تعود إلى ما قبل هذا القرن بقرنين، إلا أن الصراع الذي دار في سنة ١٢٠٤م بين الأميرة آده وعمها الأمير وليم الأول، والذي انتهى بانتصار الأخير جعل منها مدينة ذات شأن اقتصادي، فقد أصبحت مركزًا مهمًا لصناعات النسيج الصوفية والقطنية، فأمر بإحاطتها بسور يحميها، إلا أن الأمير فلورس الخامس استولى عليها في سنة ١٢٦٦م، واستمر الأمراء يتداولون السيطرة عليها، واستمرت صناعة النسيج مزدهرة فيها إلى وقت قريب على الرغم من منافسة الصناعات الإنجليزية لها منافسة شديدة، حتى إنها، ومنذ القرن السابع عشر، كانت تستورد وبر الجمال من شمال إفريقية لاستعماله في هذه الصناعة (كما ترى في الإعلان المرفق)، فقد أدى عداء الولايات المتحدة الهولندية البروتستانتيّة، والمغرب المسلم لإسبانيا الكاثوليكية إلى تحسين العلاقة السياسية والتجارية بينهما، إلى حد أن الحاكم العسكري للولايات المتحدة الهولندية الأمير ماورتس حاول في سنة ١٦١٠م عقد اتفاق عسكري مع السلطان العثماني، ومولاي زيدان سلطان المغرب على غزو إسبانيا، واسترجاع الأندلس (كما جاء في كتاب ناصر الدين على القوم الكافرين لأحمد بن قاسم الحجري الأندلسي)، إلا أن هذه المحاولة لم تتحقق لانشغال السلطانين بحروبهما الداخلية، فقد كانت الأراضي المنخفضة مقاطعة يحكمها الملك الإسباني فيليب الثاني الكاثوليكي الذي رأى في تحول هولندا إلى البروتستانتية بعد حركة إصلاح مارتن لوثر تهديدًا لحكمه في بلجيكا وهولندا،

بناية متحف العاديات ويحتوي المتحف على آثار من الشرق كثيرة بما فيها معبد فرعوني أهداه أنور السادات للمتحف



إعلان عن نسيج وبر الجمال الذي كان يصنع في لايدن ويستورد من شمال إفريقية خلال القرن الماضي



بناية قاعات المحاضرات ومطعم الطلبة



بناية مكتبة الجامعة الحديثة



فبدأت ما يسمى في التاريخ الهولندي بحرب الثمانين سنة (١٥٦٨ - ١٦٤٨) وكان لمدينة لايدن منها نصيب، فقد قامت فيها ثورة عارمة ضد الكاثوليك وكنائسهم في ما عُرف بحرب الأيقونات، فحاصرتها الجيوش الإسبانية بقيادة فرانسسكو فالذر FRANCISCUS VALDEZ نيابة عن DON FREDERIQUE AL-VAREZ DE TOLEDO دون فردريكو الفارس الطليطلي من أكتوبر/تشرين الأول سنة ١٥٧٣م إلى أكتوبر/تشرين الأول سنة ١٥٧٤م حتى أوشكت المدينة على التسليم من الجوع وانتشار مرض الطاعون، لولا وصول نجدة قوية من الثوار DE GEUZEN ضد الحكم الإسباني استطاعت أن تدحر الجيش المحاصر، وتفك الحصار عن المدينة في اليوم الثالث من أكتوبر، فأصبح هذا اليوم عطلة رسمية للمدينة تحتفل فيه احتفالاً شعبيًا حافلاً كل سنة منذ ذلك التاريخ، وانسحب الجيش الإسباني إلى الجنوب.

والغريب أن هؤلاء الثوار كانوا يحملون أعلامًا في أعلاها هلال من الفضة، ومكتوب عليها LIEVER TURCX DAN PAUS، ومعناه: «حكم الأتراك (المسلمين) ولا حكم البابا»، وصارت لايدن رمزًا للمقاومة والصمود.

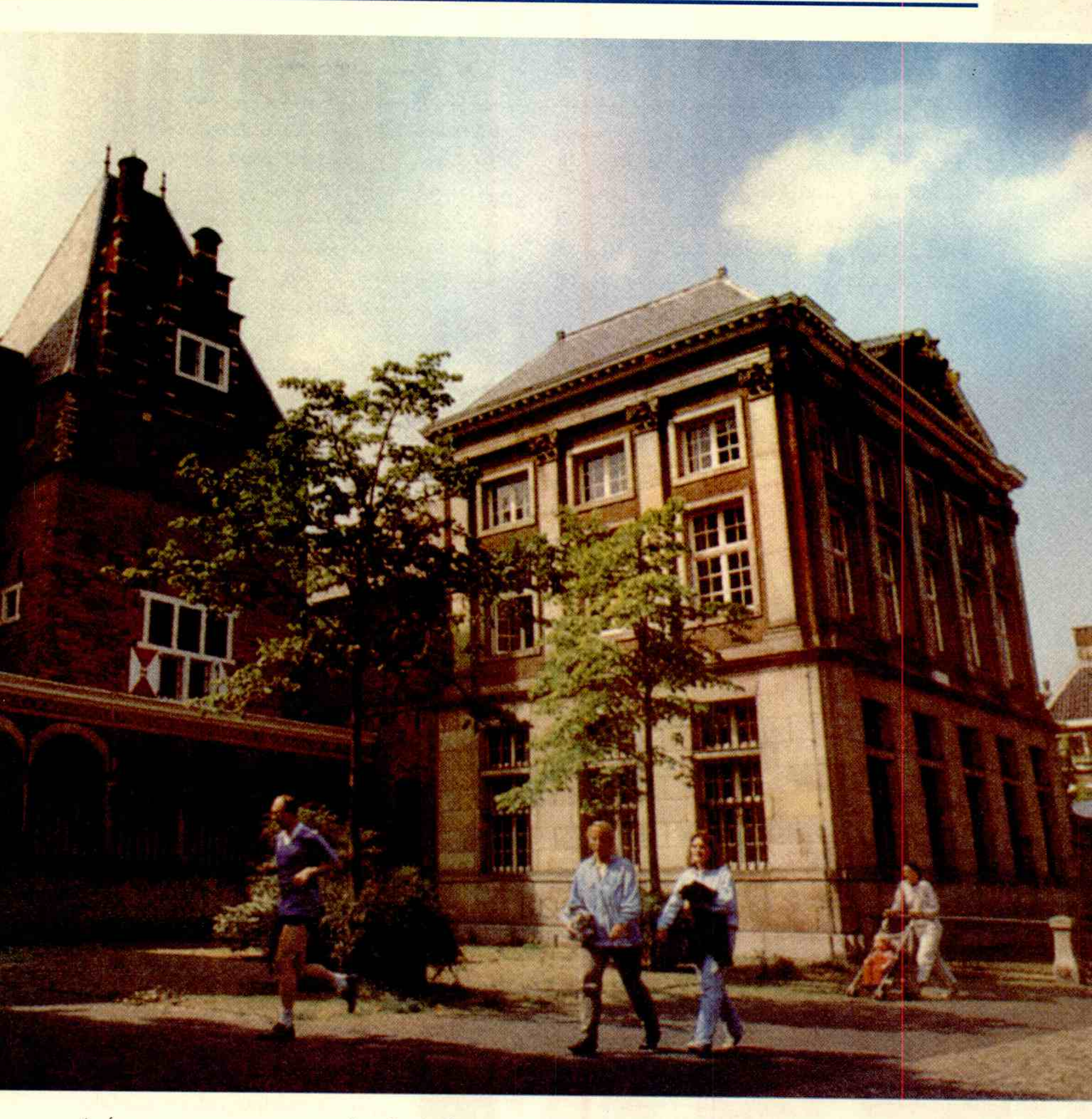
والطريف في الأمر أن الثوار الذين ألحقوا الهزيمة بالجيش الإسباني المحاصر جاؤوا للمحاصرين الجياع، ومعهم سمك الرنكة والخبز الأبيض، إلا أنهم وجدوا في خيام الجيش الإسباني المنسحب قدورًا تحتوي على طعام غريب لم يألفوه، يتكون من البصل والجزر والبطاطا المسحوقة بعضها مع بعض، فأطلقوا عليه اسم «هوتسبوت HUTSPOT»، فصارت عادة أهل المدينة ومطاعمها منذ ذلك الحين أن يطبخوا هذا اللون من الطعام، ويأكلوه في الثالث من أكتوبر/تشرين الأول في الشوارع، وعلى ضفاف القنوات التي كانت خطوط دفاع تحيط بالمدينة، ولم تزل هذه الخطوط الدفاعية المائية موجودة حتى اليوم، بل إن إدارة البلدية دأبت على توزيع هذا الطعام مع الخبز الأبيض في ذلك اليوم على سكان لايدن الأصليين المولودين فيها فقط؛ لذلك ترى صفوف اللايدنيين تصطف في الصباح الباكر أمام أبواب دار البلدية للاستمتاع بهذا الصحن «غير اللذيذ» جريًا على العادة، وحبًا لمدينتهم الصامدة، وتذكرًا لما وقع على مدينتهم من الظلم الطائفي الإسباني.

أعلام من لايدن

وقد انتعشت مدينة لايدن سكانيًا واقتصاديًا نتيجة هروب الكثير من البروتستانت من الجنوب الذي كانت تحتله إسبانيا إلى الشمال البروتستاني المتحرر، فانتعشت مرة أخرى صناعة النسيج والأجبان، ورافقها انتعاش ثقافي وفكري واقتصادي وفني؛ إذ ظهر فيها أشهر الفنانين والرسامين أمثال: رامبرانت، ويان ستين، ويان فان خوين، إلا أن هذا الانتعاش بدأ يتراجع منذ القرن الثامن عشر، ومستوى أهل لايدن الثقافي والاقتصادي اليوم هو أقل بكثير من بقية المدن الكبرى، على الرغم من وجود هذه الجامعة العريقة بينهم؛ لأن الغالبية العظمى من الطلبة يأتون إليها من المدن الهولندية المختلفة بعد تعديل نظام القبول الذي شجع الطلبة الفقراء؛ وذلك بمنحهم المنح المالية للدراسة بعد أن كان قاصرًا على الطبقة الغنية. وتضم الجامعة اليوم أعدادًا كبيرة من الطلبة الأجانب، ومن أبناء المهاجرين المغاربة والأتراك الذين جاء آباؤهم للعمل في هولندا في الستينيات من هذا القرن.

ويفرض نظام الدراسة اللغة الهولندية في التدريس في جميع الكليات، إلا أن الطلبة الأندونيسيين يتلقون تدريبهم باللغة الإنجليزية، وكذلك طلبة الدراسات العليا الهولنديين أو الأجانب يمكنهم أن يكتبوا رسائلهم الجامعية بالهولندية، أو الإنجليزية، أو الفرنسية، أو الألمانية، وهناك محاولة جادة لإدخال العربية أيضًا،

بناية دار البلدية في وسط المدينة



ولكن الوقت لم يحن بعد لنجاح هذه المحاولة؛ لأننا نفتقر إلى الدعم المالي الذي تحظى به الجامعات الإنجليزية والأمريكية من الممولين العرب، ويا حبذا لو استثمر أحدهم دنياه لآخرته.

الإعفاء من الضرائب أو الجامعة

لقد أدى صمود المدينة واختيارها الجانب البروتستانتي في الحرب أنْ عرض عليها الأمير وليم الآورنجي أن يختاروا بين إعفاء المدينة من الضرائب إلى الأبد، أو إنشاء جامعة في مدينتهم، فاختار ممثلو المدينة الجامعة على إعفائهم من الضرائب، فولدت جامعة لايدن في الثامن من شهر فبراير/شباط سنة ١٥٧٥م، وفتحت أبوابها للطلاب في السنة نفسها حيث تمَّ إنشاء أول كرسي للحقوق، وآخر للاهوت. وما تزال كلية الحقوق أهم كلية فيها حتى اليوم. وفي سنة ١٥٨٦ قرر

مجلس الجامعة والمجلس البلدي إنشاء أول كرسي للدراسات العربية، فبعد أن احتل الجيش الإسباني مدينة انتفرب في بلجيكا الحالية سنة ١٥٨٥م انتقل بلانتين صاحب إحدى المطابع التي طبعت الإنجيل المتعدد اللغات، وكانت اللغة العربية إحدى هذه اللغات، مع صهره رافيلينخوس إلى لايدن حيث أسس مطبعته، فدعته الجامعة لتدريس العربية في الجامعة سنة ١٥٨٧م، فقام بتأليف قاموسه العربي إلا أنه توفي قبل نشره، فنشره أولاده بعده، فدعت الجامعة المستشرق الفرنسي سكاليخر الذي تخرج فيه أول مستشرق هولندي هو توماس أربينوس، وقد ذاعت شهرة الجامعة على مر السنين، فتوافد عليها الطلاب من أوربا خاصة، ومن المستعمرات الهولندية للدراسة فيها.

تتكون الجامعة من ثماني كليات، تحتوي كلٌّ منها على معاهد وأقسام متعددة، أهمها كلية الحقوق المشهورة بدراسة القانون الدولي، وكلية الآداب التي تحتوي على قسم الدراسات العربية والشرق الأوسط، وكلية اللاهوت حيث يقع فيها معهد الدراسات الإسلامية ومقارنة الأديان (الإسلام في أوربا)، وكلية العلوم الفيزيائية والأحياء (البايولوجيا)، وكلية الطب، وكلية الفلسفة، وكلية الآثار.

ومنذ بضع سنين أنشأت الجامعة بالتعاون مع وزارة الخارجية الهولندية والحكومة الأندونيسية معهداً لتدريب الطلبة الأندونيسيين المتخرجين في الكليات الإسلامية في أندونيسيا؛ وذلك بحكم علاقة هولندا الاستعمارية السابقة بأندونيسيا.

وقد تمَّ أخيراً إنشاء «المعهد الدولي لدراسة الإسلام في العالم الحديث» بمبادرة سياسية ومالية من وزارة الخارجية الهولندية بالتعاون مع جامعة أمستردام، ولايدن، وأترخت، وهو معهد رسمت عليه علامات استفهام كثيرة، ونوقشت أهدافه في الصحف، وفي مجلس النواب.

ن، وكانت سجنًا مرعبًا، ولم تزل معالم السجن وأبواب الزنزانات قائمة

ويبلغ عدد الطلبة نحو ١٤ ألف طالب وطالبة، منهم: ٥٨ بالمئة طالبات، والبقية من الطلاب، وعدد العاملين فيها نحو ٢٥٠٠ ما بين أستاذ وموظف، وتمنح الجامعة الدرجات المختلفة من الليسانس إلى الدبلوما إلى الماجستير إلى الدكتوراه في العلوم المختلفة، ويختلف نظام التعليم في الجامعة اختلافا جوهريا عن النظام الإنجليزي أو الفرنسي.

مكتبة زاخرة

أما مكتبة الجامعة فتحتوي على ما يزيد على ثلاثة ملايين كتاب ودورية، ومجموعات وثائقية، ومخطوطات غربية (لاتينية ويونانية وغيرها)، ومشرقية (عربية وتركية وفارسية وعبرية وسريانية وقبطية وحبشية وملاوية وأندونيسية وغيرها)، وكتب نادرة، وخرائط فريدة وما إلى ذلك.

أما مجموعتها العربية التي تبلغ نحو أربعة آلاف مخطوطة عربية فإنها تحتوي على كثير من النوادر المهمة التي اعتمد عليها المستشرقون في بحوثهم المختلفة، بل إن كثيراً من نصوصها نشرها المستشرقون أنفسهم، ولها فهرسة باللاتينية، وقائمة بسيطة باللغة الإنجليزية قام بإعدادها فورهوفه، وهي متاحة للبيع من خلال المكتبة أو من برل، وهناك فهرس يدوي آخر تمَّ فيه تسجيل ما ورد للمكتبة بعد قائمة فور هوفه لم يطبع بعد، ولا يعرفه أو يطلع عليه إلا العارفون به، وهو يحتوي على أكثر من ألف وثلاث مئة مخطوطة عربية.

وأقدم نص عربي فيها هو كتاب غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٣هـ، وهو مؤرخ في سنة ٢٥٢هـ، وفيها نسخة نفيسة من مشكل



غرفة العرق حيث كان الطلبة ينتظرون نتائج اختباراتهم وحوائطها ممتلئة بتوقيعات الطلبة والزائرين ومن ضمنها توقيع رئيس الوزراء البريطاني تشرشل، والملكة بياتركس، وولي عهدها، وترى إحدى الطالبات تنقش توقيعها



من مخطوطة هندية محفوظة في مكتبة الجامعة تعود إلى القرن الثاني عشر للهجرة

القرآن لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ، وهي مؤرخة في سنة ٤٠٤هـ، وكتاب لزوم ما لا يلزم لأبي العلاء المعري، وهو نسخة الجواليقي، وعليها سماع مؤرخ في سنة ٤٩٦هـ، وحماسة أبي تمام بشرح التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢هـ، وهي مؤرخة في سنة ٥٦٠ هـ، وكتاب المقفى للمقريزي بخطه في أربعة أجزاء، وفوائد الحديث لتمام بن محمد بن جنيد الرازي المتوفى سنة ٤١٤هـ، وهي مؤرخة في سنة ٥٩٥هـ، وفيها إجازات كثيرة بخطوط علماء الحديث المشهورين، وأجزاء من تاريخ دمشق بخط القاسم بن عساكر، ولد المؤلف، وفيها سماعات كثيرة، وتحفة الأشراف في معرفة الأطراف في تسعة مجلدات للمزي المتوفى سنة ٧٤٢هـ، وهي مؤرخة في سنة ٧٣٠ ـ ٧٣٣هـ، وطوق الحمامة في الألفة لابن حزم الأندلسي النسخة الفريدة في العالم، وأمثال ذلك كثيرة في فهرس المكتبة المطبوع وفهرسها الذي لم ينشر بعد. وتحتوي المكتبة على مجموعة مهمة جداً من المخطوطات الأندونيسية الملاوية المكتوبة بالحروف العربية، وقد أعدَّ لها صديقي الأستاذ الدكتور توكو إسكندر الآشي الأصل، وأستاذ الأدب الملاوي في جامعة بروني فهرساً وصفياً باللغة الإنجليزية، وسوف يصدر في لايدن قريباً في أكثر من ألف صفحة.

إن غالبية النوادر العربية جاءت إلى المكتبة من فارنر الذي درس اللغات الشرقية في الجامعة على يد خوليوس تلميذ أربينوس وخليفته على كرسي اللغة العربية. وعُين ليفينوس فارنر في سنة ١٦٥٤م ممثلاً لهولندا لدى الباب العالي في إستانبول، فقام بشراء المخطوطات وتجميعها، وأوصى بها بعد وفاته في سنة ١٦٦٥م للجامعة التي درس فيها، والطريف أننا نجد ضمن مجموعته بعض المخطوطات التي كانت في مكتبة حاجي خليفة صاحب كشف الظنون المشهور، وأضيف إليها قسم من مجموعة خوليوس التي اشترى بعضها من حلب والمغرب لحساب المكتبة، واشترت جامعة بودليان بأكسفورد القسم الآخر منها، أما مجموعة أربينوس المخطوطة فقد باعتها أرملته إلى جامعة كمبردج الإنجليزية.

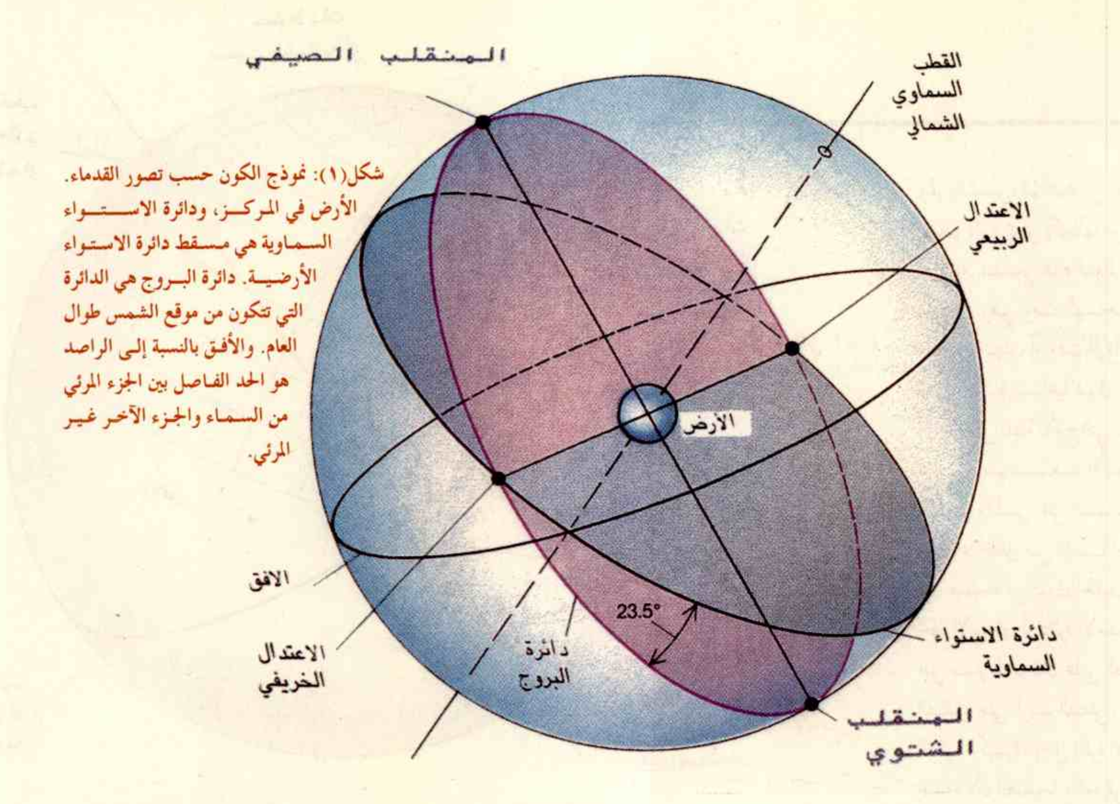
لعل مجموعة أمين الحلواني المدني هي أهم مجموعة مخطوطية دخلت مكتبة جامعة لايدن بعد مجموعة فارنر، فقد عهدت مؤسسة برل للنشر إلى المستشرق السويدي كارلو لاندبرج بتنظيم فهرس لها اعتماداً على فهرس المدني نفسه، فاشترت المكتبة ٦٥٠ مخطوطة منها، وذهب باقيها إلى جامعة برنستون بأمريكا. وتحتوي هذه المجموعة على جملة من نفائس المخطوطات الفريدة بخطوط مؤلفيها، وهنا يجب التنبيه على خطأ شاع عند العاملين في التحقيق أو الفهرسة، وهو أن بروكلمان حين يذكر مخطوطة موجودة في لايدن أو في جامعة برنستون يشير إلى فهرس لاندبرج بلفظ «برل»، فيظن هؤلاء أن برل هي مكتبة الجامعة، وليس الأمر كذلك، فإن بعض مجموعة المدني في لايدن، وبعضها الآخر في برنستون.

ومؤسسة برل هي دار تجارية كانت تشتري وتبيع المخطوطات، والكتب القديمة المستعملة، وتنشر الكتب الجديدة، ولم تزل تفعل هذا، إلا أن القسم الذي كان يتعامل بالكتب والمخطوطات الشرقية انفصل منذ أكثر من سبع سنين، وأصبح مستقلاً تماماً عن برل، واتخذ مالكه الجديد رايك سمتسكامب RIJK SMITS-KAMP اسماً آخر لمؤسسته هو: HET OOSTERS ANTIQUARIUM، وهي تصدر باستمرار الفهارس الدورية لما في حوزتها من الكتب والمخطوطات المعروضة للبيع.

إضافة إلى هذه المجاميع من المخطوطات، فقد دخلت مجموعة سنوك هورخرونيه في سنة ١٩٣٦م إلى المكتبة، وهي تضم مئات من المخطوطات العربية والأندونيسية الملاوية وغير الملاوية، التي مصدر معظمها أندونيسيا، وبخاصة من مكتبات السلاطين والعلماء الآشيين التي صادرها الجيش الهولندي في أثناء ثورة إقليم آشي على الحكم الهولندي، أو التي وجدت مع جثث القتلى الأندونيسيين.

وبعدها اقتنت المكتبة مجاميع قليلة من تركات بعض المستشرقين مثل: الفرنسي رينيه باسيه، وأغلبها مخطوطات جمعها من المغرب، ومجموعة الألماني فرانس تشنر، وما اشترته المكتبة من المزادات العلنية الأوربية، ومن بعض الأفراد.

أما الكتب المطبوعة فإن مكتبة الجامعة غنية بالمطبوعات العربية الأولى وما طبعه المستشرقون، إلا أنها لا تمتلك الكثير مما تخرجه المطابع الآن من السيل الهائل من التحقيقات التي تصدر في مصر وبيروت ودمشق وبغداد والرياض وشمال إفريقية عموماً؛ وذلك لأسباب لا مجال لتبيانها في هذا الاستطلاع المختصر.



شكل(١): نموذج الكون حسب تصور القدماء. الأرض في المركز، ودائرة الاستواء السماوية هي مسقط دائرة الاستواء الأرضية. دائرة البروج هي الدائرة التي تتكون من موقع الشمس طوال العام. والأفق بالنسبة إلى الراصد هو الحد الفاصل بين الجزء المرئي من السماء والجزء الآخر غير المرئي.

الأَسْطُرْلاب وما بعده

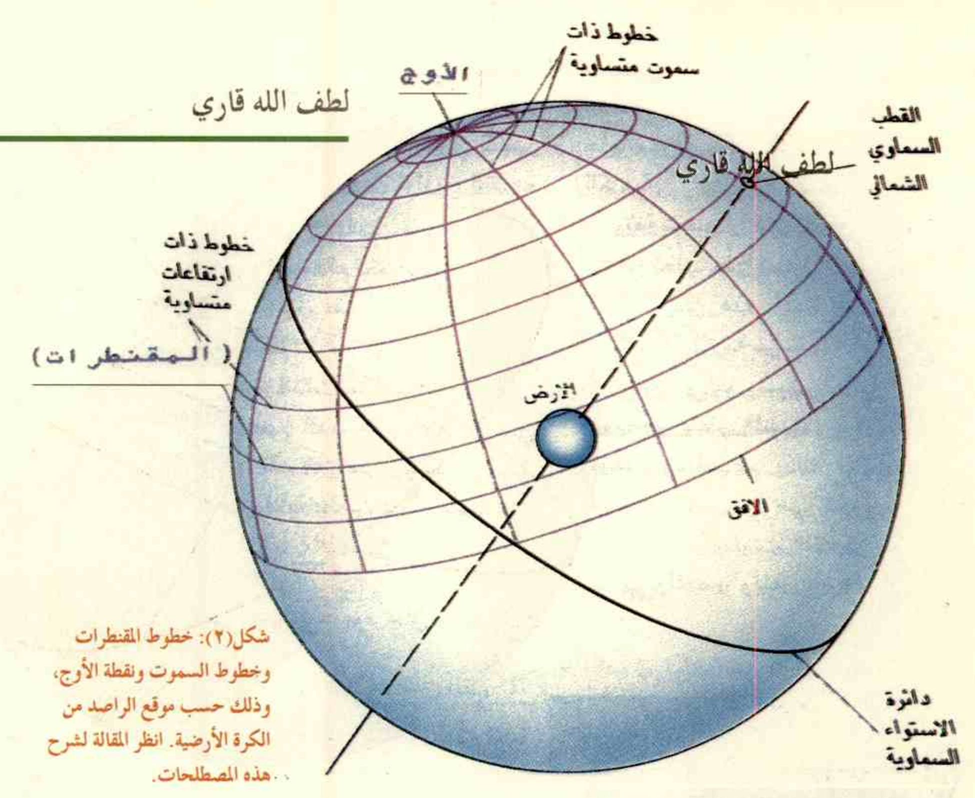
لطف الله قاري

عرف العلماء المسلمون آلة الأسطرلاب* من الحضارة الهلينية، أي الحضارة التي اعتمدت اللغة اليونانية، وسادت في منطقة الشرق الأوسط في الفترة من ٣٢٣ ق.م إلى نحو ٣٠٠م. ولابد لمن أراد استيعاب وصف الآلات الفلكية التي اخترعها العلماء المسلمون أن يلم بوصف هذه الآلة التي نتحدث عنها في هذه المقالة. فالحديث عن الأسطرلاب مقدمة لابد منها لفهم الآلات التي نعرف مخترعيها المسلمين.

يمكن وصف الأسطرلاب بأنه جهاز يتكون من صفائح وشبكة لرسم الكون. فكيف تصور القدماء الكون الذي نعيش فيه؟ الأشكال من (١-٣) توضح تصورهم لهذا الكون. ففي الشكل(١) نرى الكرة السماوية التي تدور حول الأرض، فنجد أن القطبين السماويين، ودائرة الاستواء السماوية هي مساقط قطبي الأرض ودائرتها الاستوائية على السماء. وعند دوران الكرة الكونية هذه حول محورها من الشرق إلى الغرب، فإن الشمس والنجوم تتحرك حول القطبين وفق دوائر متحدة المركز. وتتحرك الشمس في مدارات تختلف بحسب أوقات السنة، فتشكل مداراتها خلال العام طريقًا دائريًا يسمى دائرة البروج. وتكون دائرة الاستواء هي مدار الشمس يومي الاعتدال الخريفي، والاعتدال الربيعي. أما يوم المنقلب الصيفي فتدور فوق مستوى دائرة الاستواء بمقدار ٢٣٫٥ درجة، وهذا مدار السرطان. أما يوم المنقلب الشتوي فتدور جنوب دائرة الاستواء بالمقدار نفسه، وهذا مدار الجدي.

والإنسان الراصد يرى من الكون الجزء المحيط به. وهو نصف الكرة السماوية الواقع فوق الأفق الذي حوله.

وفي الشكل (٢) نرى دائرة الأفق وقد تصور الفلكيون القدامى دوائر موازية لها، وهي دوائر ذات ارتفاعات متساوية تصل إلى أعلى نقطة في الكون فوق رأس الراصد. وهذه النقطة تسمى «الأوج» ZENITH، أو سمت رأس الراصد (لاحظ أن كلمة ZENITH محرفة من كلمة سمت العربية). أما الدوائر الموازية للأفق فتسمى «المقنطرات» (بالإنجليزية ALMUCANTARS أي الكلمة العربية نفسها). وتعامد المقنطرات قسيّ السموت المتساوية (نستعمل هنا كلمة «قسي»



شكل(٢): خطوط المقنطرات وخطوط السموت ونقطة الأوج، وذلك حسب موقع الراصد من الكرة الأرضية. انظر المقالة لشرح هذه المصطلحات.

وتمر بالشمس، ثم تمتد إلى القطب الجنوبي، لتكوّن نصف دائرة يمكن إكمالها من الجهة الخلفية للكرة الكونية. فنسمي هذه الدوائر خطوط الساعات أو دوائرها، وفي وقت الهاجرة MERIDIAN (أي منتصف النهار، أو وقت الزوال كما يسمى حاليا) تكون الدائرة الساعية فوق رأس الراصد مباشرة، أي تمر على نقطة الأوج التي ذكرناها من قبل.

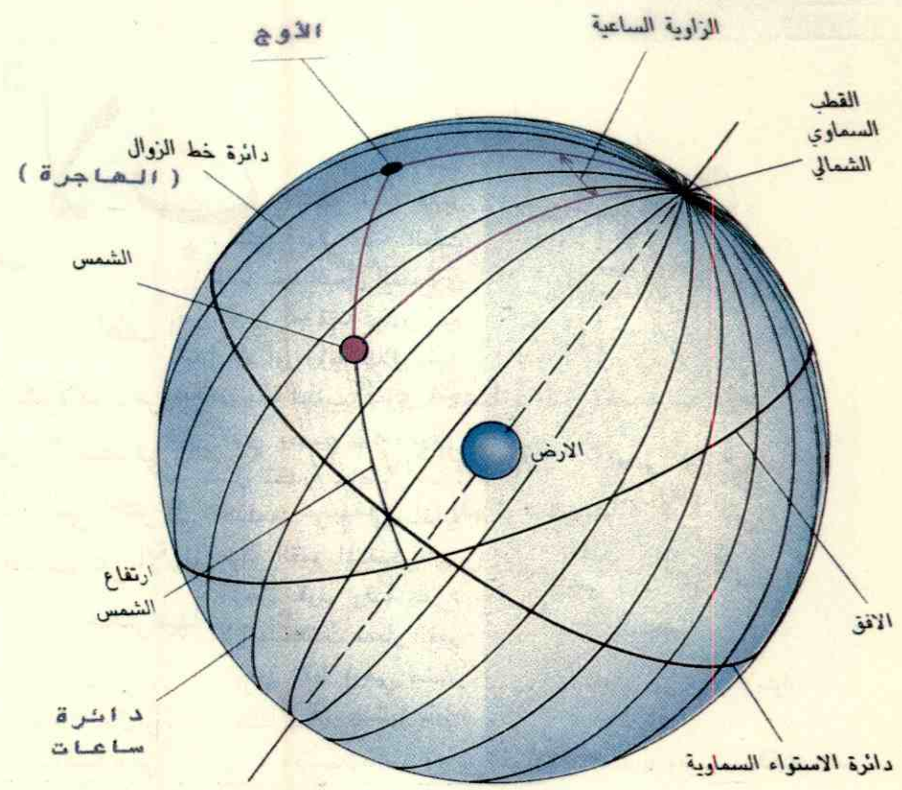
ورسم صانعو الأسطرلاب هذه الخطوط والدوائر والقسيّ على الصفائح الدائرية. فتصور أن شعاعا انطلق من القطب الجنوبي لمجسم الكون، وأن صفيحة من الورق الخفيف وضعت في مستوى خط الاستواء، أو دائرة الاستواء الكونية، فنجد أن ظل مدار السرطان على الصفيحة هو الدائرة الصغيرة على الرسم السفلي، وظل مدار الجدي هو الدائرة الكبيرة، وظل دائرة الاستواء هو بحجمها نفسه؛ لأن الصفيحة واقعة في مستوى تلك الدائرة نفسه كما قلنا.

وبالطريقة نفسها نرسم قسيّ السموات المتساوية أو خطوطها، وكذلك خطوط الساعات. وعندها تتكون صفيحة الأسطرلاب.

ومن أجزاء الأسطرلاب شبكة تسمى العنكبوت، تتكون من دائرتين: دائرة البروج، ودائرة مدار الجدي. ويتصل بالدائرتين أسهم مقوسة تسمى الشظايا (شظية الكوكب أو المشير إلى الكوكب POINTER)، وكل واحد من هذه الشظايا مسقط نجم أو كوكب من الأجرام الثابتة.

والشكل(٤) يبين الأسطرلاب بعد أن تم تجميع أجزائه.

وقد تعددت استعمالات الأسطرلاب فبلغت ١٧٦٠ استعمالا حسب كتاب لعبدالرحمن بن عمر الصوفي (ت ٣٧٦هـ/٩٨٦م). وقد ضاع نصف هذا الكتاب، فلم يصل إلينا إلا نصفه المكون من ٨٠٠ باب. منه نسخة واحدة بباريس. فقد استعمل هذا الجهاز في الحسابات الفلكية المتعددة، وفي تعيين الأوقات، وتعيين موضع القبلة، وفي الأعمال الهندسية المختلفة، كالمساحة وغيرها. وكتب التراث العربي والإسلامي كثيرة في هذا الموضوع.



شكل(٣) خطوط الساعات التي تحدد موقع الشمس خلال دورانها اليومي. (نقلاً عن المصدر السابق ذكره في الشكل(١))

بدلاً من «أقواس»؛ لأن هذا هو المصطلح الذي استعمله فلكيو الإسلام. ويسمى السمت باللغات الغربية AZIMUTH، وهو تحريف كلمة «السُّمُوت».

وفي الشكل (٣) نجد وصفا مصورا لرحلة الشمس من حين شروقها شرق الأفق. وفي خلال حركتها النهارية يمكن تخيل دائرة تبدأ من القطب الشمالي

وقد اشتهر بين بعض الباحثين العرب أن الأسطرلاب عربي إسلامي، وليس من نتاج حضارات ما قبل الإسلام؛ وذلك لأن أوربا لم تعرف هذه الآلة إلا عن طريق العرب عندما ترجم عندهم كتاب ما شاء الله اليهودي (ت نحو ٢٠٠هـ/٨١٥م). وأقدم الأسطرلابات الموجودة حاليا هما إسطرلابان عربيان، من



صنع شخص اسمه محمد بن عبدالله الملقب بنسطولس، صنع أحدهما سنة ٢٨٠هـ، والآخر سنة ٣١٥هـ. فالأول محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، والآخر في متحف الكويت الوطني، وقد حفلت المصادر العربية بذكر التطورات التي أدخلها علماء السلف في هذا المجال. وكثير من المصطلحات على الآلة بقيت عربية حتى يومنا هذا، مثل كلمة «العضادة» ALIDADE، ومثل كلمات ZE-NITHو AZIMUTH و ALMUCANTARS السابق ذكرها.

إلا أن المرجح أن الأسطرلاب عرف عند أهل الحضارة الهلينية، بدليل وجود بعض القطع الأثرية التي تتكون من صفائح مثل الصفيحة الأسطرلابية، وبدليل وجود مؤلفات باليونانية والسريانية لمؤلفين معروفين من قبل الإسلام، ذكر فيها وصف الأسطرلاب المسطح، وكيفية عمل صفيحته بكل وضوح، وذكر ابن النديم (ت:٤٣٨هـ) أيضًا مؤلف «الفهرست» سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م عدة كتب معربة حول الأسطرلاب لعلماء ما قبل الإسلام. ولكن الثابت أيضًا أن المسلمين أدخلوا عليه تطورات كبيرة.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل عرف العلماء المسلمون آلة الأسطرلاب فقط ولم يعرفوا غيرها، كما توحي بذلك بعض معارض تاريخ العلوم والمتاحف في بلداننا العربية؟ أم طوروا عدداً من الآلات الفلكية التي يدل الاطلاع على وصفها، وفكرة تصميمها وعملها على عبقرية سبقت زمانها بقرون؟

الأسطرلابات الشاملة

الأسطرلاب العادي يحتاج إلى تبديل صفيحته في كل خط عرض LAT-ITUDE؛ ذلك لأن الصفيحة تم رسمها بحسب موقع الراصد من الكرة الأرضية، وهذا يجعل استعماله محصوراً بعدد الصفائح المصنوعة له.

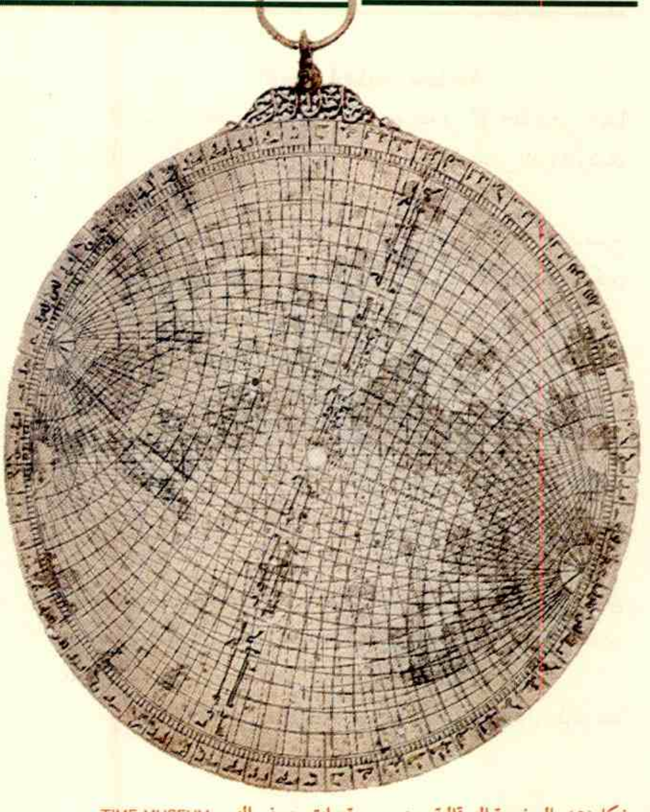
وفي الوقت نفسه يجب أن يكون الأسطرلاب كبيرًا ليعطي الدقة والوضوح للراصد. فإذا تعددت صفائحه صار ثقيلاً وغالي الثمن، وهذا ما جعل الفلكيين المسلمين يفكرون في آلة تستعمل في كل بلدان العالم دون تغيير الصفائح.

بدأت فكرة الأسطرلاب الشامل حين اخترع حبش الحاسب (ت نحو ٢٥٠هـ/٨٦٤م) صفيحة سماها «الصفيحة الآفاقية». وفي القرن الخامس الهجري (١١م) تمكن العالم الأندلسي علي بن خلف الشكاز من ابتكار صفيحته التي عرفت باسم «الشكازية». وفكرتها تتلخص في أن الأسطرلابات العادية ترسم صفيحتها بأن تتخيل أن ضوءاً ينبعث من القطب الجنوبي لمجسم الكون، ويسقط على مستوى خط الاستواء أو دائرة الاستواء. أما الشكازية فالضوء عند رسمها ينطلق من نقطة الاعتدال الربيعي VERNAL EQUINOX، ويسقط على المستوى الذي يمر على نقطتي المنقلَب الصيفي والمنقلَب الشتوي، وهذا المستوى معامد لمستوى خط الاستواء.

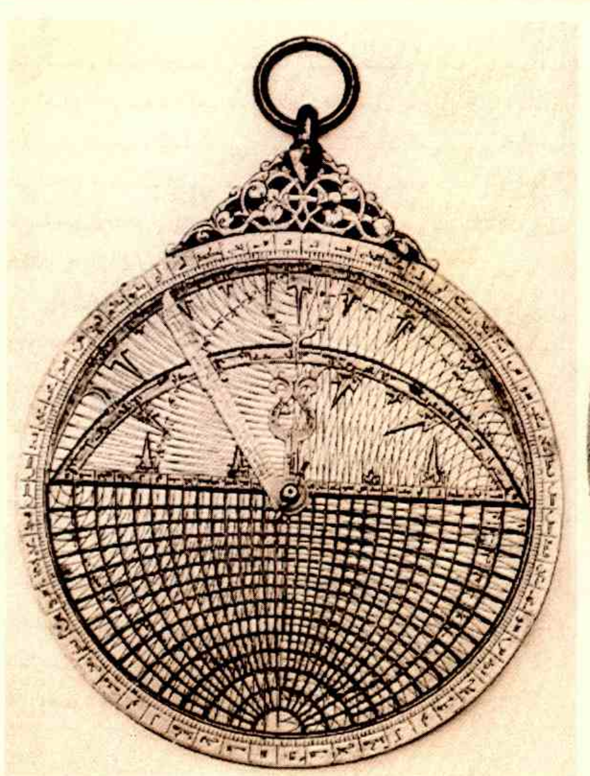
والصفيحة الناتجة من هذا الإسقاط تعطي مقطعًا عموديًا للكون، طرفاه هما

خط الاستواء
العنكبوت
(المقنطرات)
خطوط ذات ارتفاعات متساوية
الأوج
دائرة البروج
خطوط ذات سموت متساوية
هوي
شظية
الأفق
القطب السماوي الشمالي
الدائرة الساعية
(خطوط الساعات)

شكل(٤) وجه الأسطرلاب، بعد أن تم تجميع أجزائه الموضحة. (نقلاً عن المصدر السابق ذكره في الشكل(١).



شكل(٥): الصفيحة الزرقالية. وهي من مقتنيات متحف الزمن TIME MUSEUM بمدينة روكفورد بولاية إلينوي الأمريكية.



شكل(٦): أسطرلاب ابن السرّاج. وهو أكثر الأسطرلابات تطورًا في التاريخ. منه نسخة وحيدة محفوظة في متحف بيناكي بأثينا.

القطبان الشمالي والجنوبي للسماء. وذلك بدلاً من المقطع الأفقي الذي يرسم على صفائح الأسطرلاب العادي.

ثم جاء عالم أندلسي آخر معاصر للشكاز، وهو إبراهيم بن يحيى المعروف بابن الزرقالة (ت ٤٩٣هـ/١١٠٠م) فطوّر الصفيحة الشكازية بأن رسم مسقطين: مسقطا معامدا لدائرة الاستواء، وآخر معامدا لمستوى دائرة البروج. وبرسم المسقطين الواحد فوق الآخر نحصل على ما عرف بالصفيحة الزرقالية (عرفت بالاسم نفسه SAPHEA AZARCHELIS عند الأوربيين). والشكل (٥) صورة لصفيحة زرقالية محفوظة بمتحف في أمريكا.

وفيما بعد صنع العالم الأندلسي الحسين بن باصه (ت ٧١٦هـ /١٣١٦م) صفيحة جمعت مميزات صفائح حبش الحاسب والشكاز وابن الزرقالة، وسماها «الصفيحة الجامعة لجميع العروض».

وقام الفلكي الحلبي الحموي ابن السرّاج (ت نحو ٧١٦هـ/١٣٢٦م) بصنع أسطرلاب متطور، معتمداً على الصفيحة الشكازية. فهو يحتوي على صفائح مقسمة إلى أرباع، كل ربع لأحد أرباع الكون، وكل صفيحة رسم عليها نوع من الخطوط: خطوط شكازية على صفيحة، وخطوط مقنطرات على أخرى، وخطوط أفق لكل المواقع رسمت على الصفيحة الأم.

وعلى ظهر الآلة شبكة خطوط لحساب المثلثات. وعنكبوت الآلة يحتوي على شبكة شكازية، وشبكة أخرى لدائرة البروج. فعنكبوت هذه الآلة إذن عنكبوتان متحدان الواحد مع الآخر. وهذه المميزات تجعل هذا الأسطرلاب يستعمل في كل أنحاء العالم خمسة استعمالات مختلفة. فهو أكثر الأسطرلابات تطوراً في التاريخ. وفي الشكل (٦) صورة النسخة الوحيدة الباقية من هذا الأسطرلاب، وهي كانت بحوزة العالم المصري الوفائي (ت ٨٧٦هـ/١٤٧٢م) مخترع آلة «دائرة المعدل» الآتي ذكرها.

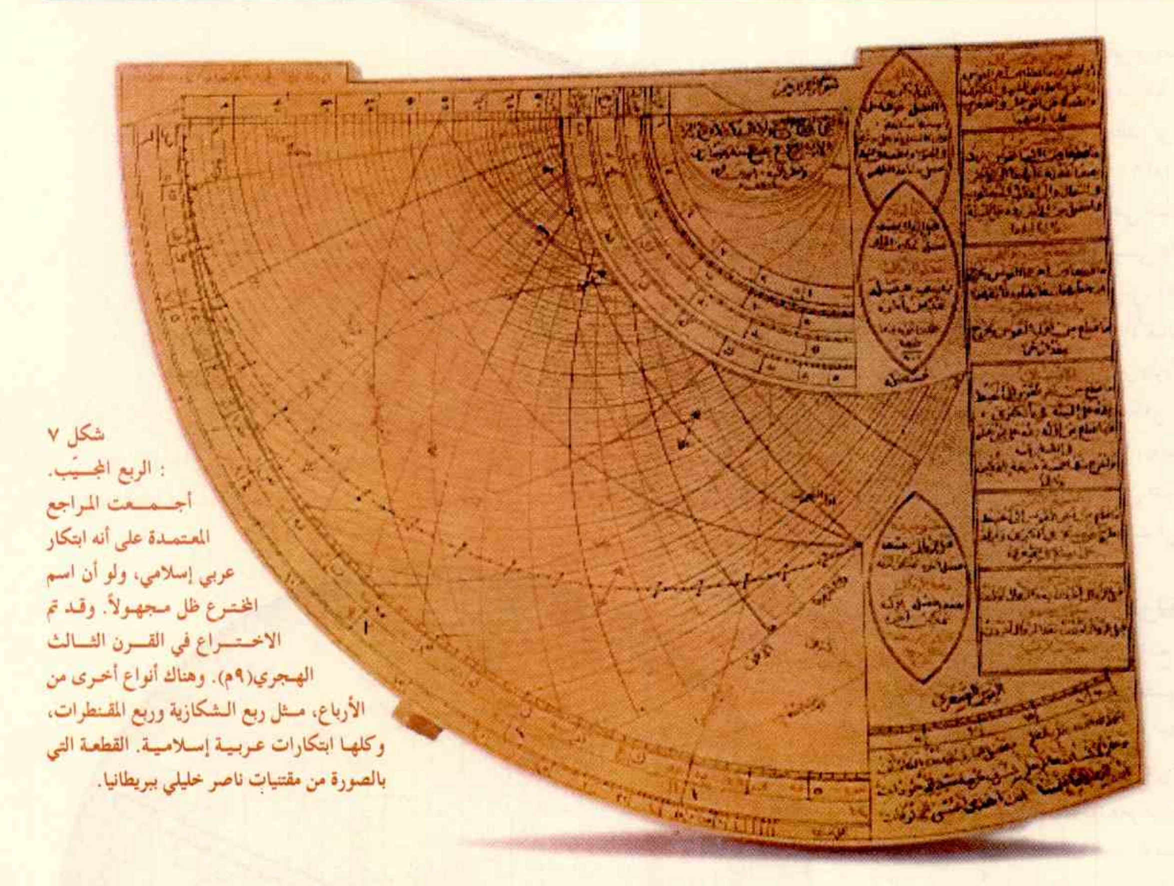
الأرباع

وردت أول إشارة عند بطليموس الإسكندري حول ربع الدائرة المرسوم على حائط بخطوط فلكية لاستعماله في الرصد. وقد أطلق العرب على ذلك الربع الجداري اسم «اللبنة»، وكان أحد مكونات المراصد الفلكية الكبيرة في مراغة وسمرقند وإستنبول والهند. ولكن الأرباع الصغيرة المصنوعة من المعدن أو الخشب تم ابتكارها في القرن الثالث الهجري (٩م) وبعده. وكانت على أنواع شتى، منها:

- ربع الساعات: وضعت عليه خطوط الساعات، أي مواقع الشمس خلال النهار. ويوجهه الراصد نحو موقع الشمس ليقرأ الوقت بقياس الدرجة.
- الربع المجيّب: وهو يعتمد على جيب الزاوية. وبواسطته تم حل مسائل متصلة بالفلك والتوقيت والهندسة والمثلثات، وألّفت عدّة رسائل في استعمالاته واستعمالات الأرباع المختلفة الأخرى.
- ربع الشكازية: ترسم عليه خطوط الشكازية التي سبق ذكرها. وكان الغرض من صنع هذا الربع هو استعماله في كل مكان بالعالم كما ذكرنا من قبل.
- ربع المقنطرات: وهو مأخوذ من الخطوط المعروفة بالمقنطرات، والمرسومة على صفيحة الأسطرلاب كما رأينا سابقًا.

وقد كانت الأرباع لآلة الأسطرلاب، بحيث حلت محله في معظم أرجاء





شكل ٧: الربع المجيّب. أجمعت المراجع المعتمدة على أنه ابتكار عربي إسلامي، ولو أن اسم المخترع ظل مجهولاً. وقد تم الاختراع في القرن الثالث الهجري(٩م). وهناك أنواع أخرى من الأرباع، مثل ربع الشكازية وربع المقنطرات، وكلها ابتكارات عربية إسلامية. القطعة التي بالصورة من مقتنيات ناصر خليلي ببريطانيا.

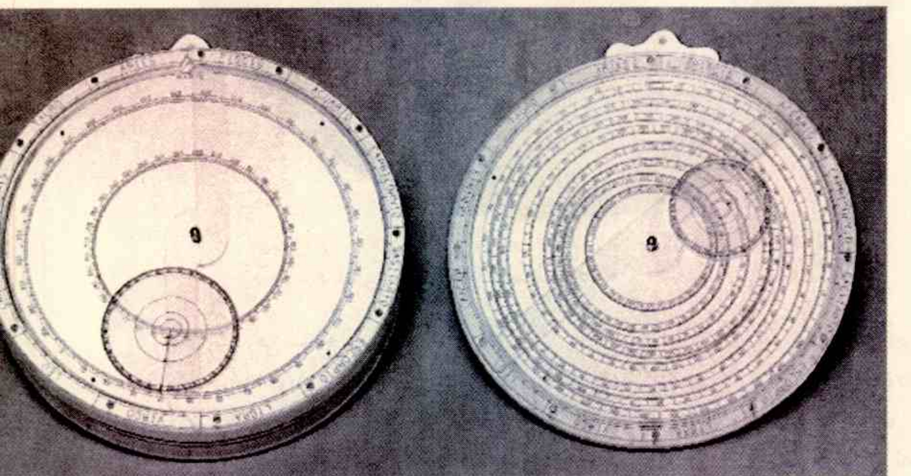
العالم الإسلامي بحلول القرن العاشر الهجري (١٦م)، باستثناء الهند وإيران، ولا نعرف من مخترع أي من هذه الأرباع؟ لأن الرسائل المؤلفة فيها لا تحدد من المخترع؟ ويبين الشكل (٧) صورة نسخة من الربع المجيّب.

الصفائح الزيجية

الزِّيج كتاب جداول فلكية، بحيث تستعمل هذه الجداول لحسابات فلكية مختلفة، مثل إيجاد المسافة بين الكواكب والنجوم، وتوقيت مطلع كل جرم سماوي، وموقع كل جرم بالنسبة إلى الراصد. ومنه تستخرج التقاويم لكل سنة.

وعندما برع العرب في صنع الآلات جعلوا هذه الجداول في آلات مثل الآلات الحاسبة العيارية analog calculators التي كانت مستعملة في عصرنا قبل انتشار الآلة الحاسبة الإلكترونية. وأول من ابتكر صنع الصفائح الزيجية هو أبو جعفر الخازن (ت نحو ٣٥٥هـ/٩٦٦م). حيث وصف آلته في رسالة عنوانها «زيج الصفائح» وهو الاسم الذي أطلقه على الآلة. وقد قام صانع الآلات الفلكية هبة الله بن الحسين الأسطرلابي (ت ٥٣٤هـ/١١٣٩م) بصنع نسخة متقنة لهذه الآلة، كانت أجزاء منها موجودة إلى نحو عام ١٩٤٥م. ولكنها ضاعت بعد ذلك، ولم يبق منها إلا صور غير متقنة بالأبيض والأسود.

وقام بعض العلماء في الأندلس بصنع صفائح زيجية. وهم ابن السمح (ت ٤٢٦هـ/١٠٣٥م) وابن الزرقالة (ت ٤٩٣هـ/١١٠٠م) وأبو الصلت (ت ٥٢٩هـ/١١٣٤م). وهناك خطأ شائع بين باحثي الإسبان خلاصته أن الصفائح الزيجية لم تعرف إلا في الأندلس. ولكن كما بيّنّا فإن آلة أبي جعفر الخازن كانت أقدم. ولم تبق من الصفائح الأندلسية أية نسخة أثرية، إلا أن نماذج منها صنعت في عصرنا اعتماداً على وصفها في المؤلفات المخطوطة التي



شكل (٨): إعادة تصنيع للصفيحة الزيجية (EQUATORIUM) لكل من ابن السمح وابن الزرقالة (الأندلسيين). جهاز ابن الزرقالة هو الأيمن. وفي المشرق نجد هذا الجهاز تم صنعه من قبل أبي جعفر الخازن (ت نحو ٣٥٥هـ/٩٦٦م) والكاشي (ت٨٣٢هـ/١٤٢٩م) الذي أطلق عليه اسم (طبق المناطق)

هو ثلاثي الأبعاد (له طول وعرض وارتفاع) على صفيحة ثنائية الأبعاد (لها طول وعرض فقط).

وقد توصل شرف الدين المظفر بن محمد الطوسي (ت نحو ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م) إلى فكرة إسقاط الصفيحة الثنائية الأبعاد على خط مستقيم أحادي البعد (له طول فقط). وسمي هذا الجهاز بالأسطرلاب الخطي، أو عصا الطوسي. وهذه الفكرة سبقت عصرها بقرون؛ لأن مفهوم الأبعاد والهندسة الوصفية لم تكن شائعة بين المشتغلين بالرياضيات في ذلك الزمان. فهذه الفكرة عبقرية من عبقريات الحضارة الإسلامية. والشكل (٩) يوضح صورة النسخة المعروضة من هذا الجهاز في متحف تاريخ العلوم بأكسفورد. وهي نسخة صنعت في بروكسل سنة ١٩٤٥م.

ذات السمت والارتفاع

كتب العالم الإشبيلي جابر بن أفلح في القرن السادس الهجري (١٢م) في أحد فصول كتابه «إصلاح المجسطي» يصف آلة تتكون من حلقة مدرّجة واسعة، وفي مركزها عمود محوري، وعلى العمود في موضع آخر منه يدور ربع مجيّب، وهو مدرّج كذلك، وعلى الربع عضادة متصلة بثقبين للرصد. ويمكن تركيب هذه الأجزاء على مستوى خط الهاجرة (أو خط منتصف النهار)، أو على مستوى خط الاستواء، أو على مستوى دائرة البروج.

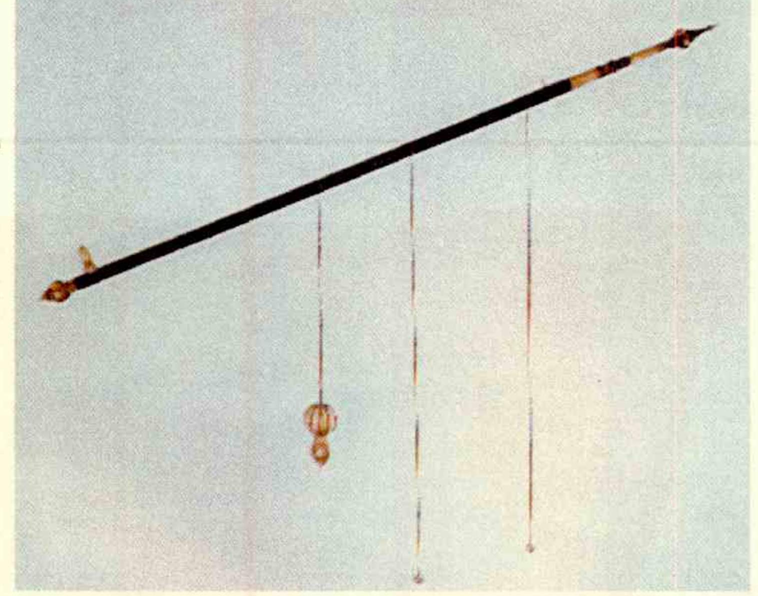
وقد عدّ الباحثون آلة ابن أفلح هذه مقدمة لآلة «ذات السمت والارتفاع التي عند الأوربيين ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادي (أي القرن التالي لجابر بن أفلح). وكانت تلك الآلة تعرف عندهم باسم TURCETUM أي جهاز الأتراك، مما يدل على اقتباسها من المسلمين، وتعدلت تسميتها فيما بعد إلى TORQUETUMأي الدائر والمتقلب. ويبين الشكل (١٠) هذا الجهاز.

دائرة المعدل

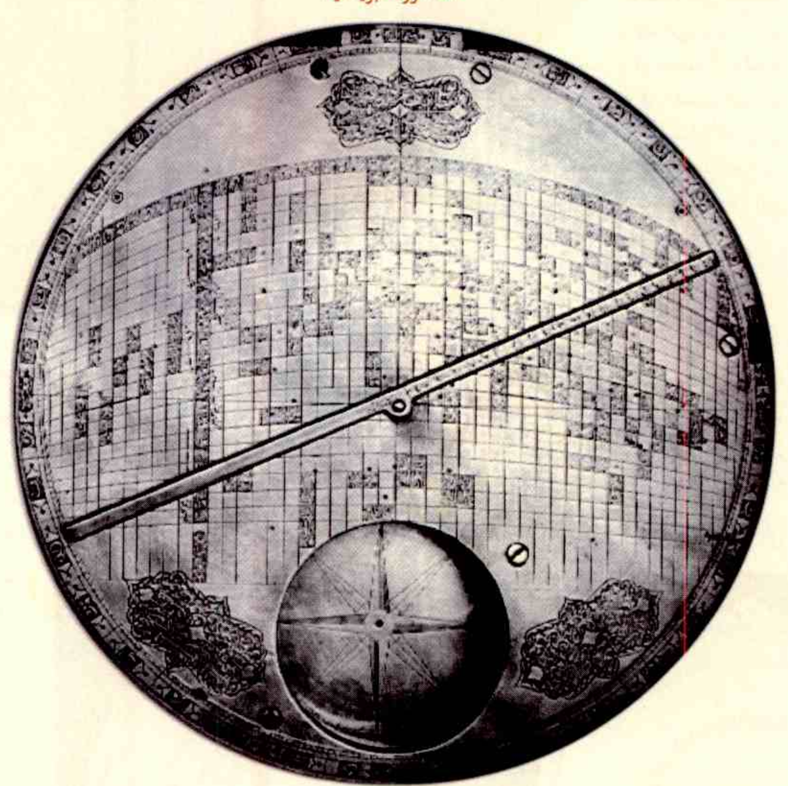
ابتكر عز الدين عبدالعزيز بن محمد الوفائي (ت٨٧٦هـ/١٤٧٢م) هذه الآلة، وكتب حولها رسالة تصف أجزاءها وعملها. وهي تتكون من ثلاثة أجزاء:

- قاعدة دائرية مسطّحة عليها بوصلة مغناطيسية، وفي قطرها مواقع القبلة لمختلف البلدان.

- قوس نصف دائري مدرّج يمثل مزولة تثبّت على خط الشرق والغرب بالنسبة إلى القاعدة، ويمكن إمالة القوس حسب درجة ميل مستوى الأفق عن مستوى خط الاستواء. فقد مرّ بنا أن مستوى أفق الراصد يختلف عن مستوى خط الاستواء. فقاعدة هذه الآلة هي على مستوى الأفق، والقوس أو



شكل(٩): الأسطرلاب الخطي، وهو من ابتكار المظفر بن محمد الطوسي (ت نحو ٦٠٦هـ/١٢٠٩م). وهذه القطعة صنعت سنة ١٩٤٥م بمدينة بروكسل البلجيكية. وهي الآن محفوظة بمتحف تاريخ العلوم بمدينة أكسفورد البريطانية.



شكل(١٢): آلة القبلة المتطورة. اكتشفت هذه الآلة التي في الصورة عام ١٩٨٩م عندما بيعت في مزاد بلندن. ونسخة أخرى اكتشفت عام ١٩٩٥م عندما بيعت في المزاد نفسه.

وصلت إلينا. وهي النماذج التي بالشكل(٨).

ومرة أخرى في المشرق قام الفلكي والرياضي جمشيد الكاشي (ت ٨٣٢هـ/١٤٢٩م) بتصميم آلة سماها «طبق المناطق»، وهي صفيحة زيجية أكثر تطوراً من سابقاتها. وقد بقيت مؤلفات الكاشي التي تصف هذه الآلة، وكتب عنها المعاصرون بعض الدراسات.

الأسطرلاب الخطي

رأينا أن فكرة تصميم ذلك الجهاز تعتمد على رسم مجسم الكون، الذي

شكل(١٠): آلة ذات السمت والارتفاع TORQUETUM التي ابتكرها الفلكي والرياضي الأندلسي جابر بن أفلح (ت ٤٥٠هـ/١١٤٥م). ثم صنع الأوربيون نسخًا مطورة عنها، ونسبوها فيما بعد إلى أنفسهم.

المزولة على مستوى خط الاستواء.

- عضادة مكونة من ذراع طولها نصف قطر المزولة، وعلى الذراع قوس صغيرة تستعمل أداة للرصد، بحيث لو وضعت القوس الصغيرة على سمت خط الاستواء بالنسبة إلى الشمس أو أحد النجوم لأمكن قراءة الساعة من تدريج مخصص لذلك.

من هذه الآلة ست نسخ أثرية حول العالم، اثنتان بالمتحف الوطني بدمشق، وواحدة في مرصد قنديللي بإستنبول، وأخرى بالمتحف الوطني بالكويت، واثنتان من مقتنيات ناصر خليلي، وهو جامع تحف بريطاني من أصل إيراني، ونرى في الشكل (١١) إحدى قطع ناصر خليلي.

آلة القبلة المتطورة

لم يعرف من هذه الآلة شيء قبل عام ١٩٨٩م. ففي ذلك العام بيعت بمزاد في لندن نسخة أثرية منها. وفي عام ١٩٩٥م بيعت نسخة أخرى وهي تحتوي على دائرة من الصفر قطرها ٢٢٫٥سم، رسمت عليها خارطة للعالم الإسلامي من الصين إلى الأندلس. وفي المركز مكة المكرمة، وقد وضعت البلدان الأخرى بحسب مواقعها من القبلة حسب الاتجاه والمسافة. وقد قدّر تاريخ الأولى بنحو عام ١١٠٠هـ أو ١٧٠٠م، والثانية بتاريخ متأخر قليلا عنها. وقد زودت الخارطة المعدنية بعضادة (مسطرة الأسطرلاب) لتسهيل الاستعمال، وببوصلة مغناطيسية.

تكمن أهمية هذه الآلة بأن خارطتها دقيقة، وتحدّد أول مرة المسافات والاتجاه بالنسبة إلى مكان مركزي هو مكة المكرمة في حالتنا هذه. وهذا النوع من خرائط القبلة لم يعرف أبدًا قبل العصر الحديث، لا في العالم الإسلامي، ولا في بقية العالم. فمخططات القبلة قبلها كانت تحدد الاتجاهات فقط. وكان المشهور بين الباحثين أن أول خارطة قبلة تعطي الاتجاهات والمسافات معا كانت تلك التي أعدها مؤرخ العلوم الألماني كارل شوي CARL SCJOY عام ١٩٢٠م. ولكن الخارطة التي على آلتنا هذه تسبق خارطة شوي بقرنين من الزمان.

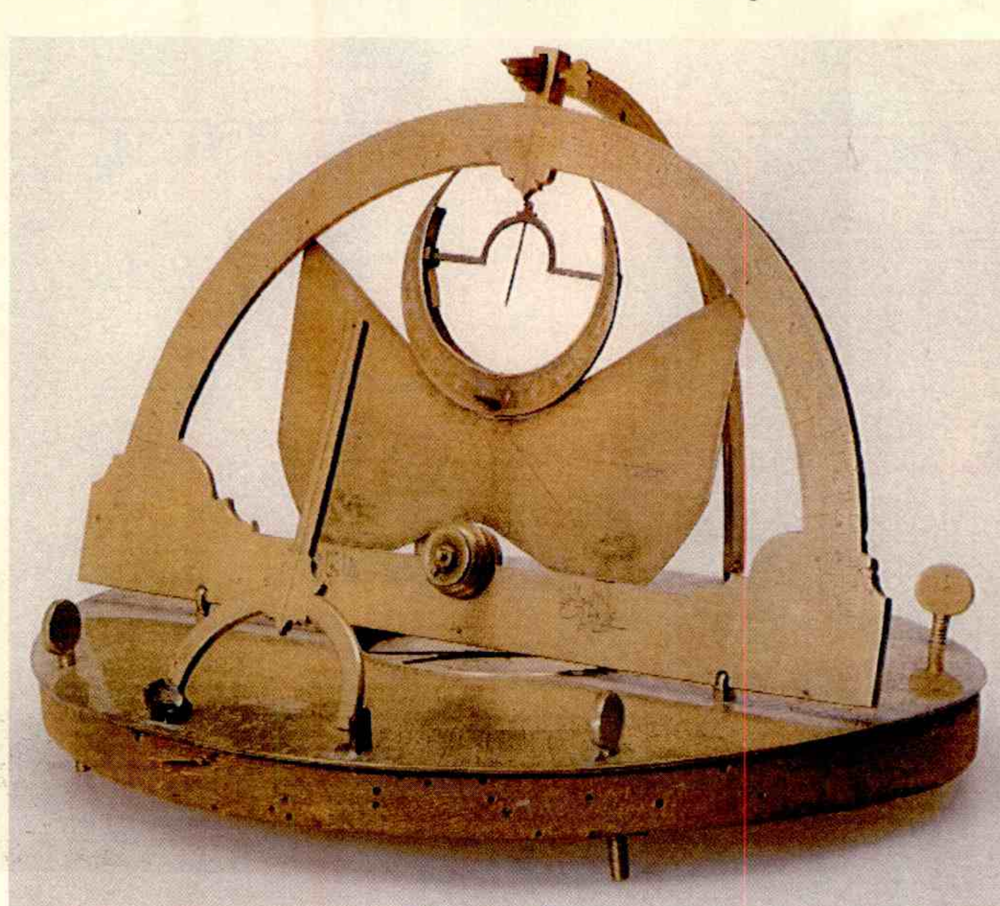
وتبين من البحث أن المعلومات عن مواقع البلدان وبعدها عن مكة المكرمة مأخوذة من مصادر إسلامية فيها حسابات متطورة. وهناك جدول فارسي مفصّل من العهد التيموري ألّفه مجهول من بلدة كيش نحو عام ٨٥٠هـ أو ١٤٤٦م فيه المعلومات المطلوبة لنحو ٢٥٠ مدينة، بينما آلتنا عليها ١٥٠ مدينة. وهذا الجدول معدّ حسب الطرق الرياضية التي طورها الجغرافيون والفلكيون المسلمون دون أي تأثير أجنبي. وهذا يدل على أصالة الآلة من كل النواحي: من ناحية المعلومات ودقتها، ومن ناحية الإبداع والابتكار في صنع أجزائها. ويبين الشكل (١٢) إحدى نسختي الآلة.

خاتمة

وبعد، فإن الآلات التي سبق ذكرها تتحدث عن نفسها، وتحدثنا بكل وضوح عن عبقرية الحضارة العربية الإسلامية. ولكن هذا التراث النفيس الذي يطول بنا القول لو عدّدنا فوائد دراسته بالطرق العصرية، وباستعمال الحاسوب، هذا التراث يهتم به الغربيون ويخدمونه أكثر منا!! فهُم درسوه، وكتبوا البحث عنه. وهم الذين أقاموا المعارض والمهرجانات الدولية عنه مثل: مهرجان عالم الإسلام بلندن عام ١٩٧٦م، ومهرجان الأندلس بإسبانيا طوال عام ١٩٩٢م، وصنعوا كما مرّ بنا بعض الآلات حسبما ورد وصفها في كتب التراث.

أما العرب فقليل منهم من يملك القدرة العلمية، ولكن لم تتح له الظروف لإنتاج مشابه. وهؤلاء بحاجة إلى شيء من العزيمة والإقدام. وبعضهم يملك المادة، ولكنه يكتفي بالشراء من بعض المتاجرين بالتراث ممن يبيعون أشياء لا تمت إلى تراثنا بصلة.

والمتحف العلمي الوحيد الذي يستحق الإشادة به في هذا المجال هو معرض أرامكو بالظهران، وهو متحف رائع لم ينل حظه من الدعاية والتعريف. ولكنه أعدّ قبل فترة. ومن ثم ليس فيه وصف بعض الآلات التي ذكرت في هذه المقالة، لأنها حديثة الاكتشاف.



شكل(١١): نسخة أثرية من آلة «دائرة المعدل»، من مقتنيات ناصر خليلي ببريطانيا.

* اختلفت المصادر في ضبط لفظة الكلمة، فوردت على الأغلب بفتح الهمزة بعدها سين ساكنة ثم طاء مكسورة. وذكرها بعضهم بفتح الهمزة وكسرها، كما ذكرت بالصاد مكان السين، وبضم الطاء بدل كسرها، وهي في كل صورها تحمل المدلول الفلكي ذاته.

إبداع

حصار الوهم

محمد علي وهبه

كنت أسير منتكس الرأس، أصابعي مشتبكة خلف ظهري، يملؤني الخوف من أن يراني أحد ممن يعرفونني، أو يرى اللفافة المدفونة تحت إبطي. هاجمني إحساس غريب أصابني بالانزعاج. تخيّلتها مفتوحة ويظهر شيء مما فيها. انكمش كتفاي حول صدري، تجمدت عروق عنقي في خوف، تحسستها وعيناي تتسعان في قلق، كانت جافة باردة ملفوفة بإحكام، تأكدت من ذلك جيدًا، فشعرت بشيء من الارتياح.

يضطرب قلبي عند سماعي لأي خطوات تقترب نحوي من أي اتجاه، قد تكون لشخص يعرفني.

هل رأتني زوجتي؟ لا أعتقد ذلك. كانت شاشة التلفاز تبتلع نظراتها هي والأولاد وهم يتكومون أمامه، ويتابعون برامجه المسلية. كان نور غرفة الجلوس التي يجتمعون فيها منطفئًا، ينعكس الضوء الأبيض منه على وجوههم، كان ضوءه محصوراً في المسافة الواقعة بينه وبينهم وباقي المكان ينتشر فيه ضوء شحيح لا يسمح بالرؤية الجيدة. مستحيل أن يكون أحدهم قد رآني وأنا أغلفها وأخفيها، ربما سمعوا صوتها وأنا أطويها. آه لو رأتني، أو حتى رآني الأطفال، كانوا سيخبرونها، وأراها تعترض طريقي في صلابة ناعمة وإحدى قبضتيها مدفونة في إحدى خاصرتيها، وهي تقول لي:

هل عدت لعادتك القديمة؟

أو تقول لي كعادتها:

لماذا لا تكون مثل منير زوج مديحة جارتنا؟

ـ أتحول إلى إنسان آلي؟!

ـ تتحول إلى أي شيء من أجلنا!

ـ لكنني أعمل في وظيفتين.

ـ منير يعمل في ثلاث وظائف.. صارت زوجته وأبناؤه يعيشون في بحبوحة.

وكانت تذبح الكلمات بشفتيها وهي تقول:

يعرف كيف يجلب المال.

لا أنسى عندما ضبطتني أقرأ كتابًا خلسة. أشارت بيدها إليه وهي تقول لي بلهجة هازئة:

هذه اللعبة تليق بالصغار.. صرت كبيرًا ومسؤولاً.

ثم قالت بلهجتها الهازئة نفسها:

لماذا لم تمارس القراءة بالقدر الكافي وأنت صغير؟

كنت هادئًا معها وأنا أقول:

إنها مطلوبة حتى آخر العمر.

ثم قلت في حماسة:

تجعلنا نعيش حياتنا بصفتنا آدميين بحق.

انفجر صوتها في حلقها وهي تصيح قائلة:

بالمال وحده تشتري الحياة!

ـ مجنونة!

انكمشت سريعًا داخل نفسها وهي تتأملني كالملسوعة، ثم قالت في دلال هادئ:

ألا تحبني؟

صحت في وجهها:

ـ صار لنا أولاد.

ثم قلت:

نعيش لأشياء أخرى أكبر من ذلك.

ـ تتحدث دائمًا بغموض!

تأملتها لحظات بنظرة عميقة فاحصة في صمت حتى

ارتسمت على شفتيها ابتسامة مهزوزة، وانصرفت من أمامي في هدوء.

ما أمتع المشي على القدمين بعيدًا عن الأجواء الخانقة، يملأ الهواء النقي رئتي، منعشة نسائم المساء الصيفية، رعشات النجوم في السماء الصافية تحتوي العالم في شكل مضيء جذاب. صفوف الفوانيس المشعة في بطن الظلام ينبعث منها البخار الضوئي يبتلع مساحات كبيرة من العتمة بحجم ارتفاع الأعمدة الصامدة في شموخ ضد تقلبات الأجواء، تتمدد أحراش الظلمة في الفضاء البعيد المقذوف داخل أعماقها بلا نهاية توحي بالانطلاق الحر في مجاهل الكون العجيب في هدوء ساحر جميل تنغرس مصابيح السيارات الملونة في أحشاء الشارع المعتم الطويل، تمتزج أنفاسي بمشاعر الحرية الممتعة، مشاعر غير مكتملة، أريدها كاكتمال النظام الكوني الباهر الطليق.

شعرت بالخطر فجأة عندما لمحت شرطيًا يأتي من خلفي يسير بجواري، ارتسمت ملامح الاضطراب في سحنتي، غاصت أنفاسي في أحشائي وهو يدقق في ملامحي بنظرات واسعة مخيفة. أزعجني أكثر بضخامة جسمه، وثقل خطواته، وانتفاخ صدغيه الغليظين المجعدين، حتى أنفاسه كنت أسمعها قوية مثيرة للرهبة، تتبعثر حولي بكل خشونتها في ضوء الليل الشحيح.

قمت بنقل اللفافة من تحت إبطي الأيسر إلى الأيمن في حركة خاطفة محاولاً إخفاءها عن عينيه حتى لا يلحظها، لكنه رآها، ظلت نظراته مشتبكة بها حتى أخفيتها ونظراتي تغوص في عينيه الثاقبتين، اعتقدت أن هذه الحركة قد أثارت اشتباهه في أمري. خشيت أن يستوقفني ليسألني عما بداخلها، وعن سبب اضطرابي المفضوح وأنا أخفيها عنه.

انقطعت أفكاري في لحظة اشتباك نظراته بنظراتي، تجمد الدم في عروقي وأنا أوشك على التوقف، وأنفاسي توشك على الانقطاع. ابتسمت له في سذاجة محاولاً أن أخفي اضطرابي، وحييته قائلاً:

السلام على أهل النظام.

بدأت أتنفس في ارتياح، وهو يبتسم لي دون أن يرد تحيتي، وتخطاني ببضع خطوات، ظللت أراقب ظهره العريض في قلق وهو يبتعد، حتى احتجب جسده أمام عدة أشخاص كانوا يسيرون خلفه.

لم أتمكن من استكمال شعوري بالارتياح مع استئنافي السير، أصابني الشعور بالخطر مرة أخرى، فقد ظهر أمامي شخص آخر يعرفني جيدًا. كيف أتحاشاه؟ لا أستطيع، أين أهرب منه؟ لا يوجد دكان أو باب أو منزل قريب مفتوح لأختبئ فيه، هل أعبر الشارع للهروب منه؟ قد يناديني بصوت مرتفع، أو يلاحقني، كان آتيًا في مواجهتي، والمسافة تنكمش بيننا حتى صارت بمقدار ذراعين أو ثلاث، مع أن خطوته كانت بطيئة، لا مفر من مقابلته.

المهم أن أفلح في إخفاء اللفافة عن عينيه، ملأ بصوته المكان من حولي مبددًا آخر إحساس لي بالأمان وهو يمد لي يده محييًا مصافحًا، شعرت بالارتباك لحظات، تجمدت الكلمات على شفتي مع انكماشي على نفسي حتى شعرت بضيق العالم من حولي مع اتساعه.

- منير!

ثم قلت في شيء من الارتياح بعد أن تأكدت أنه لم يلحظها تحت إبطي:

جاري العزيز!

وأوليته جانبي الخالي حتى لا تقع عليها عيناه، وأنا أضغط على يده الهزيلة التي كانت أشبه بمزقة من اللحم بالية من شدة إحساسه بالتعب.

- ترهق نفسك أكثر من اللازم!

قال، وهو يسحب يده من بين أصابعي، ويتركها تسقط كغصن شجرة مكسور بجانبه:

نريد أن نعيش!

- لكنك ستموت هكذا!

أحسست بعدم رغبته في الخوض معي في حديث من هذا النوع المضاد لعقيدته، أو بالأخص عقيدة زوجته. شعرت بالزهو؛ لأنني أحتفظ بشيء من المقاومة على نحو أفضل، لكنني أصمم على الصمود حتى تأتي النهاية كما أريد.

نظرت إلى السماء أحاول استلهام القوة من جبروت ارتفاعها البعيد.

- إلى أين تذهب في مثل هذه الساعة؟

كنت أتوقع منه الثرثرة بمثل هذه الأسئلة، ورأسي ينشغل بالتفكير السريع في الطريقة التي تخلصني منه لألحق بموعدي مع الشيء الجميل الذي بداخله اللفافة.

- كيف حالك؟

- بخير.

- وحال الأولاد؟

- على ما يرام.

ثم سألني وهو يقاوم بتوسيع عينيه المجهدتين:

- لماذا تبدو مضطربًا هكذا؟

قلت مرتبكًا وأنا أضغط بعضدي على اللفافة خوفًا من وقوعها أمامه:

أبدًا.. لا شيء.

- كأنك تهرب من شخص يطاردك.

- إني أتمشى قليلاً.

قال، وهو يغمض عينيه متلذذًا بانغلاقها لشدة حاجته



إلى الراحة:

لا وقت عندي لمثل هذه التمشية.

- أعانك الله.

نفد صبري، حتى أوشكت على الصراخ في وجهه بأن يعتقني، ويبتعد عني. قلت له:

أراك متعبًا.

- بالفعل يهدني التعب.

وقال، وهو يفرك عينيه بظاهر كفيه:

أعمل في ثلاث وظائف.

- ارحم نفسك.

- فواجع الاحتياج مخيفة.

- لكنك لا تحتاج إلى شيء.

لم يلتفت إلى كلماتي الأخيرة. كانت عيناه ذابلتين حمراوين مخيفتين، وجهه شاحب ممصوص تكشف نظراته المرهقة عن معنوياته المحطمة، كنت مشفقًا عليه وأنا أسترسل معه في حديث غير مرغوب فيه، أنقذني أخيرًا بتثاؤبه من شدة إحساسه بالتعب. قلت له متسرعًا:

يجب أن تستسلم للفراش فورًا.

استطعت أن أسترد أنفاسي بعد وداعه لي، واصلت سيري مسرعًا محاولاً أن أتجنب النظر إلى وجوه من حولي حتى لا يستوقفني أي شخص آخر، وقد يكتشف أحدهم اللفافة، ويسألني عن محتواها، لا أريد أن أتعرض لمثل هذا الموقف، لم أعثر بعد على مكان هادئ لأكشف عن محتواها في الخفاء، سأقضي وقتًا ممتعًا مع الشيء الذي بداخلها، وصلت أخيرًا إلى حديقة عند الميدان في نهاية الشارع، كانت خالية تمامًا إلا من صوت الريح الخفيفة في أوراق الشجر، والصمت الثقيل المسترخي في أحشاء الظلام يتخلله ضوء المصابيح المنتشرة حول سياج الحديقة، اندفعت نحو كرسي قريب يعلوه أحد الأعمدة والضوء يتصبب من أعلاه، ارتميت بجسدي فوقه، أمسكت باللفافة على الفور في شوق محموم، قمت بالضغط عليها عنيفًا بأصابعي العشرة وأنا أعتصر من السرور بوصولي أخيرًا إلى هذا المكان الآمن، نظرت يمينًا ويسارًا في توجس خوفًا من أن يكون هناك من يراقبني ممن يعرفونني أو حتى ممن لا يعرفونني، فتحت اللفافة من الجانبين. نفضتها عدة مرات في سرعة ونهم شديدين كأنني أتهيأ لالتهام وجبة غذائية شهية، حتى سقط منها كتايين صغيرين يلمع غلافهما تحت ضوء المصباح المتوهج.

الذي نسي الحليب

بسّام الطعان

تشقق القلب، وأكلني القهر، فترفق بي وتعال. منذ سنوات وأنا أبحر في محيط الفجائع، آه يا ولدي، في النهار أعيش ساعات بؤس مخلّدة، وفي الليل أظل في ظلام العزلة الرهيبة دونما دفء يلفني، حتى أصبحت معتادة المرارة، أيا ولداً ترك في قلبي غصة، كيف يطاوعك قلبك أن تتركني وحيدة أثرثر دائماً مع نفسي، كيف؟

وحيدة أنا، والوحدة قاتلة، آه، كم هو مر طعمها! والحياة التي أعيشها احتلها ـ منذ أن تركتني ـ القهر والتعب، وأيامي أفسدتها الكآبة بإطلالتها البشعة، تعال فأنا أنام على الحنين وأصحو على الحنين؛ لأن شوقي دائماً منشور على حبل قلبك، أتراك تأتي يا ولدي؟

حين جاءها كانت تتحدث مع نفسها وهي تغسل جزة الصوف في النهر، فخرجت بعد أن فكت عقدة ثوبها، ونفضت بقايا الصوف من على ثيابها المبللة.

ـ خالة (ردّة) .. يا خالة ردّة تعالي، جاء ابنك عباس.

فكادت تفقد توازنها، وتقع أرضاً من المفاجأة، غير أنها تشبثت بصخرة كبيرة، ثم قالت والدموع من عيونها تنهمر:

ـ بالله عليك يا ولدي، ما تقوله صحيح؟ .. أين هو؟

ـ نعم يا خالة، رأيته بأم عيني، كان في سيارة حكومية، ومعه شرطي.

حينئذ طفح وجهها بالفرح، ودمعت عيناها أكثر من المعتاد، ودموعها هذه كانت رسائل شوق لوجهه، بغتة أسلمت قدميها للريح وهي تحمل قامتها بصعوبة، وخلفها تتساقط قطرات الماء من ثوبها، سارت بقوة الحب واندفاعة الشوق، واتجهت إلى البيت تسبقها لهفتها، وتبدو كمن ينجو في اللحظات الأخيرة، تذكرت أنها لم تخرج جزة الصوف من الماء، لم تهتم بذلك، سبع سنوات مرت عليها لم تر خلالها عباساً سوى مرة واحدة، كان ذلك منذ أربع سنوات عندما جاء وأخبرها بأنه قد تخرّج في كلية الحقوق، وأنه سيعيش في العاصمة، حينئذ رجته بحرارة أن يظل معها، لكنه رفض بشدة وقال لها:

«لا استطيع العيش في القرية. لا استطيع، ولا أحبها يا أمي».

منذ ذلك اليوم وهي تحيا على أمل أن يعود إليها، لكنه غاب، ولم يعرف أحد أين هو؟ حتى رسمت سنون الانتظار الخرائط على وجهها، وكثيراً ما أكلت مع الجوع الحزن والانكسار، وبقيت بانتظاره متململة مستنجدة بدعواتها، لكنه لم يأت على الرغم من طول السنوات، وخراب الجسور بينهما، إلا أنها ظلت تراقب الطريق المؤدية إلى القرية كلما غسلت الصوف في النهر المسافر دائماً، الذي لا يجوع ولا يضيع حتى يصل البحر، كم حسدت هذا النهر! وكم تمنت أن تسافر مثله؛ لأن ألف شوق يشدها إليه! رجت القلب مرة أن ينساه قليلاً وما استطاع، وكيف ينساه؟ إنه قلب الأم!!



لم تكل من ترقُّب عودته في كل لحظة، فكلما جاء أحد من المدينة تذهب إليه وتسأله بلهفة عنه، فتتأسف، وتتحسر، وتصبر. صبرت، وانتظرت، وشاخ انتظارها، أحيانًا كانت تشعر أن الأيام تمر بلمح البصر، وأحيانًا تبدو لها مثل الدهور المجحفة، كانت كلما تشتد وطأة الوحدة عليها، تجلس وحيدة مع العتمة تسأل نفسها عن سر عدم مجيئه إليها أو السؤال عنها، فتهزمها الأجوبة في النهاية.

وحين وصلت إلى أمام البيت، فجأة تباطأت خطاها، تراخت حتى وقفت، كانت تلهث وعيناها تضيقان بالدهشة؛ لأنها لم تجد السيارة أمام البيت، لكنها وهي تفتح الباب تذكرت أن الطريق المؤدية إلى بيتها مليئة بالأحجار، دخلت وهي تبحث عنه بنظراتها، فلم تجد له أثرًا، تساءلت في داخلها وهي تستعد لترتيب البيت وتنظيفه الذي تحجرت أشياؤه، ولم تتبدل مواقعها منذ سنوات: أين ذهب يا ترى؟.

بدأت عملها بسرعة، كما لو أن سرعتها هذه ستسرع في مجيئه، حملت لحافه الذي طال حنينه إلى الماء والصابون، حيث لم يغسل منذ أن غادر القرية (إيه يا ولدي .. لحافك ما زال كما هو، غبت طويلاً، وها أنت ذا تعود لتحتل مكانك في هذا البيت من جديد).

نظفت فراشه والشوق والفرح يتحاوران في مخيلتها، مضت إلى البئر، أحضرت الماء، ورشت به أرض البيت، بعدها دخلت غرفتها، توجهت إلى صندوق ملابسها القديم، الصندوق الذي ظلّ مقفلاً منذ غيبته الطويلة، فتحته بصعوبة، نفضت تراب السنين من فوق ملابسها، أخرجت فستانًا، لم تضعه على جسمها منذ سنوات مضت، تركته جانبًا، وتوجهت إلى المطبخ، أعدت طعامه بعد أن ذبحت الدجاجة الوحيدة التي تملكها، ثم ارتدت فستانها، وجلست بانتظاره.

كانت ذاكرتها مشتعلة ومتأججة، وبين لهيبها تلتمع صورته، وتضمه بخيالها إلى صدرها، وتقبّله بحنان، لم تعرف كم من الوقت مرَّ؟ عندها استفاقت من تخيلاتها على صوت جارتها وهي تطل برأسها من فوق الحائط:

- ألم يأت ولدك عباس بعد يا ردّة؟

- لا يا أم الخير، ولا أعرف أين ذهب؟ يا الله كم أنا مشتاقة إليه!!

- يقول زوجي: إن عباسًا موجود في المخفر.

- مخفر!! ماذا يفعل ولدي في المخفر؟.

- لا تخافي يا ردّة، زوجي يقول: إن عباسًا قد أصبح شخصًا مهمًا في العاصمة، ولكن لماذا لم يأت إليك حتى الآن؟.

لمعت عيناها بالفرح، وشردت لحظات:

- ألم تقولي: إنه أصبح شخصًا مهمًا، فلا بد أن لديه أعمالاً يقضيها مع رئيس المخفر. على كل حال لا بد أنه سيأتي بعد قليل.

وراحت ترسم لوجهه الذي كثيراً ما سهرت الليالي وطيفه يتراءى لها مع السحاب صوراً متعددة، وفي أوضاع مختلفة، صورته مرة ضابطًا، ومرة محاميًا، ومرة قاضيًا، ومرة وزيراً.

حين ألقى الليل على القرية بجسمه متمددًا، ولم يأت، اشتد قلقها شيئًا فشيئًا، فكرت أن تذهب إلى المخفر، لكنها سرعان ما غيرت رأيها: «لا يجوز أن أذهب وراءه، صحيح أنني مشتاقة إليه، ولكن ذهابي إلى المخفر قد يسبب له الإحراج، ماذا سيقول رئيس المخفر عنه والشرطي الذي معه إن ذهبت في هذا الليل؟

مرت ساعة أخرى، ولم يأت، برد الطعام، سخنته مرة أخرى، وبرد من جديد، ولم يأت، لم تعد تستطيع الانتظار أكثر من ذلك، فاتجهت إلى بيت جارتها، وقالت لابنها:

- اذهب يا بني إلى المخفر، وقل لولدي عباس إن أمك بانتظارك.

- ركض الولد وعاد بعد قليل.

- رأيته؟. سألته وهي تكاد ترتجف.

- نعم .. كان يأكل مع رئيس المخفر.

- أقلت له إن أمك بانتظارك؟.

- نعم، قال لي: عندي شغل، ولا أستطيع الحضور الآن.

فجأة جادت عينيها بدمعة واحدة، فتاهت بين خطوط التجاعيد وأوديتها، إلى أن وصلت إلى شفتها العليا، فحركت لسانها وهي تتذوق طعم الملح الذي أصبح مألوفًا لديها.

عادت إلى بيتها دون أن تنطق بحرف، وتشعر بأنها لن تراه أبدًا، لكنها طردت هذا الشعور بعدما لعنت الشيطان، دخلت البيت بقلب منكسر، ومنقوعة بعصير الأرق، فمن دونه لا راحة ولا فرح ولا دفء يستطيع أن يعيش في فراشها، ولا خبز ولا ماء يقدر أن يحيا على مائدتها وهو بعيد عنها، رفعت رأسها إلى السماء، تمتمت بآيات في همس، نادته ملء انكسارات روحها، وأطلقت نداءاتها الوجيعة.

كانت الدقائق تمر بطيئة ثقيلة، وشيئًا فشيئًا همدت الأصوات في القرية، ولم يعد يسمع سوى نباح الكلاب من بعيد «سأغمض عيني قليلاً ريثما يعود». وضعت رأسها الثقيلة على المخدة بجانب الطعام المحمّر، لكنها لم تغمض عينيها، بل كانت تنظر إلى الباب وتنصت، وقد صارت كلها آذانًا صاغية، تعبت عيناها من التحديق في الباب، أغمضتهما لحظة، فتحتهما، أغمضتهما، وفجأة نهضت من مكانها والحزن يخيّم فوق سفوح صمتها، تطلعت إلى الخارج، فشاهدت حمام ذاكرتها الحزين يطير إليه، ها هو الفجر قد أقبل ولم يأت، سأذهب إليه الآن، فتحت الباب لأي شيء أذهب إليه؟ هو ولدي وأنا أمه، هو يجب أن يأتي إليّ. لن أذهب .. يبدو أنه نسي أن له أمًا.

كانت الشمس قد بزغت وراحت تنتشر أشعتها الدافئة لتتكسر على أبنية القرية، وكانت ممددة عندما سمعت جارتها وهي تناديها من فوق الحائط، فنهضت دفعة واحدة:

«لعله جاء» قالت واللهفة بادية على وجهها:

- هل جاء ولدي؟

- لا، قالت ذلك وهي تهز رأسها يمينًا ويسارًا، ثم قالت من جديد:

- ابنك غادر القرية يا ردّة.

وقفت في مكانها وهي لا تعرف أي حزن غاص بصدرها، جاب ألف قاع، تجمد كل شيء فيها، شعرت بجراحها تتبعثر في جسدها، وبضباب كثيف يغطي سماء أمانيها، ويفقأ عيون نفسها، التي بدأت تنمو فيها حقول الخيبة والمرارة، ثم جاهدت تقول بصوت مرتجف خائف:

- متى ذهب؟!

- قبل قليل... اصعدي على السطح سترين سيارته وهي تغادر القرية.

لملمت بعضها، وصعدت على السطح بصعوبة، وراحت تنظر إلى جهة الطريق «آه يا ولدي لقد فرشت لي سرر الحزن إلى الأبد، » شعرت بصوت عظام روحها وهي تهصر، وطفح جسدها بحبيبات القشعريرة، وانتابها إحساس بأن روحها الواهنة ستفر منها بعد لحظات.

انسلاخ

فاروق حسان

.... ولأني دسست فيها كل ما تحويه الحجرة، فقد انتفخت الحقيبة الكبيرة وانبعجت، وتعذر عليّ إغلاقها. لم يبق شيء إلا البطانية التي لففت فيها الوسادة، ثم طويت عليها الحصير، وأسندتها إلى الحائط.

سحبت حبل الغسيل الذي لم يكن طويلاً، لكنه كان مناسبًا، وبكل قوة أخذت في لفه حول الحقيبة بالعرض مرة، وبالطول مرة حتى انتهيت من حزمها.

لم تكن مغلقة تمامًا. كانت هناك مسافة بحجم كف الطفل تفصل بين حافتيها، ظهر منها ومن بين لفات الحبل جزء من شماعة خشبية، ومؤخرة حذاء، ونصف دائرة من حافة طبق، وطرف ملاءة، ويد إبريق شاي، ومظروف به أوراق قديمة، وأطراف ملابس متأكّلة.

لم يبق ثمة شيء إلا أن أجمع قوتي، وأرفع الحقيبة الثقيلة، وأحمل الحصير، وأتجه إلى الباب دون لحظة تأخير، أو نظرة إلى وجوههم الباهتة في الوراء.

كنت أعطيهم ظهري..

أتعمد تجاهلهم وإسقاطهم من أي حساب أو خطة مستقبلية. وكنت - كلما ألحوا عليّ بوجوههم المتجاورة - أتخيل ما ينتظرني بعيدًا عنهم، فيفرون من أمامي متخبطين عائدين إلى محبسهم الجداري.

ذات يوم قالت أمي وهي تمسح عينيها اللتين صارتا تدمعان باستمرار:

- لم يبق لنا سواهم.

غمغم أبي:

- أجل.. هم كل ما نملك.

كان مسكينًا شاردًا، يردد بآلية بلا حرارة أو عمق. وكان كل ما نخشاه أن يفتح الباب، ويخرج في غفلة منا، حيث تبتلعه المدينة، من دون أن يملك القدرة على العودة، أو فهم ما يجري له.

... واستدرت لأحمل الحقيبة، وبلا اتفاق وقع بصري عليهم.

كانوا سبعة لا يزيدون..

ينتظمون بعرض الحائط ، وبترتيب زمني صارم، يكتنفهم انطفاء وغبار ناعم يوجبه التجاهل الذي حاق بهم منذ رحيل أمي واختفاء أبي.

كان أولهم يحمل وجهًا يشع بالسمو الكامل، يعكس نفسًا متصالحة مع كل ما يحيط بها، ودون أن يكون هناك ما يعكر صفوها وهدوءها.

كان يجلس في سكينة ورعة، وفي جبة فخمة، وعلى رأسه عمامة ناصعة تضفي عليه نوعًا من المهابة والقداسة، بينما أحاطته غلالة من الشفافية، أقرب إلى السحر أو الأسطورة.

وكان المقعد الذي يجلس عليه ينتمي إلى عصره، حفل مسنده بالنمنمات والزخارف الدقيقة التي دست بينها قطع من الصدف اللامع بمهارة لا تخفى.

لم يكن هناك في الصورة غيرها.. هو.. والمقعد. لا ستارة داكنة تمثل خلفية وقورة، ولا آنية زهر كان يعتقد في زمانه أنها تضفي على المشهد نوعًا من البهجة.

والحق أنه لم يكن هناك متسع لأي شيء آخر..

فقد كان المقعد يملأ الصورة، وكان هو يملأ المقعد، وكان السؤال: ترى هل التقطت الصورة في بيته العتيق المعبق برائحة البخور أم لدى المصور؟ الواقع أنه لم يكن هناك ما ينم على المكان بأي شكل من الأشكال. لكن المؤكد أن الرجل كان يحظى باحترام كبير، يفرضه ذلك السمت الجليل، واللحية الفضية، ومسبحة الكهرمان المشعة بين أصابعه. والمؤكد أيضا أنه مات ميتة الأبرار، وأن أناسا كثيرين قاموا بوداعه إلى مقره الأخير.

وإلى جواره وقف الثاني بكامله في نبل وقد ضاق صدره بالنياشين التي أخفت جزءًا من الوشاح ذي الهلال والنجوم الثلاثة، وكان طربوشه مائلاً قليلاً نحو اليسار بشكل يتناسب وشاربه المدبب المشرع بصورة تعطي إحساسًا شاملاً بأن الرجل قدّم كل ما يستطيع، وأن من حقه أن يفخر بذلك ويزهو، وما مجموعة الأوسمة التي تحلي زيّه الرسمي إلا مقابل متواضع لتاريخ حافل وطويل.

للتاريخ الهش، والوجه المجدور الذي يعطي الانطباع بأنه خارج من فوره من حريق.

بدا لي منفرا، لا يوحي بالثقة، أشبه بالقوارض أو فئران المجاري، لا يمتلك أية موهبة إلا الخبث والإيقاع بالآخرين.

بعده، كان الرابع فالخامس.. فالأخير.

وكانت أحجام الأطر التي تحصرهم داخلها تتدرج بشكل يتناسب وحجم الصورة. كانت صورة جدي الأكبر كبيرة، وصورة جدي الثاني أصغر قليلاً. وفي وجود هذا التدرج، كانت صورة جدي الثامن في حجم علبة الكبريت.

ومن الواضح أنه كان أقل الجميع شأنًا، وأن الحياة أخذت بتلابيبه دون أن يبدي مقاومة تذكر. كان يشعر بذلك من دون أن يحاول ستره وإخفاءه.

كان يجلس مجردًا من أي سلاح أو مقاومة، كان ألم لا يمكن احتماله يأخذ بخناقة. والأرجح أنه وقع تحت ضغط أو تهديد مباشر كي تلتقط له هذه الصورة. فالتصوير بالنسبة إلى أمثاله ترف لا يجوز التفكير فيه.

لم يكن غريبًا أن يبدو كشيء قديم بلا دور أو خطر، تركز كل همه في أن يترك وشأنه ليقضي أيامه في سلام.

وداهمني سؤال:

هل كان جالسًا أم واقفًا؟

لم توضِّح الصورة شيئًا من ذلك، لكن الأرجح أنه كان واقفًا على أصبع واحد؛ لأنه بدا متهافتًا، يكاد يمد يده - التي لم تظهر في الصورة - ليستند بها إلى الفراغ، وإن كان ذلك لن يحدث أي خلاف بالنسبة إلى النتيجة النهائية، وهي أنه كان إنسانًا غابرًا بكل مقياس، حتى في أثناء طفولته.

كنت أشعر بانقباض شديد وأنا أتأمله، وكان عليَّ أن ألقي بعيدًا بفكرة أن هذا الرجل هو جدي لأبي، والمفترض أنه الصورة والمثال بالنسبة لي.

ورجعت للخلف محاذرًا ألا أصطدم بالحقيبة، وأنا أتأمل هذا التدرج الحجمي الذي انتظموا داخله، والذي كان منطقيًا ومفهومًا إلى حد كبير. وفي وجوده - وهذا ما أرَّقني ليالي وليالي - كان على صورتي إذا ما قدر لها أن تأخذ مكانها إلى جوارهم أن تكون على أحسن تقدير في حجم طابع البريد.

وبلا تفكير هرعت إلى النافذة الوحيدة فأغلقتها، حيث استحالوا خلفي إلى مساحات معتمة بلا ملامح أو تفاصيل، ووجدتني أستدير بحدة مختطفًا الحقيبة من على الأرض.

كنت أشعر بطاقة هائلة جعلتني لا أشعر بثقلها في يدي.

خارج الحجرة ألقيت بالحقيبة والحصير الملفوف، وجذبت الباب بعنف.

لحظتها سمعت أصوات سقوط أشياء، وتكسر زجاج..

وانصب كل همي في أن أغلق الباب بإحكام.



ولعل التقطيب الذي كسا وجهه راجع إلى هم خاص، أو أمر خفي كان يستشعره، ويأبى الإفصاح عنه بدافع الكبرياء أو عدم الجدوى.

وعلى العموم، فقد كان يوحي بأنه يأخذ كل شيء مأخذ الجد، ودون أن يترك المجال لأي لبس أو خطأ.

وإلى جواره انتصب الثالث بكامل جسده أيضًا في وقفة معتدّة بلا صلف، ونظرة ثقة تشي بإحساس كامل باليقين. وأغلب الظن أنه لم يكن يفخر كثيرًا بالقليل الذي يرصع صدره، لإدراكه التام أن الأمر لا يستأهل، وأنه قدّم ما قدّم بنفس معطاء راضية، دون انتظار لتقدير أو مقابل.

كان يمسك بيده اليسرى جراب سيفه الذي بدا مقبضه جديدًا ولامعًا. أما وجهه فكان ماكرًا وشريرًا يعطي الانطباع بأنه لم يشعر بالخجل مرة واحدة في حياته.

ولعل بسمة الازدراء التي علقت بجانب فمه كانت تعويضًا

العجوز

تأليف: **فالنتين راسبوتين***

ترجمة: **هاشم حمادي**

حين بلغت العجوز من العمر أرذله، أصبح وجهها عتيقًا عتيقًا، وازداد ترهلاً وسكينة، ولم يعد يعبر عما يجيش في أعماقها من مشاعر وأحاسيس على ندرتها، والغريب أنه لايزال ينبض بالحياة.

أما ابنتها فتصغرها بحوالي أربعة عقود، ومع هذا، فهي - بدورها - دخلت العشرة الأخيرة من خريف عمرها. إنها نادرًا ما تضحك، أما البكاء فقد انقطع عهدها به تمامًا، لقد نضب لديها - على ما يبدو - كل ما هو ضروري للضحك والبكاء. حتى حين تبتسم تأبى الابتسامة أن تطاوعها، فتأتي واهية، لا تكاد تبين، لكأن قواها عاجزة حتى عن الابتسامة.

وأما حفيدتها، فهي لاتزال بَعْدُ صغيرةً لا تكف عن اللعب و«الشيطنة» والتأرجح، كما الدمية «غير القابلة للسقوط»، وفي الصباح تغادر البيت إلى المدرسة، حيث يعلمونها مبادئ القراءة والكتابة.

كنّ يعشن وحدهنّ في ذلك البيت الصغير، القائم في أقصى تخوم القرية، والخالي من الرجال. فزوجها توفي منذ عهد بعيد، وزوج ابنتها لقي حتفه في الغابة منذ خمس سنوات خلت، وأما الصغيرة فكانت وحيدة أبويها، لا أخ لها ولا أخت.

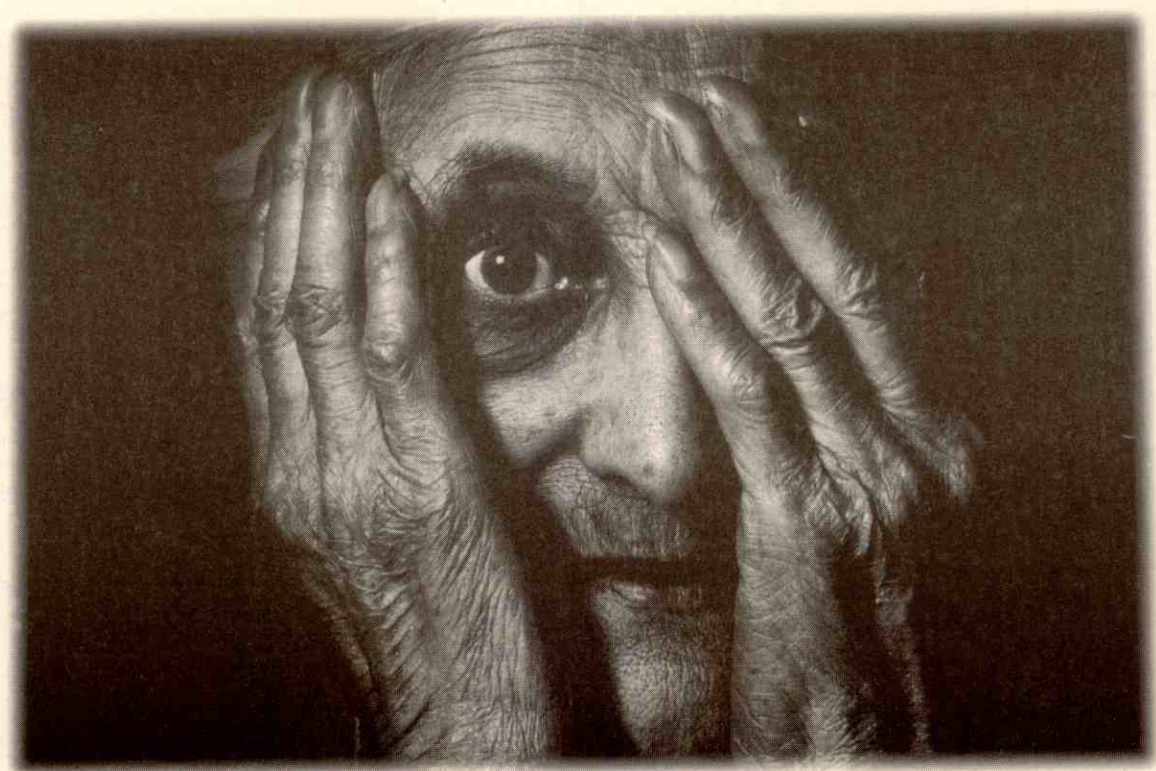
إنهنّ يعشن تحت سقف واحد، وكل منهنّ تكمل الأخرى. فالأم ابنة العجوز، والصغيرة ابنة الأم وحفيدة العجوز، لكأن كل الأغصان على شجرة نسبهن انقرضت، ولم يبق سوى وريقات صغيرة خضراء، تنبض بوجل، على ذؤابتها.

في الأزمنة الغابرة كانت العجوز ساحرة. لكن زمنَ السَّحَرَة وَلّى، وانقرض هؤلاء على بكرة أبيهم، ولم يبق غيرها. بيد أن أحدًا لم يعد يقصدها ملتمسًا شفاء مريض، أو صيدًا موفقًا، أو درءَ الأوبئة عن القطعان.

ولم يثر ذلك حفيظتها على أبناء جلدتها. فالزمن تغير، والأشياء التي كانوا يقصدون الساحر في طلبها أصبحت متوافرة في المستشفى أو المخزن. حتى العجوز نفسها انصرفت إلى تربية الوعول، وصيد السمور، ونادرًا ما يطفو على سطح ذاكرتها ماضيها كساحرة. حتى إنها لا تكاد تذكر زواجها، الذي لم يعمر طويلاً، ولم يبق من ذكرى زوجها سوى وجهه الشمالي، كما لم تعد تذكر مشاعرها، وهي «تنطوط» كالمجنونة من حول النار المتأججة، ويداها لا تكفان ترتفعان وتنخفضان.

وها هي الآن تشعر، وهي على فراش الموت، بالقلق. إن وجهها لا يعبر عن شيء، لكنه يخفي العذاب الدفين الذي أصبح سُدى حياتها ولُحمتها، لكأنه حل محل القلب، ويقوم بدوره في ضخ الدم. إنها لا تهاب الموت، ولا تخشاه؛ فهي تدرك أنه آت لا محالة. ثم إنها أدت واجبها، فمن بعدها ستبقى ابنتها وحفيدتها، إن نسلها مستمر، ولسوف يستمر، فهي، في هذه السلسلة، حلقة يمكن الركون إليها.

إن ما يقضّ مضجع العجوز أنها الساحرة الأخيرة، ولم يبق أحد غيرها، فالسر والقوة اللذان ورثتهما عن الآباء والأجداد، واللذان ظلا، على مدى مئات السنين، يقرنان بالعظمة، على وشك أن يتلاشيا. فيا لبؤس ذلك الإنسان، الذي ينقطع به نسبه، وتنقرض شجرة أصله، ويا لبؤس ذلك



الذي يحمل ثروة بني جلدته إلى القبر فتدفن معه، وتنتهي بنهايته.

فكانت العجوز تجلس في السرير، وقد مدت ساقيها القصيريتن أمامها. وهي لا تكف عن الأنين بصوت لا يكاد يبين. ومن النافذة تنداح أمام ناظريها العجوزين أرض الآباء والأجداد التي ظلت صامدة في وجه كل الخطوب والأرزاء، وتمعن العجوز النظر في هذه الأرض فتتراءى لها المصائب والأهوال التي لا تبقي ولا تذر. ويبدو لها كل ما يتراءى لها حتميًا، لا مفر منه.

لاذت العجوز بالصمت حال دخول ابنتها. وراح وجهها الخامد يرصد حركاتها، وهي تروح وتجيء في المطبخ دون أن تولي أمها أي اهتمام.

أخيرًا حزمت العجوز أمرها، فنادتها:

ـ هيهِ! تعالي هنا!

اقتربت الابنة من أمها، وتوقفت لدى السرير دون أن تواتيها الجرأة على الجلوس قربها، لكأنها تخاف انتقال عدوى الموت.

ـ إنني ساحرة ـ قالت العجوز باعتزاز.

لكن الابنة تعرف ذلك.

وتابعت العجوز بصوت حزين:

ـ لم يبق أحد آخر، فأنا الأخيرة. لكن لا يمكن لقومنا أن يبقوا من دون ساحر، وإلا حلت بهم المصيبة.

ـ بماذا تخرفين يا عجوز؟

ـ ستحل المصيبة بهم، كررت العجوز، لسوف أموت، وأرحل عن هذه الدنيا، فعليك أن تصبحي ساحرة.

ـ أي كلام فارغ هذا؟

ـ لا داعي لممارسة السحر، قالت العجوز على عجل، خشية أن تنصرف ابنتها، لا داعي لذلك. فحتى أنا لم أعد أمارسه منذ عهد بعيد. المهم أن يكون هناك ساحر. لسوف أموت، وأرحل عن هذه الدنيا.

يجب أن يكون لدى قومنا ساحر.

لقد فقدت عقلك فعلاً، قالت الابنة بغضب، ثم انصرفت إلى المطبخ.

عادت العجوز بنظرها إلى النافذة، وراحت تئن من جديد. كان الأنين الحزن المتواصل يخرج من أعماقها دون أن يلامس وجهها.

ومن باب المطبخ أطلت ابنتها، وألقت عليها نظرة تأمل، لكنها لم تقل شيئًا.

كانت العجوز تئن بتلذذ، وهي تصب في هذا الأنين كل قلقها ومخاوفها. لقد انتزعوا منها أملها الأخير، فليدعوها تودعه، إنها تودع نفسها، قبل أن تفقد ذاتها، وليس بمقدور أي كائن أن ينتزع منها حق أن تودع نفسها.

في هذا الوقت جاءت الصغيرة تجري، فصاحت الابنة:

ـ هل توقفت عن أنينك!

لم تخلد العجوز إلى الصمت فوراً، بل راحت تخنق الأنين رويداً رويداً، لكأنها تتلاشى وإياه في البعيد. لقد وأدته في داخلها، فلم يعد يتناهى إلى الخارج. وحركت وجهها قليلاً، فرأت الصغيرة.

كانت الصغيرة تنظر إليها من على العتبة بعينين ملؤهما الكآبة والدهشة، بينما كانت نظرة العجوز مفعمة بالأمل ـ هيه ـ قالت العجوز، ثم دعتها برأسها أن تقترب. دنت الصغيرة من جدتها، وجاءت الأم من المطبخ لتقف بجوارها.

ـ دعيها تصبح ساحرة ... توسلت العجوز إلى ابنتها، وهي تمد يدها نحو الصغيرة.

توقفي أيتها العجوز، قاطعتها الأم.

وناحت العجوز:

ـ لسوف تحدث مصيبة، سوف تحل المصيبة بعد رحيلي، لابد من وجود ساحر.

ـ ماذا تقول يا ماما؟ خافت الصغيرة، والتصقت بأمها.

ـ إنني الساحرة الأخيرة، لم يبق أحد غيري. وبعد موتي ستحل المصيبة، يجب أن تصبح ساحرة.

ـ إنها تحتضر، قالت الأم على عجل، فهي عجوز هرمة.

ـ والسحرة؟

لا تخافي.

ـ أوف ـ ف ـ ف ـ تأففت العجوز.

ـ توقفي... صرخت الأم.

سكتت العجوز، وأغمضت عينيها، وخرجت الصغيرة إلى المطبخ، وهي لا تزال متشبثة بأمها، ولا تكف عن التلفت نحو جدتها.

بعد ذلك لم تنبس أي منهن ببنت شفة.

أغمضت العجوز عينيها، وراحت تتذكر كيف جاءها، في الماضي البعيد، يوم كانت لا تزال صبية، يطلب يدها، رجل بوجه شمالي، وكيف تبادلا القبلات خلسة، وراحا يدخنان من غليون واحد، ولا يكفان يتلاكزان بمرفقيهما.

وإذا شعرت بمتعة الذكرى، راحت تتابعها.

ماتت العجوز ليلاً. وبعد يومين واروا جثمانها في التراب.

القرية كلها خرجت في وداعها. لم يكن الناس في عجلة من أمرهم، وهم يمرون أمام جثمانها، ويلقون النظرة الأخيرة على وجهها الخامد. وكانوا يبتعدون وهم يتهامسون، دون أن يرفع أحد صوته.

وأمام الكثيب الجديد الذي ارتفع في المقبرة، والذي ضم رفات الراحلة، ألقى رئيس الكلخوز كلمة:

ـ كانت العجوز إنساناً طيباً. ولم تكن تقل عن الرجال مهارة في صيد السمور.

ورأت الصغيرة الناس وهم يهزون رؤوسهم موافقين.

وتابع الرئيس:

ـ وفي أثناء الحرب اشترت العجوز من شهادات الاستثمار أكثر من أي أحد؛ دعماً منها للمجهود الحربي.

وأجهشت امرأتان عجوزان تقفان غير بعيد.

ـ سامحينا يا عجوز ـ قال أحد المشيعين.

ـ سامحينا يا عجوز ـ قالت الأم.

ـ لقد عملت معها في القطيع ـ فجأة قالت امرأة شابة، بصوت عال ـ وكان بودي لو أعمل معها باستمرار. إن أحداً لا يجاريها في حب العمل.

ومن جديد هز الحضور رؤوسهم موافقين.

كانت الصغيرة تقف قرب أمها وهي تنتظر بخوف أن يقول أحدهم فجأة: إن العجوز سبق وكانت ساحرة.

لكن أحداً لم يقل ذلك. وبدأ الناس يتفرقون.

ـ ماما! ـ أوقفت الصغيرة أمها، وسألتها: لماذا لم يقولوا لها هذا وهي على قيد الحياة؟ إذن، لما عرفت أنها كانت ساحرة، وأيقنت أنها كانت امرأة أخرى.

ولم تحر الأم جواباً.

قبيل الغروب جاءت الصغيرة قبر العجوز وحدها، لم تكن الشمس قد غابت بعد فبدا التراب المحفور الذي يغطي العجوز، يكاد يندمل بأرض المقبرة. ومن القرية كان يتناهى نباح الكلاب.

وقفت الصغيرة، ويممت وجهها شطر القرية، وبعد أن سعلت قالت بصوت مضطرب كمن يقدم الامتحان:

في الماضي البعيد كانت العجوز ساحرة، لكنها اهتدت.

وفي الحرب كانت أكثر من شارك في المجهود الحربي، وبعد الحرب لم تقلَّ عن الرجال براعة في الصيد، أما حينما اشتغلت في تربية العجول فقد كان الجميع يرغبون في العمل معها.

وسكتت الصغيرة، فقد فرغت جعبتها من الكلام، وبعد أن هزت رأسها عدة مرات، وكأنها توافق نفسها بنفسها، اتجهت عائدة إلى البيت.

• فالنتين راسبوتين: كاتب روسي معاصر له عدد من الروايات والقصص الطويلة والقصيرة، من أوسعها شهرة: «نقود لماريا» صدرت عن وزارة الثقافة في دمشق، و«وداع ماتيورا»، و«عش وتذكر» صدرت عن «دار التقدم» تحت عنوان «الهارب»، ثم رواية «الحريق» صدرت عن اتحاد الكتاب العرب في دمشق.

رسالة إلى المتنبي

خالد سعيد عبدالمعبود

يا عـــاشق المجـــد..أين المجـــد والنعمُ؟ | أضـاقت الأرضُ، أم قد كلَّت القدمُ؟

أراك تسكن خلف النور مــقــبــرةً | والهـــول يرقص في جنبيك والعــدمُ

حــتى كــأنك مــا ذقْتَ الـضــحى أبدًا | ولا رأيت ثغــور الحـــور تبـــتــسمُ

نجم التــمــردُ في أحــشــاء قــبــرك هل | ثوى بموتك؟ أم مـــا زال يحــتـــدمُ

اليـــوم أنت غـــريبٌ كــالحــيــاة فلم | يعـــرفْك ســيـفٌ ولا رمحٌ ولا قلمُ

قــد كــان يســمــعك الـغــافي بلا أُذنٍ | والآن جــار على أســمـاعــهم صَـمَمُ

****

يا شـــاعـــري حُطِّمَ المزمـــار والعـــودُ | واللحن صــار نواحــا والأناشــيــدُ

إذ كــيف يشــدو المُغنِّي وهو مــخــتنقٌ | والأغنيــات أصــابتْــهــا التــجــاعيــدُ

مـهــجــورةً نـزلتْ فــاليــأس يأكـلهــا | لم يأتـهـا منذ جاءت في المدى عيـدُ

كـــأنهـــا أنت في الأيام مـغـــتـــربٌ | صــديقك الخـيل والأشـعـار والبـيـدُ

حـــاولْتَ أن تـنشـــر الأنـوار في نَفَقٍ | وحــاولَــتْ زمنا، والبــاب مــوصــودُ

تكسَّــر الـغُــصْن.. لا الأطيـار باقـيــةٌ | لنا، ولا بقـــيتْ فـــينا الأغـــاريدُ

****

تعـالَ من حــدقات الغيب مـحــتـدمـا | علَّ احــتـــدامك يُذْكي شــعلة الأدَبِ

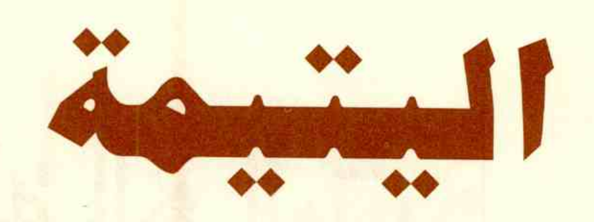
ويحـــمل الموج والأشــعـــار ثانيـــةً | نحـــو الهـــوية أو أنشـــودةِ الشـــهبِ

الخـــيل تدعـــوك أن تأتي لمزْودهـا | يومـــا وتُهــدي إليـــهـــا وردة اللـهبِ

أريد كــالخــيل من عــينيك أغنيـــةً | وإنما بيننـا ســـدٌ من الحـــقَبِ

بمقلتـــيـك دمـــوعٌ لـن تُرى أبـدا | وصـرخةٌ في صحـارى الشـاعر العربي

تريـد إرســالهـــا لكنهـــا اصطَـدَمَتْ | بواقـعٍ لا يعي شــيـئًـا عن الغـضبِ



دَوْقَلَة المنبجي

قصيدة فريدة من عيون الشعر العربي وغرره، ولروعتها وجمالها وأصالتها وتفردها أطلقوا عليها اسم «اليتيمة»، أي: التي لا شبيه لها ولا نظير.

واختلف في نسبتها، ومن الشاعر الذي قالها؟ فبعضهم عزاها إلى الشاعر العباسي علي بن جبلة، وبعضهم نسبها إلى أبي نواس. ولكن الصحيح أن صاحبها هو الشاعر المنبجيّ دوقلة. وهو شاعر مغمور لم تتحدث عنه كتب الأدب، ولم يعرف إلا بهذه القصيدة التي رسم فيها صورة لمحبوبته دعد تمثل صورة الجمال العربي كما تعشقه العربي القديم، وتوضح المثل الأعلى للجمال كما ارتسم في ذهن العربي، وكأنك أمام لوحة بارعة فاتنة أبدعتها ريشة رسام مبدع لملكة من ملكات الجمال.

هل بالطُّلول لسائلٍ رَدُّ
أم هل لها بتكلّمٍ عَهْدُ(١)

دَرَس الجَديدُ، جَديدُ مَعْهَدِها
فكأنما هي رَيْطَةٌ جُرْدُ(٢)

من طول ما تبكي الغيومُ على
عَرَصاتِها، ويُقَهْقِهُ الرَّعْدُ(٣)

وتَلُثُّ ساريةٌ وغاديةٌ
ويكرُّ نحسٌ خلفَهُ سَعْدُ(٤)

تلقاءَ شاميَةٍ يمانيَةٍ
لهما بمَوْرِ تُرابِها سَرْدُ(٥)

فكست بواطنُها ظواهرَها
نُورًا كأن زهاءَهُ بُرْدُ(٦)

فَتَبادَرَتْ دِرَرُ الشُّؤُون على
خَدِّي كما يتناثرُ العِقْدُ(٧)

لَهْفي على «دَعْدٍ» وما حَفِلَتْ
بالاّ بحَرِّ تَلَهُّفي «دعدُ»

بيضاءُ قد لبس الأديمُ بهاءَ
الحُسنِ، فهو لجِلْدِها جِلْدُ(٨)

ويَزينُ فَوْدَيْها إذا حَسَرَتْ
ضافي الغدائرِ فاحمٌ جَعْدُ(٩)

فالوجهُ مثلُ الصبحِ مُبْيَضٌّ
والشَّعرُ مثلُ الليلِ مُسْوَدُّ

ضِدّانِ لما استُجْمِعا حَسُنَا
والضِّدُّ يُظهِرُ حُسنَهُ الضِّدُّ

وكأنها وَسْنَى إذا نظرتْ
أو مُدْنَفٌ لَمَّا يُفِقْ بعدُ(١٠)

بفتورِ عَيْنٍ ما بها رَمَدٌ
وبها تُداوى الأَعْيُنُ الرُّمْدُ

وتُريكَ عِرْنينًا يزيِّنُهُ
شَمَمٌ، وخَدًّا لَوْنُهُ الوَرْدُ(١١)

وتُجيلُ مِسْواكَ الأراكِ على
رَتَلٍ كأن رُضابَهُ الشُّهْدُ(١٢)

والصَّدْرُ منها قد يُزَيِّنُهُ
نَهْدٌ كَحُقِّ العاجِ إذ يبدو

والمِعْصَمانِ، فما يُرى لهما
من نَعْمَةٍ وبَضاضَةٍ زَنْدُ

ولها بَنانٌ لو أردتَ لهُ
عَقْدًا بكفِّكَ أمكنَ العَقْدُ

وكأنما سُقِيَتْ تَرائبُها
والنحرُ ماءَ الوردِ إذ تبدو(١٣)

وبصدرِها حُقَّانِ خِلْتَهما
كافُورَتَينِ عَلاهُما نَدُّ(١٤)

والبطنُ مَطْويٌّ كما طُوِيَتْ
بِيضُ الرِّياطِ يَصونُها المُلْدُ(١٥)

وبخَصْرِها هَيَفٌ يُزَيِّنُهُ
فإذا تنوءُ يكادُ يَنْقَدُّ(١٦)

ومشتْ على قَدَمَيْنِ خُصِّرَتا
والتُفَّتا، فَتَكامَلَ القَدُّ(١٧)

ما عابَها طُولٌ ولا قِصَرٌ
في خَلْقِها، فقَوامُها قَصْدُ(١٨)

إنْ لم يكنْ وَصْلٌ لديكِ لنا
يَشْفي الصَّبابَةَ، فَلْيَكُنْ وَعْدُ(١٩)

قد كانَ أوْرَقَ وَصْلُكُمْ زَمَنًا
فَذَوَى الوِصالُ وأورقَ الصَّدُّ(٢٠)

للهِ أشْواقي إذا نَزَحَتْ
دارٌ بنا، وطَواكُمُ البُعْدُ

إن تُتْهِمي فَتِهامَةٌ وَطَني
أو تُنْجِدي، يكُنِ الهَوَى نَجْدُ(٢١)

وزعمتِ أنكِ تُضْمِرينَ لنا
ودًّا، فَهَلاّ ينفعُ الودُّ!

وإذا المحبُّ شكا الصُّدودَ ولم
يُعْطَفْ عليه فَقَتْلُهُ عَمْدُ

تَخْتَصُّها بالودِّ وَهْيَ على
ما لا نحبُّ، فهكذا الوَجْدُ!



أَوَ مـا تَرَى طِـمْـرَيَّ بينَهُـمـا

رَجُلٌ أَلحَّ بهـزلِه الجِـدُّ(٢٢)

فـالسيفُ يقطعُ وهو ذو صَـدأٍ

والنَّصْلُ يَعْلُو الهامَ لا الغِـمْدُ(٢٣)

هل تَنْفَـعَنَّ السيفَ حِلْيَـتُـهُ

يومَ الجِلادِ إذا نَبـا الحَـدُّ(٢٤)

ولقـد عَـلِمْتُ بأنني رَجُـلٌ

في الصالحـات أَروحُ أو أَغْـدُو

سَلْمٌ على الأدنى ومَـرْحَـمَـةٌ

وعلى الحوادثِ هادنٌ جَلْدُ(٢٥)

مُتَـجَلْبِبٌ ثَوْبَ العَفـافِ وقد

غَـفَلَ الرَّقِـيبُ وأَمْكَنَ الوِرْدُ(٢٦)

ومجـانِبٌ فِعْلَ القبيـح، وقد

وَصَلَ الحَبيبُ، وساعدَ السَّعْدُ

منـعَ المَطامِعَ أن تُـثَلِّـمَـني

أنّي لِمِـعْـوَلِها صَـفًـا صَلْدُ(٢٧)

فـأروحُ حُـرًّا من مَـذَلَّتِـهـا

والحُرُّ حينَ يُطيـعُـهـا عَـبْـدُ

آليتُ أَمْـدحُ مُـقْـرِفًـا أبدًا

يبقى المديحُ ويَنْفَـدُ الرِّفْـدُ(٢٨)

هيـهـاتَ، يأبى ذاك لي سَلَفٌ

خَـمَـدُوا ولم يَخْـمُـدْ لهمْ مَـجْـدُ

والجَـدُّ كِنْدةُ والبَنُونَ هُـمُ

فَـزَكـا البنونَ وأنجبَ الجَـدُّ(٢٩)

فلئن قَـفَـوتُ جميلَ فِـعْلِهِمُ

بِذَميـمِ فِـعْلِي، إنني وَغْـدُ(٣٠)

أَجْـمِـلْ إذا حـاولتَ في طَلَبٍ

فـالجِدُّ يُغني عنك لا الجَـدُّ(٣١)

لِيَكُنْ لَـدَيْكَ لسـائلٍ فَـرَجٌ

أو لم يكنْ.. فَلْيَـحْـسُنِ الرَّدُّ

الهوامش

١- الطُّلول: جمع طَلَل، وهي ما يتخلف من الآثار والديار بعد زوالها.
٢- درس: زال وامّحى. معهدها: ما عهد فيها من آثار الحياة والإقامة. رَيْطة جرد: أي مُلاءة بالية أو ثوب مهترئ.
٣- عرصاتها: ساحاتها.
٤- تلث: تدوم وتستمر أيامًا. السارية والغادية: السحب الممطرة.
٥- مَوْر ترابها: إثارة ترابها وتحريكه بشدة. سرد: تتابع. الشامية واليمانية: أسماء للسحاب الممطر بحسب اتجاه قدومه.
٦- الزهاء: النضرة. البرد: الثوب المخطط.
٧- درر: جمع درة؛ ما يدر من المطر واللبن، والمراد هنا بدرر الشؤون: دموع العينين المنهمرة.
٨- الأديم: الجلد.
٩- الفودان: جانبا الرأس مما يلي الأذن. جعد: متجمع كثيف، والمقصود به (الشعر).
١٠- وسنى: أخذها النوم الشديد. المدنف: من ثقل عليه المرض.
١١- العرنين: الأنف. الشمم: الترفع والكبرياء.
١٢- الرتل: الفم الجميل الأسنان في بياض ولمعان. الرضاب: المقصود به ماء الفم.
١٣- الترائب: عظام الصدر. النحر: أعلى الصدر.
١٤- النَّد: عود طيب الرائحة يتبخر به.
١٥- الرياط: جمع ريطة، وهي الملاءة. المُلد: جمع ملداء، وهي المرأة الناعمة.
١٦- الهيف: ضمور البطن ورقة الخاصرتين. تنوء: تنهض بجهد ومشقة. ينقد: ينكسر.
١٧- القد: القوام.
١٨- قصْد: سوي معتدل ليس به طول أو قصر.
١٩- الصبابة: شدة الوجد والهيام.
٢٠- أورق وصلكم: طاب وصالكم وواتى وأينع.
٢١- إن تتهمي أو تنجدي: إن تنتسبي إلى تهامة أو نجد.
٢٢- طمريّ: مثنى طمر، وهو الثوب البالي.
٢٣- الهام: جمع هامة، الرأس.
٢٤- نبا: زاغ ولم يصب.
٢٥- هادن: ساكن. جلد: صبور قوي.
٢٦- الورد: الوصال والارتواء من الحب.
٢٧- تثلمني: تحرجني وتعيبني. صفا: جمع صفاة: الصخرة أو الحجر الضخم. الصلد: الصلب القوي.
٢٨- مقرفًا: غنيًا، كثير اقتناء المال. الرفد: العطاء.
٢٩- زكا: أفلح ونجح.
٣٠- قفوت: تبعت
٣١- أجمل: اعتدل ولا تفرط. الجَدُّ: الحظ.

موقف الرمال
موقف الجناس

محمد الثبيتي

النص الأول

ضمني،
ثم أوقفني في الرمال
ودعاني:
بميمٍ وحاءٍ وميمٍ ودال
واستوى ساطعًا في يقيني
وقال:
أنت والنخلُ فرعانِ
أنت افترعت بنات النوى
ورفعت النواقيسَ
هن اعترفن بسرٍّ النوى
وعرفن النواميس
فاكهة الفقراءِ
وفاكهة الشعراءِ
تساقيتما بالخليطين:
حمرًا بريئًا وسحرًا حلالْ

*****

أنت والنخل صنوانِ
هذا الذي تدعيه النياشينُ
ذاك الذي تشتهيه البساتينُ
هذا الذي
دَخَلَتْ إلى أفلاكه العذراءْ
ذاك الذي
خَلَدَتْ إلى أكفاله العذراءْ
هذا الذي في الخريف احتمالٌ
وذاك الذي في الربيع اكتمالْ

*****

أنت والنخل طفلانْ
واحد يتردد بين الفصولْ
وثانٍ يردد بين الفصولْ:

أُصادق الشوارعْ
والرمل والمزارعْ
أُصادق النخيل

*

أصادق المدينهْ
والبحر والسفينهْ
والشاطئ الجميلْ

*

أُصادق البلابلْ
والمنزل المقابلْ
والعزف والهديلْ

*

أصادق الحجارهْ
والساحة المُنارهْ
والموسم الطويلْ

أنت والنخل طفلان
طفل قضى شاهداً في الرجال
وطفل مضى شاهرًا للجمالْ

*****

أنت والنخل سيان
قد صرتَ دَيْدَنَهُنَّ

وهنّ يداكْ
وصرتَ سماكًا على سَمْكِهِنَّ
وهن سَماكْ
وهن شهدْن أُفول الثريَّا
وأنت رأيت بزوغ الهلالْ

****

تسري الدماء من العذوق
إلى العروق
وتنتشى لغة البروق:
أي بحر تجيد؟
أي حبر تريد؟
- سيدي لم يعد سيدي
ويدي لم تعد بيدي
قال:
أنت بعيد كماء السماء
قلتُ:
إني قريب كقطر الندى
المدى والمدائنُ
قفر وفقرُ
والجنى «والجنائنُ»
صِبر وصَبرُ
وعروسُ السفائنِ
ليلٌ وبحرُ
ومدادُ الخزائنِ
شطرٌ وسطرُ
قالَ:
يا أيها النخلُ
يغتابك الشجر الهزيلْ
ويذمُّك الوتد الذليلْ
وتظلُّ تسمو في فضاء اللهِ
ذا ثمرٍ خُرافيّ
وذا صبرٍ جميلْ
قالَ:
يا أيّها النخلُ
هل ترثي زمانكَ
أم مكانكَ
أم فؤادًا بعد ماء الرُّقيتين عصاكْ
حين استبدَّ بك الهوى
فشقَقْتَ بين القريتين عصاكْ
وكتبتَ نافرة الحروف ببطن مكةَ
والأهلَّةُ حول وجهك مستهلَّةُ
والقصائد في يديك مصائدُ
والليل بحر للهواجس والنهارُ
قصيدة لا تنتمي إلا لباريها
وباري النايْ
يا طاعنًا في النأيْ
إسلمْ،
إذا عثرتْ خُطاكْ
واسلمْ،
إذا عثرتْ عيون الكاتبين على
خَطاكْ
وما خَطاك؟!
إني أُحدِّقُ في المدينة كي أراكَ
فلا أراكْ
إلاَّ شميمًا من أراكْ

النص الثاني

أمضي إلى المعنى
وأمتصُّ الرحيق من الحريقِ
فأرتوي
وأعلُّ
من
ماء
الملامِ
وأمرُّ ما بين المسالك والمهالك
حيث لا يمٌّ يلمُّ شتات أشرعتي
ولا أفقٌ يضمُّ نثار أجنحتي
ولا شجرٌ
يلوذ

به حمامي
أمضي إلى المعنى
وبين أصابعي تتعانق الطرقاتُ
والأوقات، ينفضُّ السراب عن
الشرابِ
ويرتمي
ظلي
أمامي
أفتضُّ أبكار النجوم
وأستزيد من الهمومِ
وأنتشي بالخوف حين يمر من
خدر
الوريدِ
إلى
العظام
وأجوب بيداء الدجى
حتى تباكرني صباحات الحجا
أرِقًا
وظامي

***

- إني رأيت.. ألم ترا؟
- عيناي خانهما الكرى
وسهيلٌ الْقى في يمين الشمس
مهجته وولّى والثريّا حلَّ في
أفلاكها
بدرٌ
شآمي
يا بدرها
وهدى البصيرهْ
يا فخرها
وهوى السريرهْ
يا مُهرها
وحمى العشيرهْ
يا شعرها
ومدى الضفيرهْ

***

في ساحة العثرات
ما بين الخوارج والبوارجِ
ضج بي
صبري
وأقلقني
مُقامي
فمضيت للمعنى
أحدقُ في أسارير الحبيبة كي
أسمِّيهَا
فضاقت
عن
سجاياها
الأسامي
ألفيتها وطني
وبهجة صوتها شجني
ومجد حضورها الضافي مُنايَ
وريقها
الصافي
مُدامي
ونظرت في عين السما
فخَبَتْ شرارات الظما
وانشقَّ
عن مطرٍ
غمامي
للبائتين على الطَّوى
والناشرين لما انطوى
والناظرين
إلى
الأمام
للنخل للكثبان للشيح الشماليِّ
وللنفحات من ريح الصَّبا
للطير في خضر الربا
للشمس للجبل
الحجازيِّ
وللبحر
التهامي

مقتنيات من التراث الفني الإسلامي

ترجمة: **نعيم الغول**



مصحف مكتوب على رَقّ (البرشمان) بلنسية بالأندلس، ٥٩٦هـ/١١٩٩ - ١٢٠٠م)

تعد مجموعة مقتنيات الدكتور ناصر خليلي من التراث الفني الإسلامي من أثمن المقتنيات الفنية التي قام بفهرستها الخبراء في هذا الفن، وهي تعبر عما يملكه الدكتور خليلي من إخلاص والتزام ورؤية تجاه هذا النمط من التراث الإسلامي.

وقد أفردت مجلة «الفنون والعالم الإسلامي» ARTS & THE ISLAMIC WORLD عدداً خاصاً عن مقتنيات الدكتور ناصر من ذخائر الفن الإسلامي، والذي ينتمي إلى أسرة تتوارث الاهتمام بهذا الفن خلال أجيال متعاقبة، وأشار هو بنفسه إلى هذا الاهتمام بقوله: «إن وراء كل جامع ناجح للفنون تاجراً ذا ضمير وعلم واسع بالفن، وعلى الجامع أن يبدي الحب والاحترام لما يجمعه، وللحضارة التي أنتجته».

وكان أول كرسي يخصص للفنون الزخرفية الإسلامية في الجامعات الغربية هو كرسي ناصر خليلي الدائم للفن والآثار الإسلامية في جامعة لندن، كما خصصت زمالة بحوث في



ألبوم من الخط من نسخ الشيخ حمد الله (تركيا، نسخ في القرن الخامس عشر)

الفن الإسلامي باسمه في جامعة أكسفورد.

وعرض الخليلي منذ سنوات في حفل جمع خبراء فنون عالميين، وبعض رجالات السياسة والدبلوماسيين أربعة مجلدات مفهرسة من بين ستة وعشرين مجلدًا ينوي نشرها.

وأشار البروفسور مايكل روجرز، والدكتور جوليان رالي إلى أن بعض الناس كانوا يعلمون ما يقوم به الدكتور ناصر من نشاط واسع لجمع مقتنيات الفن الإسلامي، إلا أن قليلاً منهم كانوا يعرفون حجم مجموعته ونوعيتها؛ لأنه يتجنب عن عمد الإدلاء بأي تصريح عام، ولم يكن يدرك حجم هذه المجموعة الضخمة من المقتنيات الفنية ونوعيتها إلا نفر قليل من المقربين إليه من العلماء، وهذه المقتنيات تعدّ من أفضل المقتنيات الفنية في العالم أجمع حجمًا ونوعًا.

ويؤكد ناصر الخليلي أنه كان صاحب رؤية في هذا الميدان، وقد تحققت بعون الله، وأشار إلى أن المجلدات الستة والعشرين تشكل مسحًا لفنون البلدان الإسلامية، وهي عمل فريق من العلماء من شتى أنحاء العالم، مبديًا أمله في أن يلقى الاعتراف اللائق به في عالم الثقافة الإسلامية. ونوه بأن خروج هذه المقتنيات إلى جمهور أوسع يحتاج إلى إنشاء متحف.

وبما أن لندن تعد ثرية بما فيها من الآثار الفنية الإسلامية، فإن وجود هذه المجموعة الفريدة للدكتور ناصر الخليلي بها يعزّز مكانتها، ويجعلها مركزًا عالميًا.

وقال البروفسور روجز عن مجموعة الأواني:

«لقد تشكلت مجموعة مقتنيات الخليلي بشكل كبير على أساس مدخل تنظيمي وتاريخي، وبشكل ضئيل جدًا على أساس رؤية عنصرية. فلم يسبق لأحد أن جمع الآنية الخزفية للحقبة التيمورية على أسس تصنيفية؛ لقد أُنتج ذلك الخزف في إيران، وأواسط آسيا في القرن الخامس عشر، وهي الحقبة التي شهدت اتصالات دبلوماسية وتجارية مكثفة مع الصين، وتحتوي تلك المجموعة على ما يزيد على ستين قطعة تنضوي تحت هذه الفئة، وتوفر هذه القطع الحاجة الكبيرة إلى تمحيص عام لهذا الموضوع. ويؤمل أن تعرض في وقت لاحق جنبًا إلى جنب مع الآنية الصينية الزرقاء والبيضاء؛ وذلك من أجل توضيح الصلات الكاملة بين تلكما الآنيتين».

أما رابي فيشير إلى أن مخطوطات المجموعة، وكتبها النادرة تحظى باهتمام خاص، ومنها نسخ رائعة لأطلس (مصور جغرافي) من القرن السابع عشر رسمها بيري ريس PIRI REIS (رسام الخرائط العثماني) الذي عاش في القرن السادس عشر. هذا وقد تضمن مجلد مرافق لذلك الأطلس جوانب من حياته وأعماله. وحيث إن خريطة العالم التي رسمها بيري ريس في عام ١٥١٣م التي تستقي معلوماتها من خريطة مفقودة للعالم كان رسمها كريستوفر كولمبس، فقد عُنون المجلد باسم: بيري ريس وصناعة الخرائط التركية بعد كولمبس.



شاه جاهان على النافذة في الحصن الأحمر (الهند، عام ١٦٥٠م تقريبًا)

أما الدكتور ناصر نفسه فيتحدث عن مجموعته قائلاً:

«لقد كنت أطمح إلى تجميع مجموعة شاملة من الفن الإسلامي بقدر الإمكان، فكانت مكافأتي على مدة تزيد على العقدين من العمل الجاد هي مجموعة توضح كامل الثقافة الإسلامية المادية للشعوب الإسلامية. ويعد كثير من هذه المقتنيات على درجة عالية من المستوى الفني، وإنها تمنحني سروراً عظيمًا، ويحدوني الأمل والثقة أن يستمتع بها أناس آخرون أيضًا، ولكن لم تفتني الأشياء التي صنعت خصيصًا للملوك والملكات.

كما أنني حاولت أيضًا أن أجمع منتجات الحرفيين التي صنعت للاستخدام في الحياة اليومية؛ ولهذا السبب سيكون فهرس هذه المجموعة مسحًا ودراسة أصيلة لفنون العالم الإسلامي». وأضاف:

«يعد التجميع بطبيعته نشاطًا خاصًا. إنني أومن أنه حتى لو كان أحدهم يمتلك أعظم مجموعة فنية في العالم، فلن يكون لتلك المجموعة أي أثر مادام أنها مخفية عن عيون الجمهور، وبأخذ ذلك في الحسبان بحثت عن أساليب تسهل وصول هذه المجموعة إلى أكبر عدد ممكن من أفراد الجمهور فرأيت أن أفضل وسيلة تكون بوضعها في عمل منشور.

إنني على ثقة من أن أي شخص يرى هذه الكتب التي تحتوي على وصف المجموعة سوف يثمن مدى الإخلاص والعمل الجاد الذي أنجزه أمناء المكتبات والمصممون والمصورون والطابعون ممن شارك في هذا الإنتاج، وهم فريق من العلماء في أنحاء العالم كافة، وأن إنجازهم هذا سيجد الاعتراف الذي يليق به في عالم الثقافة الإسلامية، والمجموعة دون شك في حاجة إلى وسائل أخرى تجلي لقطاع عريض من الناس ما هي عليه الثقافة الإسلامية من ثراء؛ وهو ما يتطلب إنشاء متحف يضم بين جناحيه مجموعة المقتنيات هذه.

.. هنالك مثل فارسي غالبًا ما يستخدم لزخرفة الأعمال الفنية «في نهاية المطاف الملك كله لله وحده، ونحن مجرد قيِّمين عليه».

فهل هنالك تعبير أخلاقي أكثر من ذلك يسوغ إنشاء متحف عام للفن».

وعن رؤيته للفن يقول ناصر خليلي:

«الفن هو اللغة العالمية التي بإمكانها أن توحد قلوب البشر متخطية كل الحواجز والحدود، نافذة إلى كل مكان».

ونورد فيما يأتي معلومات موجزة عن الأنماط التي تحتوي عليها المجموعة.

المخطوطات

تحتوي المجموعة على عدد كبير من المصاحف المخطوطة، تعد أمرًا أساسيًا لفهم تطور الكتاب الإسلامي. إن هذه المخطوطات ليست مقتصرة على منطقة أو حقبة معينة، وإنما تنتمي إلى أماكن مختلفة مثل إسبانيا، وشمال الهند. كما أنها تضم بعض أعمال الخطاطين التي تبرز جماليات الخط العربي.

المنمنمات

وتضم المجموعة ـ أيضًا ـ منمنمات موزعة على عدة أعمال ذات أهمية أدبية وفنية رئيسة، من أهمها نسخة عن تاريخ رشيد الدين كانت سابقًا مُلكًا للجمعية الأسيوية الملكية تعد واحدة من أعظم المخطوطات المزخرفة والمصورة في العصر الوسيط شرقًا وغربًا.

ويتم الإعداد لعمل نسخة مثيلة بالتصوير لتلك المخطوطة يرافقها دراسة رئيسة تقوم بها شيلا بلير SHEILA BLAIR.

وقد يكون من بين أهم المخطوطات غير المصورة والمزخرفة نسخة من ديوان ابن عربي بخطه، ويحمل ملاحظة تبيّن أنه قُرئ من قبل طالب في منزله قبل بضع سنوات من وفاته عام



إبريق فضي عثماني صنع في تركيا في أواخر القرن الخامس عشر

١٢٤٠م، وهنالك عمل آخر ذو أهمية تاريخية، وهو نسخة مملوكية من قصيدة الحجاب من تأليف الإمام البوصيري نظمها عام ١٣٦٣م تقريبًا في سلطان مراكش المريني حين نفاه من بلاده.

الأعمال المعدنية

تشمل مجموعة ناصر الخليلي نحو ألف عمل من المشغولات المعدنية، ويمتد تاريخها من الحقبة الساسانية إلى القرن التاسع عشر. والجدير بالملاحظة تنوع حجم الأشياء التي تم تمثيلها، ففي الوقت الذي توجد فيه أعمال دقيقة من أنماط مشهورة، هنالك كثير من الأعمال الفريدة سواء في الشكل أو الزخرفة.

وهنالك عدة أعمال ذات أهمية تاريخية كتب عليها تاريخها، وأسماء الفنانين المنفذين لها، وأسماء من وقفوا وراءهم ورعوهم. ومن الأمثلة على ذلك محبرة مرصعة بالفضة يعود تاريخها إلى ٦٠٧هـ/١٢١٠م صنعت لمصلحة الحاج محمد بن حسن بن أبو سعيد، كما تعد الصينيتان اللتان صنعتا لمصلحة أمير خراسان اختيار الدين محمد بن علي خاربوست على درجة كبيرة من الأهمية التاريخية. احتل خاربوست الذي ينحدر من سلالة ملوك عظام من أسرة غور وحاكم بيشاور، وكان قد احتل (غزنه) GHAZANA في عام ١٢٢٠م، واغتيل هناك في العام نفسه. ومن بين القطع الموسومة مقلمتان من صنع الحرفي البارع شادي نقاش.

العلم والسحر

ومن النفائس التي تشتمل عليها مقتنيات الدكتور ناصر خليلي مجموعة كبيرة مهمة من المواد والمخطوطات ذات الصلة بالحضارة الإسلامية، ومع أنها قد لا تتصف بسمة جمالية عظيمة، إلا أنها تجسد الأساليب الفنية، والمبادئ التصميمية التي تفوق استعمالاتها العملية المباشرة، وقد وصفت هذه الأشياء في مجلد تحت عنوان واسع هو «العلم والسحر والأدوات»، ومن بين الأدوات المشمولة أجهزة فلكية وتنجيمية معظمها من النحاس المحفور، بالإضافة إلى عدد من الموسوعات الطبية، والتمائم (التعاويذ)، وأجهزة تتعلق بالسحر والكهانة، ومواد تخص التجار والمنازل، مثل: الموازين والأثقال والملاعق والأقفال. إن كثيراً من الأشياء من هذا النمط لم يسبق أن فُهرست بطريقة تصنيفية نظامية؛ ولذلك فإن هذا المجلد يجمع بين دفتيه معلومات مبعثرة، ويقدم مجموعة كاملة من المواد لإخضاعها لمزيد من الدراسات المقارنة. كانت الأجهزة الفلكية ترتبط بشكل رئيس بثلاثة دوافع أساسية لعلم الفلك الإسلامي هي: تحديد أوقات الصلاة فلكيا، وتحديد اتجاه القبلة، وتعليم علم الكونيات والتنجيم. والغرض الأخير المبني على ما ورثه المسلمون من البلدان الإغريقية والهند أصبح جزءاً مهمًا وأصيلاً من النشاط العلمي الإسلامي الذي شكل في معظمه أسس علم الفلك الأوروبي، وذلك بدءًا من القرن الثاني عشر فصاعداً، وذلك بعد انتقاله من إسبانيا إلى أوربا في العصور الوسطى.



علبة جواهر نحاسية مطعمة (مرصعة) بالفضة جاءت من منطقة الجزيرة (سورية)، ووصنعت في النصف الأول من القرن الثالث عشر

وعاء مرصع بالفضة عليه اسم السلطان المملوكي قلاوون، القرن الرابع عشر الميلادي

ومن بين الأجرام السماوية، هنالك جرم دقيق جداً نقشت عليه صور الأبراج ومواقع نحو ١٠٢٤ نجماً بنقط فضية فرغ من صنعه في عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م محمد بن محمود الطبري، وهناك جرم مماثل تقريباً لهذا الجرم موجود في متحف اللوفر في باريس. ولعل من المفيد إقدام أحد الباحثين على إجراء مقارنة بين جرمين في المجموعة: أحدهما محفور باللغة السنسكريتية بجانب اللغة العربية، وكلاهما ممهور بتوقيع محمد صالح طاطاوي أحد المنجمين في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي. كما يوجد أيضاً جرم من القرن الثامن عشر الميلادي ذو نمط فريد وروائع التصنيع، وجرم تم نسخه بين الأعوام ١٨٤٢ - ١٨٤٧ لمصلحة أمجد علي شاه، وهنالك المزيد من الأجرام الحديثة صنعت على مثال الجرم الأخير في الهند في أثناء الحكم الإسلامي، مما يتيح للأفكار التنجيمية والأيقونات أن تتواصل، ويمكننا من تتبعها.

وتعطي مجموعة العلامات والطلاسم (التعاويذ) الإسلامية في مقتنيات الدكتور الخليلي انطباعاً خاصاً بسبب الأعداد الكبيرة من الأشياء التي تحتويها التي تبلغ ٢٨٠٠ عمل تقريباً. وما لا يقل عن ٢٣٠٠ عمل من هذه الأعمال هو أختام وعلامات معظمها محفور من حجارة شبه كريمة أو من المعدن.

ومع أن نسبة كبيرة من العلامات والطلاسم ذات تاريخ حديث نسبياً، أي تعود إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، بل يعود بعضها إلى أوائل القرن العشرين الحالي إلا أن أعمال المجموعة من الأحكام والعلامات التي يعود تاريخها إلى الحقبة التي يطلق عليها الحقبة الكلاسيكية الممتدة من القرن السابع إلى القرن الثالث عشر تعد أكبر وأكثر المجموعات من نوعها أهمية في العالم.

السجاد والمنسوجات

تشمل مقتنيات الدكتور ناصر خليلي نحو مئتي سجادة، وقطعة منسوجة، ويعود تاريخ أبكر هذه المنسوجات إلى الفترة الممتدة من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر الميلاديين، وهي تعد أمثلة نادرة على فن النسيج العباسي والفاطمي، كما أنها على درجة كبيرة من الأهمية. أما أبرز هذه المنسوجات من وجهة النظر الفنية فهي المنسوجات المطرزة بالذهب والمُخمل التي تعود إلى الحقبتين العثمانية والصفوية.

المصنوعات الزجاجية

تقدم مجموعة الدكتور الخليلي للحقبتين ما قبل الإسلام والحقبة الإسلامية تاريخ المصنوعات الزجاجية القديمة، وتشمل نحو ٤٠٠ عمل، وتركز على الجانب البصري الذهني لتطور تقنية صناعة الزجاج بدءاً من الأصول البيزنطية والساسانية امتداداً إلى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

وتحتوي المجموعة على نحو أربعة وعشرين عملاً من المصنوعات الزجاجية جاءت من الساحل السوري الفلسطيني. وهذه الصناعات كانت بداية مرحلة تطور الصناعة الزجاجية الإسلامية اللاحقة التي برزت في تلك المناطق نفسها.

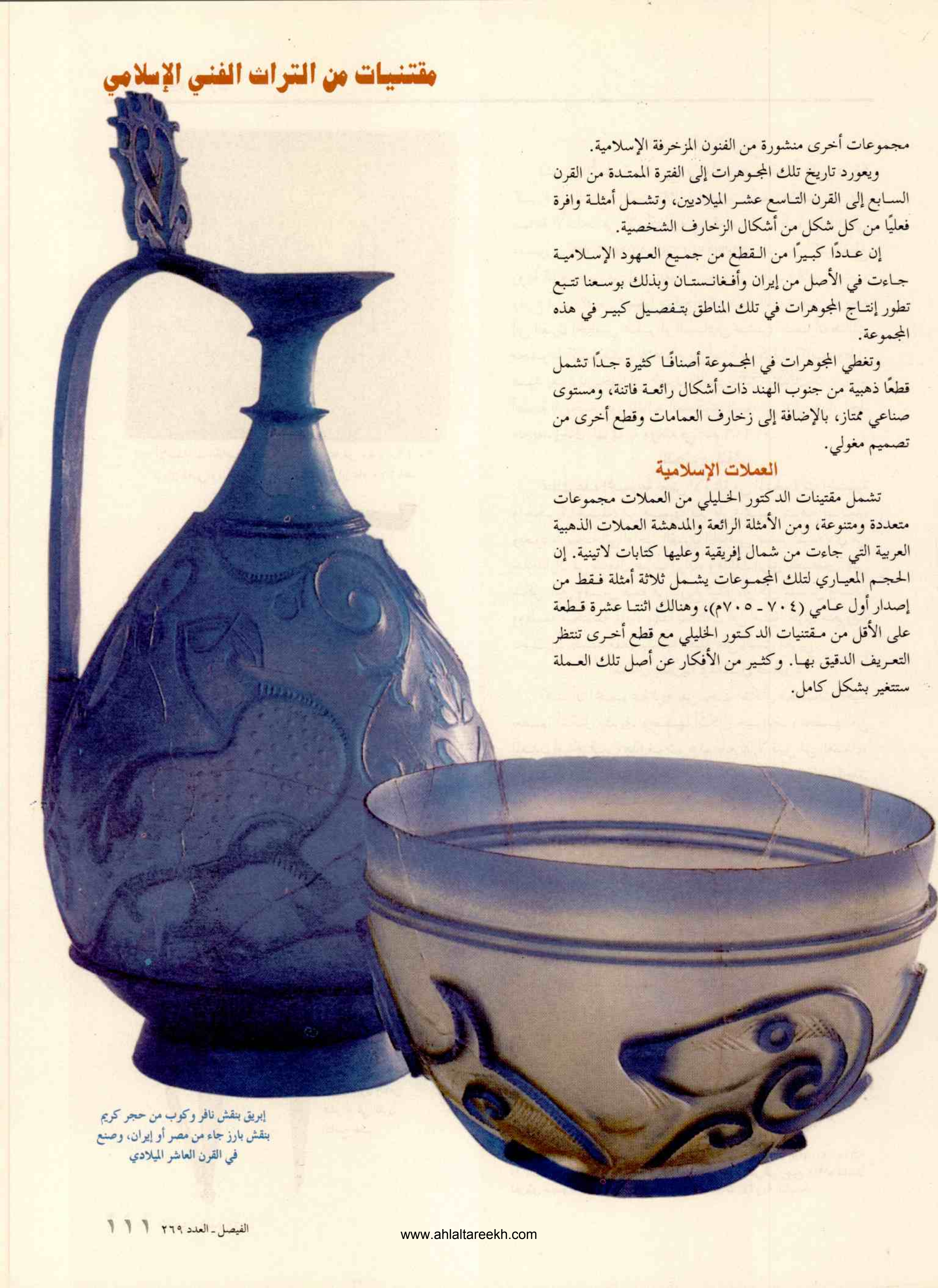
ويوجد ما يزيد على ستين قطعة آنية مصنوعة بقوالب منفوخة في تلك المجموعة، من بينها سبعة أعمال بقوالب منفوخة عليها نقوش وكتابات منها: إبريقان صغيران نمطيان يعودان إلى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، وقارورة بسيطة كبيرة زرقاء ذات عنق طويل كروي تنتمي إلى النمط الجرجاني في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين.

وتشكل الآنية الزجاجية من مجموعة الدكتور الخليلي مجموعة شاملة وفريدة من مادة تطرح لمزيد من الدراسة لهذا النمط الفني المدهش الرائع.

المجوهرات الإسلامية

تتسم المقتنيات الرائعة جداً من المجوهرات الإسلامية ضمن مجموعة الدكتور الخليلي بالشمول بطريقة لا يمكن أن تزعمها أية

معطف مخملي من صنع إيران في أواسط النصف الثاني من القرن السابع عشر، وقماش مخملي مطرز بالذهب، وخيوط ذهبية وفضية



مجموعات أخرى منشورة من الفنون المزخرفة الإسلامية.

ويعورد تاريخ تلك المجوهرات إلى الفترة الممتدة من القرن السابع إلى القرن التاسع عشر الميلاديين، وتشمل أمثلة وافرة فعليًا من كل شكل من أشكال الزخارف الشخصية.

إن عددًا كبيرًا من القطع من جميع العهود الإسلامية جاءت في الأصل من إيران وأفغانستان وبذلك بوسعنا تتبع تطور إنتاج المجوهرات في تلك المناطق بتفصيل كبير في هذه المجموعة.

وتغطي المجوهرات في المجموعة أصنافًا كثيرة جدًا تشمل قطعًا ذهبية من جنوب الهند ذات أشكال رائعة فاتنة، ومستوى صناعي ممتاز، بالإضافة إلى زخارف العمامات وقطع أخرى من تصميم مغولي.

العملات الإسلامية

تشمل مقتنيات الدكتور الخليلي من العملات مجموعات متعددة ومتنوعة، ومن الأمثلة الرائعة والمدهشة العملات الذهبية العربية التي جاءت من شمال إفريقية وعليها كتابات لاتينية. إن الحجم المعياري لتلك المجموعات يشمل ثلاثة أمثلة فقط من إصدار أول عامي (٧٠٤ - ٧٠٥م)، وهنالك اثنتا عشرة قطعة على الأقل من مقتنيات الدكتور الخليلي مع قطع أخرى تنتظر التعريف الدقيق بها. وكثير من الأفكار عن أصل تلك العملة ستتغير بشكل كامل.

إبريق بنقش نافر وكوب من حجر كريم بنقش بارز جاء من مصر أو إيران، وصنع في القرن العاشر الميلادي



أحد الإصدارات الخاصة لخزينة قاجار، مجموعة من ٥٠ و ٢٠ و ١٠ تومان ذهبي تم سكه في مدينة السلطنة طهران عام ١٢١٠هـ

الأسلحة والدروع

تشمل الأسلحة والدروع في المجموعة أعمالاً على درجة كبيرة من التنوع والاستقلال تراوح بين سيف صليبي من دار صناعة الأسلحة في الإسكندرية ومدفع من قصر طيبو سلطان في ميسوري TIPPO SULTAN AT MYSORY. ومن بين أكثر القطع روعةً قناع حربي من إيران يعود تاريخه إلى القرن الخامس عشر، ودرع لرأس الفرس ممهوراً بتوقيع صانع ذلك الدرع يعود تاريخه إلى القرن الخامس عشر أو السادس عشر، كما أن هنالك مجموعة كبيرة مثيرة للاهتمام من أنواع مبكرة للركاب، وطبل صيد يعود تاريخها إلى القرن الثالث عشر. وهنالك سيف ذو أهمية تاريخية يعود للقائد العسكري السوداني علي دينار أُخذ منه بعد إلحاق الهزيمة به ووفاته في عام ١٩١٦م.

النحت والنقش

تمتلك هذه المجموعة بعض الأمثلة من المشغولات الخشبية والحجرية الجميلة، من ضمنها قبر فارغ ممهور بتوقيع صانعه، ويعود تاريخه إلى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي من مازنداران في شمال غرب إيران، وهنالك إبريق بمقبضين على شكل تنّين وفرس صنع في تاريخ مماثل، ولكن بمقاس ومادة ووظيفة مختلفة تمامًا؛ وهذا يختلف عن أمثلة أخرى معروفة بحيث إن جسمه مفعم بشبكة ذهبية على النسق الغربي.

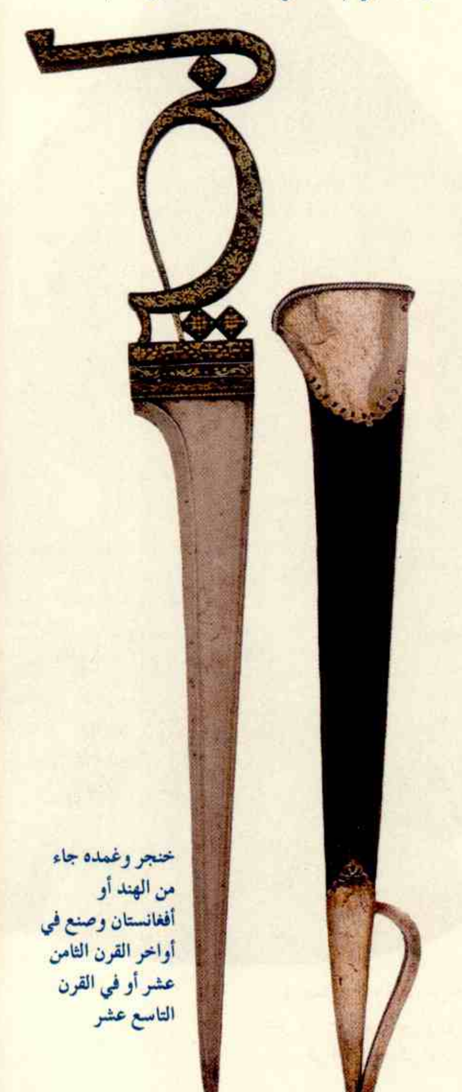
أشكال بشرية وتماثيل صغيرة

كما أن المجموعة ثرية بفن نحت أشكال الكائنات الحية بعضها أشكال بشرية، وبعضها أشكال حيوانية، ومعظمها من المعدن أو الخزف. وهذا موضوع لم يأبه به إلا قليل من العلماء؛ ولذلك فقد تقرر تصنيف هذه المنحوتات معًا في مجلد واحد. ومن الأمثلة الفريدة تمثال مصنوع من الخزف بارتفاع ٤٣سم يبين شخصًا ملتحيًا وهو راكع في الصلاة.

لقد صنع هذا التمثال في قاشان في عهد المنغوليين في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، ومع ذلك فإن نمط نقشه يشخصه على أنه تمثال للحاكم السلجوقي طغرل بيك.

الصقل الإسلامي

تعد مقتنيات الدكتور ناصر خليلي أكبر مجموعة من الأشياء المصقولة. وتشتمل تلك المجموعة على ما يزيد على ٥٠٠ مقلمة وتجليدات كتب وعلب مرايا، وعلب مجوهرات، وصناديق، ومن بين الأشياء القليلة غير الاعتيادية قرط مع التمثال النصفي للشاه عباس الثاني الذي ربما ارتدته إحدى حريم قصره، بالإضافة إلى طاولة النرد الوحيدة المعروفة التي تنسب إلى محمد حسن خان.



خنجر وغمده جاء من الهند أو أفغانستان وصنع في أواخر القرن الثامن عشر أو في القرن التاسع عشر

هذا المقال ترجمة مختصرة مع تصرف بإذن خاص من مجلة ARTS AND THE ISLAMIC WORLD التي خصص عددها رقم ٢٢ الصادر في ربيع ١٩٩٣م كاملاً لعرض مجموعة الدكتور ناصر خليلي من المقتنيات الآثارية النفيسة.

مستقبل الهوية المغربية أمام التحديات المعاصرة

مجموعة باحثين مراجعة: **قسم التحرير**

أساس هذا الكتاب ندوة أقامتها لجنة القيم الروحية والفكرية التابعة لأكاديمية المملكة المغربية في الفترة من ٢٦ - ٢٧ شعبان ١٤١٧هـ (٦-٧/٧/١٩٩٧م)، وشملت الندوة مدخلاً تمهيديًا ومحورين هما:

الجانب الاجتماعي والاقتصادي: ويتناول إشكالية التربية والتعليم، والآفات الاجتماعية المترتبة على ظاهرة الهجرة الداخلية من القرى إلى المدن، والهجرة الخارجية من المغرب إلى بلاد العالم الأخرى، وقضايا توفير السكن، والعمل، وانعكاساتها الاقتصادية، ثم البحث عن نموذج لمشروع مجتمع مغربي واعد.

- الجانب الفكري: ويتطرق إلى الإشكالية اللغوية، والازدواجية من ناحية المحاسن والمساوئ والأبدال، والتوفيق بين الموروث الحضاري والتطلعات المستقبلية، والأنماط الاجتماعية/ الثقافية وإشكالية الانتماء، والهوية، ووحدة الخطاب الثقافي، ودور الكتاب، والقصة، والمسرح، ووسائل الإعلام في دعم الهوية المغربية، ودور المثقفين في مواجهة مختلف التحديات توحيدًا للخطاب الثقافي.

وجاء تناول هذين المحورين في أحد عشر بحثًا، وأعقبت كل بحث مناقشات مستفيضة لما ضمه من طروحات.

المدخل التمهيدي للندوة قدمه عباس الجراري، مدير الندوة، وتطرق فيه إلى تعريف الهوية، ودلالات عنوان الندوة مشيرًا إلى أن «الحديث عن الهوية بالنسبة للمغرب - لا سيما وهي توضع في سياق المستقبل والتحديات - ينبغي أن يراعي المقومات الطبيعية والبشرية، وحال المجتمع الذي نشأ في ظل هذه المقومات، وما له من خصوصيات». وأكد أن الهوية المغربية هي هوية إسلامية؛ إذ أعاد الإسلام صوغ المغرب، وغيّر مجرى الحياة فيه، وأكسبه مقومات الثبات في ظل ما واجهه من تحديات.

ومن التحديات الحاضرة التي تواجه المغرب الإحباط النفسي لعدم القدرة على مواكبة الغرب، مما أدى إلى ظهور هوة تتعمق يومًا بعد يوم تفصل الأجيال الصاعدة عن هويتها، وفي هذا الإطار تناول التعليم وما يتعرض له من اضطراب، وبعد عن الخط الوطني السليم، أما العامل الخارجي فيتمثل في الغرب بحضارته، وثقافته، وما اكتسب بهما من قوة استغلها في أن فرض نفوذه الذي تحول من الاحتلال العسكري المباشر إلى الغزو الفكري، والابتلاع الاقتصادي، والتدمير الخلقي



مستقبل الهوية المغربية أمام التحديات المعاصرة

مجموعة باحثين

تطوان: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة ندوات، مطبعة المعارف الجديدة، ١٩٩٨م.



وجه من وجوه استلهام التراث الفني الإسلامي في المغرب

لينتهي إلى الهيمنة السياسية، والسيطرة العامة.

وظهرت آثار محاولة فرض الهوية الغربية في شكل فشل الخطط التنموية للشعوب المستضعفة، وانبعاث الإحساس بالهويات الخاصة على مستوي الشعور العام لهذه الشعوب.

وينتهي مدير الندوة إلى خلاصة، وهي أن المغرب لن يتسنى له أخذ مكان متميز بين الشعوب ما لم يسارع إلى التغلب على المعضلات الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية التي تعوق نموه وتقدمه، ويكون في نفوس أبنائه وفكرهم وذهنهم هويته. وأن يكون التعامل مع الهوية بعقل وتفتح ومرونة وانتقاد.

وكتب البحث الأول عبدالوهاب بنمنصور بعنوان «عقد تآخي بين عرب منسي وبربر زناته: أول لبنة بعد الإسلام في صرح الهوية المغربية»، وهو يعتمد في طرحه على ما ورد في كتاب المؤرخ الفاسي الشهير علي بن أبي زرع «الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية» الذي يشير إلى ما كان من تآخ بين العرب والبربر بعد أن اجتمع أعيان منسي وأشراف زناته، وأشهدوا على أنفسهم من وجوه العرب، ورؤساء أهل إفريقية من البربر والروم بأن معشر زناته والعرب يجتمعون في جد واحد هو قيس عيلان.

ويعلق بنمنصور على هذا العقد بأنه يبين اهتمام الأقدمين برسم خطوط الهوية المغربية، وتحديد عناصرها، حتى امتزجت دماء العرب، وتداخلت الأنساب بعد أن هذب الإسلام طباع أهل المغرب، واستنارت عقولهم بالثقافة العربية.

وعن «التوفيق بين الموروث الحضاري والتطلعات» جاء بحث محمد أمزيان الذي يبدؤه بتعريف الموروث الحضاري بأنه مجموع الميراث العقدي والفكري والأدبي والاجتماعي وكل الخبرات التي شكلت ذاكرة الأمة، وأثرت في صيرورتها التاريخية سلبًا وإيجابًا، مبينًا أن الميراث العقدي هو الأساس الذي أنبت عليه كل الموروثات الأخرى التي تحركت في فضائه، وظلت تدور في فلكه.

وبعد ذلك يطرح سؤالاً عما ينبغي استصحابه من هذا الموروث في عملية البناء الثقافي، كما يشير إلى ما تواجهه التطلعات المستقبلية من مخاطر العولمة، وفقدان الهوية الثقافية، ويطرح سؤالاً: ما الدور المرتقب للموروث الحضاري في الحفاظ على الاستمرارية على مستوى التراث، والمساهمة في حفظ التوازنات على المستوى الإنساني؟

وناقش محمد أمزيان هوية الموروث الحضارية ومرجعيته التأسيسية، فأكد أن العمارة والعبادة والأمانة في المنظور الإسلامي ليست كلمات دينية ذات وظيفة بلاغية، بل هي فضاءات حضارية تشكل ثوابت البناء الثقافي، وتخط منهجًا في النظر والحركة، وقد أدت المجابهة بين الثقافة الإسلامية والعناصر الثقافية الدخيلة إلى ظهور الجدل حول قضايا جزئية لا تمس أصول المعتقد بقدر ما تمس طرائق في الفهم والتأويل.

وينتهي أمزيان إلى نتيجة خلاصتها أن الاختلاف داخل الموروث الحضاري لم يكن حديثًا عن الهوية في ذاتها، بل إن كل مظهر من مظاهر الاختلاف، وكل شكل من أشكال التدافع الفكري كان اتجاهًا نحو التصحيح، ونخل الأصيل من الدخيل.

وتناول في هذا السياق ما تعرض له المجتمع الإسلامي على المستوى السياسي من محاولات التجزئة والانقسام مستخلصاً أن المجال الاجتماعي ظل محكومًا بوعي عقدي وتاريخي لم تزده الاحتكاكات الصدامية إلا عمقًا.

«حول الهوية والتراث» عنوان البحث الذي قدمه محمد بنشريفة الذي يبدأ طرحه بتوضيح أنه كان من الذين يستبعدون أن تصبح الهوية المغربية مطروحة للنقاش، أو موضوعة في الميزان مشيراً إلى أن التحديات التي تواجهها الهوية كانت موجودة في الماضي، كما هي موجودة في الوقت الحاضر، وستظل موجودة في المستقبل، وقد كانت تحديات الماضي سببًا وعاملاً فعالاً في تقوية الهوية المغربية، وضرب أمثلة بالتحديات التي كانت عند ظهور القوى الاستعمارية الأوربية، وفي حقبة الحركة الوطنية.

كما أن التراث المغربي واجه تحديات حين احتدم الهجوم عليه، واشتد الطعن فيه في إطار الهجوم على التراث العربي الإسلامي. وهو ينبه إلى خطورة الانصراف إلى الشخصيات المرئية في هذا العصر.

وجاء عنوان بحث عبدالله المرابط الترغي بعنوان «تجربة المورورث الثقافي وخدمة الهوية المغربية» وقد بدأ بتشخيص التحديات وتصنيفها، فأشار إلى التصادم الحضاري مع الغرب الذي يجعلنا بشكل مستمر في وضع التعبئة والتأهب، ومظاهر الحداثة التي تنقلها إلينا كل يوم وسائل الإعلام، ثم ما يتولد من وعي خاص ببعض القضايا والمواقف نتيجة عوامل معينة.

ويعرّج الترغي بعد ذلك على موضوع الصدام الحضاري وآثاره، فيشير إلى أكبر تهديد - في رأيه - وهو خلق هوية غريبة ذات مفاهيم وقيم أخرى هجينة يختلط فيها المغربي والغربي بصورة عشوائية، وأهم ما يحتاج إليه الصدام الحضاري من سلاح، هو أن يتركز في نفوس أبناء الأمة قيمها الأصيلة وأسس هويتها.

وذكر بعد ذلك بعض التحديات التي عرفها المغرب في مختلف مراحله التاريخية الإسلامية، ومن ذلك المد الصليبي، ثم بعض القلاقل الداخلية نتيجة لبعض محاولات الخروج عن مألوف الاعتقاد.

وهو يرى ضرورة استلهام هذه المواقف لاستحضار نتائجها؛ لترسيخ قيم الاعتقاد والوطنية.

عن خطورة التحديات المعاصرة، يذكر مجموعة من عناصر هذه القضية المهمة، وهي الحوار غير المتكافئ بين واجهة المغرب وبقية الواجهات الحضارية التي تتواصل معه، وغياب الحصانة الفكرية، وفتور الوعي بالهوية الوطنية، وغياب المعرفة بالثقافة التراثية وعدم الاستفادة من الموروث الثقافي، وغياب التخطيط المستقبلي.

وفي ظل هذه التحديات، يوجه الترغي الأنظار إلى أهمية تشغيل التراث الثقافي، والاستفادة منه لتنمية الإنسان المغربي، وتشكيل شخصيته، وتعميق وعيه بمقوماتها، على أن يؤخذ من هذا التراث ما يتلاءم مع واقعنا اليوم، والاستفادة منه في تجربة المواقف دون اعتبار للوقائع والأحداث.

وأجملَ ما كان لزاوية العياشين وزاوية الشرقاويين من أثر في خدمة التراث الإسلامي في المغرب. ومن شروط حوار التواصل المفيد - في رأيه - أن يكون هناك تكافؤ بين المتحاورين، ويقصد بالتكافؤ «وجود قدرة فكرية للتمييز بين الأشياء تكون في مستوى القدرات الفكرية التي أنتجت هذه الأشياء، مع وجود حرية في الاختيار بينها، ينتج منها عند مقابلتها ومحاورتها موقفًا بالرفض أو القبول».

وناقش أبو بكر القادري موضوع «دور الحركة الوطنية في ترسيخ الهوية المغربية»، وعقب تعريف مصطلح الهوية يطرح بعض الأسئلة من مثل: ما المبادئ والقيم التي قامت عليها الحركة الوطنية الغربية؟ وما خصوصياتها؟ وما مدى استمرار العلاقة بين الحركة الوطنية والهوية المغربية؟

وكان الاستعمار قد قام على أساس قطع علاقة الوطن بجذوره التاريخية مدركًا أن أهم مقومات الشخصية المغربية هي: الإسلام واللغة العربية، أو العرش المغربي والوحدة الوطنية.

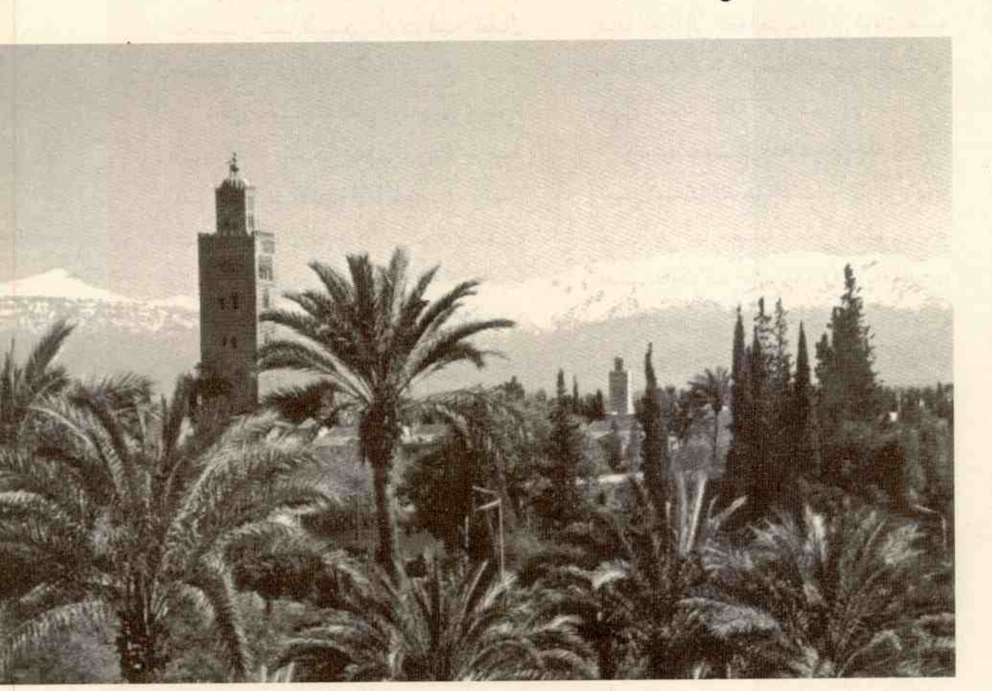
ولقد قام الاستعمار بهدم هذه الركائز في المجتمع المغربي بكل ما يستطيع، وهو يشير بصدد هذا إلى سياسة التفريق بين العرب والبربر ذاكرًا بعض مقترحات الموظفين الفرنسيين لتطبيق هذه السياسة، وكان التعليم وسيلة لزعزعة الهوية الوطنية المغربية، وفي ظل هذا المناخ عملت الحركة الوطنية على التعبير عن رفض الواقع الاستعماري، وتعبئة الشعب وشحنه وتكوين وعي سياسي لديهم مع وجود ترابط منهجي بين المراحل والأهداف. وينتهي إلى نتيجة خلاصتها أن ما حققته الحركة الوطنية بالحصول على الاستقلال تعبير عن انهيار النظرية الاستعمارية التي كانت تراهن على محو الهوية المغربية، ومن خصائص هذه الهوية التفتح والمرونة والشفافية وعدم الانغلاق، وقد تضاعفت أعباء الحركة الوطنية وزادت المسؤوليات لبناء الدولة المغربية الحديثة المستقلة.

وقدم محمد وفيدي بحثًا بعنوان «التربية وهوية مغرب المستقبل»، بدأه بتوضيح المفاهيم المطروحة في البحث، وهي: الهوية، والتحديات المعاصرة، والمستقبل والتربية.

وعن مفهوم الهوية يخلص إلى أن الهوية هي نسق من الموروثات الحضارية من الأسئلة والأجوبة المتعلقة بالكون والسلوك الإنساني، كما أنها وعي الجماعة بتاريخها، وتعرفها إلى ذاتها.

أما أشمل مظهر لما يعرف بالتحديات المعاصرة فهو الانجذاب الخاص الذي نلاحظه لتاريخنا الخاص نحو الخضوع لسيرورة قوانين

الإحباط النفسي لعدم القدرة على مواكبة الغرب من التحديات الحاضرة التي تواجه المغرب



تداخلت أنساب أهل المغرب بعد أن هذب الإسلام طباعهم، وأنارت الثقافة العربية عقولهم

تاريخ حضارة أخرى.

أما التفكير في المستقبل فهو تفكير في مثال، ولكن دون أن يخلو ذلك من الاعتماد على معطيات واقعية.

والتربية - في نظره - هي السبيل إلى تحقق القيم التي نراها قيمًا من أجل مستقبل المغرب، ومن أجل إغناء الهوية.

وهذه التربية هي التي تهيئ الفرد القادر على ممارسة التكوين الذاتي، وتمنح الحرية معناها العميق.

والقيمة الثانية التي تعمقها التربية بعد الحرية هي احترام القانون. أما القيمة الثالثة فهي احترام الآخرين، والقيمة الرابعة هي احترام ما هو عام ومشترك.

ويخلص الباحث إلى أن «التفكير في مغرب المستقبل لا ينبغي أن يطغى عليه التفكير في الماضي فحسب، كما لا ينبغي - أن يتم فيه إغفال مجريات الحياة اليومية».

وتعلق بحث عبد العلي الودغيري بموضوع «الهوية المغربية والمشكل اللغوي»، وبدأها بتوضيح بعض المنطلقات الأدبية لهذا الموضوع، ومنها: أهمية اللغة لكونها من مكونات هوية أي شعب، وأن اللغة العربية من أهم مكونات الشخصية المغربية، فبقدر ما أثرت اللغة العربية في ثقافة المغرب، وتكوين هويته، فإن المغاربة أثّروا في هذه اللغة وفي ثقافتها. ومن المنطلقات التي ذكرها أن اللغة العربية بعد انتشار الإسلام لم تعد لغة خاصة بالعرب أو بقريش، وإنما انتقلت من هذه الخصوصية لتصبح لغة للقرآن والإسلام وملكًا للشعوب الإسلامية الداخلة في هذا الدين العالمي.

وبعد ذلك تناول الباحث وضع اللغة العربية في المغرب قبل مرحلة الاستعمار وفي أثنائها وبعدها، وعلاقتها باللغات المحلية والتجارية.

وأكد أنه حتى في العصور التي حكمت فيها المغرب أسر وسلالات تنحدر من أصول غير عربية، مثل دول المرابطين والموحدين والمرينين لم يلجأ أحد من الحكام إلى التدخل في الوضع اللغوي، بل إن اللغة العربية وصلت قمة ازدهارها وشموخها في عهد هذه الدول.

وتمازجت عناصر الشعب المغربي بحيث لم يعد في المستطاع التفريق بين من هو من أصل أمازيغي صرف، أو من أصل عربي خالص.

أما الاستعماران الفرنسي والإسباني فقد قلبا الوضع اللغوي رأسًا على عقب بعد فرض اللغتين الفرنسية والإسبانية لغة للتعليم والإدارة والسياسة والاقتصاد، وإيجاد نزاع بين اللغتين العربية والأمازيغية، وتصاعدت المقاومة المغربية للسياسة الثقافية والتعليمية المفروضة، ونتج من هذا الوضع ثنائية لغوية، وبروز قضية التعريب، ومحاولات إعادة المكانة إلى اللغة العربية، وفي الوقت نفسه هناك دعوات تجعل الفرنسية عنصرًا أساسيًا من مكونات الهوية الثقافية المغربية.

ويدعو الباحث إلى التخلص من عقد الماضي، والعمل لاستعادة الثقة في الذات، والنظر إلى الهوية المغربية على أنها حصيلة للتفاعل القائم بين سائر العناصر والمكونات البشرية، والإقرار بأن المغرب جزء لا يتجزأ من الخريطة العربية الإسلامية، والحسم نهائيًا في لغة التعليم والإدارة، والاعتراف بالعربية اللغة الأم.

وكتب بنسالم حميش بحثًا عنوانه «في إشكالية الهوية المزدوجة: الأدب المغاربي المكتوب بالفرنسية نموذجًا» يؤكد فيه أنه إذا كانت ثقافة البحث في العلوم الإنسانية أو الطبيعية تتطلب لغتين فأكثر، فإن الأمر لا يكون كذلك في شتى فنون الإبداع من شعر ورواية ومسرح وسينما، وتبعًا لذلك يرى ضرورة إعادة النظر نقديًا في تسميات من صنف الأدب المغاربي، أو العربي المكتوب بالفرنسية والإنجليزية على سبيل المثال، ومن الإنصاف لكتّاب المغرب بالفرنسية أن ينالوا حق المواطنة الأدبية الفرنسية.

ومن رأيه أنه لا مجال للقول بأن اللغة في الخلق الأدبي أو الفكري وسيلة تعبير ليس غير، وهو يسوق بعض أقوال الكتّاب المغاربة تعليقًا على الازدواج اللغوي.

وقد فنّد بعض الاتهامات التي توجه للغة العربية، مثل القول بأنها لغة مقدسة لا تتيح حرية الخيال والتعبير، وهو قول فيه إجحاف باللغة العربية التي أبدع بها كثيرون من خارج دائرة القدسي، كما فنّد آراء المدافعين عن الازدواجية اللغوية بين لغتين، أو بين اللغة الفصحى واللغة الدارجة.

ويختم بنسالم بحثه بثلاثة استنتاجات: أولها: ألا يُفهم أنه يريد أفول الأدب المغاربي المكتوب بالفرنسية أو زواله، والثاني: الاهتمام باللغة العربية والإبداع بها، حتى لا نترك ثقافتنا تنسحق تحت ضغط الهيمنات، وعلاقات القوى المتصارعة، والاستنتاج الثالث: أنّ على كتّاب العربية في بلاد كالمغرب العمل في اتجاه توطيد شروط التجانس الثقافي وتفعيله داخل مجتمعهم.

وعن «الهوية المغربية في أفق القرن الجديد: المكونات والتحديات» جاء بحث سعيد بنسعيد العلوي، وقد أشار في مقدمته إلى التحولات التي شهدها العالم في هذه السنوات الأخيرة من القرن العشرين، وما صاحبها من عودة إلى الحديث عن الهوية والوطنية والتمايز، ثم تناول بعد ذلك ما شهده المغرب من تحولات عميقة خلال جيلي الاستقلال، والمسيرة الخضراء، وحدد أهم عناصر الهوية المغربية في الإسلام المتغلغل في النفس المغربية، وروح الحضارة التي تطبع حياة الفرد والمجتمع في المغرب، والتمسك بالتراث والأصالة، والاتصاف بخلق الأكارم والأسياد.

أما الثوابت الرئيسة في تحديد الهوية - كما يرى بنسعيد - فهي الملكية، والإسلام، والنسيج الاجتماعي المتماسك.

وأجمل المقتضيات والاستلزامات التي تجابه البشرية في القرن القادم في غلبة الاتجاه إلى إقامة

الكيانات والتجمعات العظمى القائمة على أسس اقتصاد السوق، والاتجاه إلى إحداث انقلاب تام، وتحول كيفي في وظيفة المدرسة والجامعة، وتغير في تصور معنى الدولة وطبقتها، وتحول في إدراك وظيفة المجتمع والمسؤوليات الموكولة إليه.

وبعد ذلك يقوم بتحليل سريع لما في الدستور المغربي من محددات، وهي أنها دولة إسلامية، وجزء من المغرب العربي الكبير، ولغتها الرسمية العربية، كما أنها دولة إفريقية.

وهذا لم يمنع أن يتقدم المغرب بطلب رسمي للانتساب إلى المجموعة الاقتصادية الأوربية.

وانتقد العلوي الوضع التعليمي مطالبًا بإحداث انقلاب كيفي في التعليم، لمواجهة ما يفرضه القرن الجديد من تحديات، كما ينظر بتفاؤل إلى تعيين دور جديد للدولة من واقع أن الملكية حجة ناطقة على القدرة على مسايرة ما يفرضه التطور، وهذا يتطلب في رأيه عقد ميثاق جديد بين الدولة والمجتمع.

وأكبر المخاطر التي يراها الباحث يتمثل في ارتفاع نسبة الأمية التي لا تتواءم مع الجهود التي تبذلها الدولة في هذا الميدان، كما أنه يتمثل في زحف الريف إلى مجتمع المدينة، أما التحدي الثالث الذي يجابه الدولة، فيتحدد في كيفية الحفاظ على قوة تماسك النسيج الاجتماعي المغربي.

وكان عنوان بحث محمد الكتاني «الهوية الثقافية المغربية بين ثوابت الماضي ومتغيرات الحاضر»، وقد بدأه بحديث عن مفهوم الهوية، ورأيه أن الهوية لا تعني أكثر من وحدة الذات واستمرارها في غمار المتغيرات، ثم أعقب ذلك بتعريف مطول لمفهوم الثقافة ليخلص إلى أنها صورة مركبة من جملة عناصر نفسية ومعرفية متداخلة يتحول السلوك الثقافي من خلالها إلى تلقائية تستجيب معها النفس إلى كل حدث خارجي أو موقف أخلاقي بالمنهج والرؤية الكونية نفسيهما. وما هوية المجتمع إلا هويته الثقافية.

ينطلق في حديثه عن ملامح الهوية الثقافية للمغرب من خلفية تاريخية تؤكد ما كان بين سكانه من مختلف الأجناس من تماسك اجتماعي.

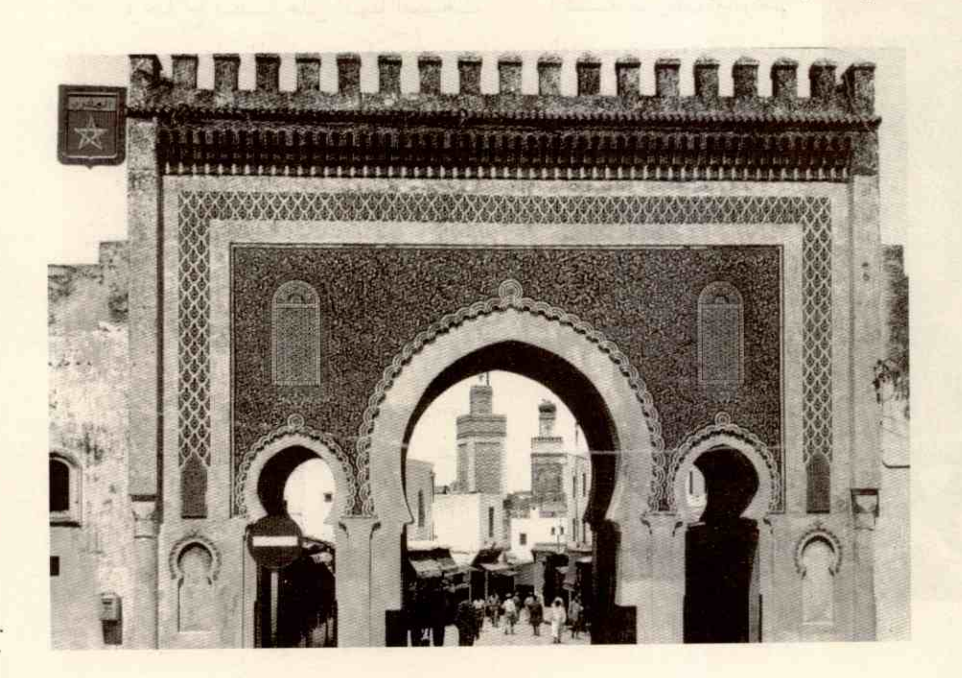
أما خصائص الهوية الاجتماعية فتتمثل في وحدة النموذج النفسي للمغاربة، وانعكاس طبيعة الأرض المغربية على هذا النموذج، ثم الميل القوي إلى الاستقلال، ورفض التبعية. وارتكزت الهوية الثقافية المغربية في ظل العقيدة الإسلامية على ثلاثة مبادئ: وهي أنها ثقافة وطيدة تنبع من البيئة المغربية، وثقافة إسلامية ترتكز على العقيدة، وثقافة متفتحة وعلمية.

أما الملاحظات التي يطرحها الوضع الثقافي في المغرب فتتمثل أولاها في وجود ثقافتين: ثقافة عصرية مركزية، تصلنا بالغرب وبحضارته وعلومه وتقنياته، وثقافة أصيلة، لكنها هامشية تصل هذه الأمة بماضيها وشخصيتها وتراثها.

والملاحظة الثانية - حسب رأي الكتاني - تتمثل في تعددية المرجعية الثقافية لدى المثقفين، وهي غير التعددية اللغوية، والملاحظة الثالثة انتشار الأمية بين ثلثي المجتمع المغربي.

وشهدت هذه الندوة مناقشات مستفيضة من مجموعة كبيرة من المفكرين حول البحوث التي تضمنتها، وقد أغنت هذه المناقشات الندوة، وساعدت على إنارة بعض جوانب موضوعها الذي يظل في حاجة إلى رؤى مستنيرة، وأفكار، وطروحات موضوعية تؤدي إلى بلورته في إطار علمي وعملي يساعد على تجاوز تحديات القرن

كل شكل من أشكال التدافع الفكري اتجاه نحو التصحيح، ونخل الأصيل من الدخيل



الحملة الفرنسية

تنوير أم تزوير؟

ليلى عنان مراجعة: يوسف حمدان

هذا الكتاب هو الجزء الأول من دراسة جادّة وعظيمة الأهمية أنجزتها ليلى عنان أستاذة الحضارة الفرنسية بجامعة القاهرة بعنوان: «الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير؟»، وقامت دار الهلال بنشر هذا الجزء في العدد ٥٦٧ من سلسلة كتاب الهلال الصادر في مارس/ آذار ١٩٩٨م، وهو يقع في (٣٦٤) صفحة، على أن تنشر الجزء الثاني في كتاب آخر لاحق.

وتأتي عملية النشر هذه بعد مرور مئتي عام على الحملة الفرنسية لدحض تلك المقولة الزائفة التي روّج لها بعض الناس في مصر وخارج مصر على أنّها أسبغت نعمها على المصريين، وفتحت لهم أبواب العلم والمعرفة، حتى غدت أسطورة في الأذهان جعلت من نابليون بونابرت «وثنًا عصريًا» بهر أقلام بعض الكتّاب والأدباء والمؤرخين في مصر والشرق العربي، فقدّموا له أمجادًا مزيّفة لامست أوتار كبريائه، وحسّه بعظمة نفسه، فصدّق كذبةً كان قد كذبها على نفسه بأنه أسطورة، وآخر أساطير التاريخ الفرنسي!! ووجد أبناؤنا أنفسهم يتلقّنون أمجاد نابليون بونابرت، وفضل حملته الفرنسية على بلادنا العربية، وعلى الأجيال التي عاشت في القرنين الماضيين، والأجيال التي ستعيش في المستقبل وإلى الأبد..!

مؤلفة الكتاب اكتشفت زيف ما زعم الزاعمون.. ودحضت بالحجة والبرهان القاطعين أقوال أولئك المبهورين بحملة نابليون من المؤرخين والكتّاب والأدباء، فقامت بتتبّع الخيوط التي أوصلتها إلى حقيقة تلك الحملة «من أفواه شهود العيان ومؤرخيها الموضوعيين النزهاء، ولم تلجأ الدراسة في بحثها إلى مراجع عربية إلاّ فيما ندر، فقد كان الأهم معرفة الحقيقة التي يؤديها التاريخ بأقلام الفرنسيين أنفسهم، ومن خلال كتب لم يتعرفها القارئ



نابليون بونابرت

العربي من قبل، خاصةً أن بعض الفرنسيين قد عملوا على طمس تلك الكتب لما تحوي من حقائق».

إنه ليؤلمنا ـ نحن العرب ـ أن يتغنّى مغنّونا وشعراؤنا بنابليون المستعمر الغازي الذي جاء على رأس العساكر محتلاً طامعًا ببسط الهيمنة وسرقة ما لدى مصر من ثروات!! فأصبح كلّ ما يتعلّق بنابليون وحملته أمجادًا ومسلمات لا تحتاج إلى إثبات، «كأن يُقال ـ افتراءً: إنّ تاريخ مصر المعاصر بدأ بدخول الجيش الفرنسي إلى الإسكندرية، وإنّ المصريين انبهروا ببونابرت وجنده والحضارة التي أهدوها إليهم، وإنّ الشعب المصري مازال يتغنّى بفضائلهم حتى يومنا هذا؛ لأنّ الجنود الفرنسيين علّموهم الحرية، وأسس الديمقراطية، ومبادئ ثورة عام ١٧٨٩ المجيدة، وإنّ محمد علي إن فعل شيئًا، فإنما فعله؛ لأنه كان تلميذ بونابرت!!».

أدولف هتلر

لقد عملت هذه الدراسة جادّةً في محاولة تعرّف أسباب نشأة هذه الأفكار، وكيفية تطورها، حتى أصبحت من المسلمات التي لا تناقش! «خاصة أن الدراسات التاريخية الحديثة قد دحضت كثيرًا مما كان المؤرخون يرددونه من قبل» ووجد الجيل الجديد من الفرنسيين أنفسهم أمام الحقيقة المرّة عندما لم يعثروا على تلك الأمجاد الفرنسية خارج حدود فرنسا.. وكلّ ما عثروا عليه ليس إلاّ ضلالات وأوهامًا رضعوها من مناهجهم التعليمية التي لقّنتْهم ما قررته «الجمهورية الثالثة» أن فرنسا رمز الحضارة، وهي التي فَرَّ جيشُها أمام جحافل هتلر الغازي، وهي التي قال فيفان دينون عنها: «على الرغم من مدافعنا، فإنهم لم ينسحبوا، كانت شجاعتهم وتفانيهم يحلاّن محلّ الأسلحة التي افتقروا إليها..» والمقصودون هنا هم فلاّحو مصر أيام الحملة الفرنسية الغاشمة!!

إنّ الجيل الجديد من الفرنسيين وصل إلى سن النضج، كما تقول المؤلفة، «فبدأ في مراجعة ما يُقال له من مسلّمات» جيل حطّم الأساطير، وكشف زيفها، وتواكب هذا مع ما سُمِّي بـ «انهيار الأيديولوجيات».. وبالذات الشيوعية



الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير؟

ليلى عنان

القاهرة: دار الهلال، آذار/مارس ١٩٩٨م.

حاول بعض المؤرخين تصوير الحملة الفرنسية علي أنها بعثة علمية ثقافية، وليست حملة عسكرية استعمارية

الماركسية اللّينينيّة في فرنسا.

بعد الحرب العالمية الثانية ظهر جيلان من المؤرخين: الأول عاش الحرب العالمية الثانية، وتعلّم في ظلّ مبادئ «الجمهورية الثالثة»، وأساطيرها الباهرة، وتغنّى في طفولته وفي مدرسته بكل أمجاد الماضي. والثاني المولود بعد تلك الحرب، والذي شاهد تقلّص الوجود الفرنسي، فراح يؤرخ بعقلانية متحرّرًا تمامًا من غشاوة تلك الأساطير التي طمست الحقائق أمام عيون سابقيه من المؤرخين.. وهذا الجيل الثاني هو ما سمي بجيل المؤرخين الجديد الذين أخذوا على عاتقهم قول الحقيقة، وتحطيم تلك الأسطورة الوهمية لبونابرت وحملته على مصر ونتائجها الخائبة، وكُتُبُ هؤلاءِ المؤرخين موجودة لمن يريد أن يزيد معرفته بالقضية.

ولم تنس د. ليلى عنان أن تعرض في بضعة أسطر ما كان يُدرَّس للتلاميذ المصريين في المدارس الفرنسية حتى يعرفوا - منذ نعومة أظفارهم - كلّ ما تدين به مصر لفرنسا، وكلّ ما أنعمت به فرنسا على مصر؛ لأن الحملة صُوِّرتْ على أنها بعثة علمية ثقافية، وليست حملة عسكرية استعمارية!! فالجند والمصريون عاشوا في وئام تام في أثناء وجودهم في مصر، وئام لا تشوبه ثورة أو عنف دمويّ!!..

المؤلفة نفسها كانت خريجة تلك المدارس حتى نالت درجة الدكتوراه، وما تعلمته من زيف جعلها تثور لكرامتها لكونها مصرية ولكرامة وطنها الذي وجدته يخضع للتزوير. إن ذاكرة الشعب المصري كانت دائمًا أقوى من ذاكرة المزوِّرين من مؤرخي الحقبة، لهذا حملت على عاتقها مسؤولية ردّ القيمة والمكانة للوطن وللتاريخ وللحقيقة المغلوبة على أمرها، فتابعت التمحيص والبحث، وراجعت ما كان يُقال عن الحملة في أثناء قيامها على لسان المعاصرين، والشهود العيان، وما كتبه أولئك الشهود بأقلامهم غير مدّعية بأنّ دراستها هذه مطلقة الموضوعية؛ إذ جهدت - وهي ابنة فلاح مصري - ألا تطغى مشاعرها على ما تقرؤه وتحلّله تاركة للمنطق العلمي أولوية الكلام.

الكتاب تضمّن في جزئه الأول هذا مقدّمة ومدخلاً وخمسة فصول. في الفصل الأول نقرأ عن «الحملة في تاريخ الثورة»، وفي الفصل الثاني: «نابليون بونابرت، الجنرال والإمبراطور»، وفي الفصل الثالث: «أسس أسطورة الحملة ونابليون»، وفي الرابع: «الأسطورة عند الأدباء»، وفي الخامس والأخير: «الأسطورة عند المؤرخين».

وكلّ الشكر للأستاذة الدكتورة ليلى عنان على هذا الكتاب الشّافي الوافي الذي حلّتْ به عقدةً من عُقَدنا الكثيرة آملين في القريب العاجل أن نقرأ من كتابها هذا جزأه الثاني.. وتحية لدار الهلال على هذا الإنجاز، وكلّ ما قدّمته للقارئ العربي من كتب منيرة تغني فكره وتُعزِّز قيَمه.

هناك جيل جديد من الفرنسيين حطم الأساطير، وكشف زيفها



محمد علي باشا

اللعبة الكبرى في آسيا الوسطى الإسلامية

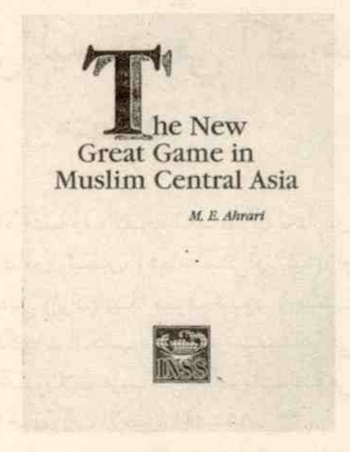
م. إ. أحراري   مراجعة: إلكسندر إيفانوف

لفت نشوء عدد من الجمهوريات المستقلة الجديدة في ربوع آسيا الوسطى، التي كانت تابعة للاتحاد السوفييتي السابق، وبدء نشاطاتها على الصعيد السياسي العالمي نظر كثير من رجال السياسة والخبراء في العلاقات الدولية، وجميع من يهتم بالمستجدات التي تظهر بسرعة بالغة في عالمنا المعاصر، وهو في المرحلة الانتقالية الراهنة من تطوره. ويعدّ الكتاب الذي بين أيدينا بقلم م. أحراري، ومشاركة ج. بل، والذي نشره معهد الدراسات الإستراتيجية الوطني التابع لجامعة الدفاع الوطني في واشنطن، من الدلائل على هذا الاهتمام.

يحدد الكاتب هدف الدراسة في النظر في حيوية (ديناميكية) العمليات المعقدة والمتضاربة والمتصارعة أحيانًا التي تنتشر في الجمهوريات المستقلة الفتية في آسيا الوسطى، وتحديد أفق تطورها السياسي المقبل بشكل عام. إن نقطة الانطلاق للبحث كله هي أن جمهوريات آسيا الوسطى الجديدة واقعة اليوم في مفترق طرق تاريخية، وتواجه مهمة مصيرية ضخمة تكمن في إيجاد مكانها الخاص في الصلات والهياكل السياسية والإستراتيجية والاقتصادية الجديدة التي تتكون على مرآنا على نطاق الأقاليم والعالم كله. ويكشف أحراري - وهو على حق - كذلك فرقًا مبدئيًا بين أوضاعها الراهنة وأوضاع هذه الدول في فترة تقسيم العالم في القرن الماضي وبداية القرن الجاري في الواقع، وهو «أنها الآن تؤدي دورًا حازمًا في تقرير مصير خاص بها» (ص٤).

ويؤثر في خيارها التاريخي المجموع الكامل والمتنوع للعوامل الداخلية الإقليمية والكونية. فيركز الباحث على العوامل الداخلية التي تؤثر بصورة مباشرة في اتجاهات بحث هذه الجمهوريات عن مستقبلها، وبخاصة التشويهات الحادثة في التطور الاقتصادي لهذه البلدان في العهد السوفييتي خاصة اختصاص تجارتها الخارجية في تصدير خامات من نوع واحد، وهو القطن، وقد تحدد هذا الاختصاص أسباب مناخية وإقليمية معروفة، وتعمق وتثبت في سير عمليات التكامل والتقارب الاقتصادي التي كانت تجري في إطار الاتحاد السوفييتي وكذلك المستوى المنخفض لثقافة أهلها السياسية، وعدم وجود تراث ديمقراطي وتعددي، ومؤسسات حزبية وغير سياسية أخرى متفرعة، ووجود اختلاط قومي، وفرقة عرقية لسكانها أيضًا. ويشير الكاتب بصدد هذا الموضوع إلى أنه «في القرن العشرين لم تعرف بلدان آسيا الوسطى إلا الشيوعية التي كانت تسيطر في الاتحاد السوفييتي السابق، أو الحكم الاستبدادي الذي كان غالبًا في الشرق الأوسط»(ص٢٤).

ومع أن شعوب الجمهوريات الجديدة الآسيوية ذات ماض قبلي وثقافي مشترك، إلا أن هناك كثيرًا من الخلافات داخلها، ففي كل الجمهوريات لا تكون القومية التي قد أعطت اسمها للجمهورية هي الممثلة لأغلب



اللعبة الكبرى
فى آسيا الوسطى الإسلامية
THE NEW GREAT
IN MUSLIM CENTRAL ASIA
M.E. AHRARI م. إ. أحراري
واشنطن: المعهد الوطني للدراسات الإستراتيجية، ١٩٩٦م.
(WASHINGTON D.C.: INSTITUTE FOR NATIONAL STRATEGIC STUDIES,1996)

سكانها (ففي قازاخستان يشكل الكزخ أقلية واضحة) ويؤدي الانبعاث القومي لشعوب آسيا الوسطى في هذه الظروف حتمًا إلى تصاعد احتكاكات عرقية. وأكثر من ذلك - كما يلاحظ الباحث - قد أنتجت محاولات التوحيد القومي على أساس ديني أو لغوي انسحاب الروس (وعددهم الإجمالي بموجب معلومات الكاتب في جمهوريات آسيا الوسطى يبلغ ٢٥ مليون نسمة) وعندهم «اختصاصات ومهارات حيوية في إدارة مصانع إنتاجية، ومحطات الطاقة» (ص٣٨).

وفي اعتقاد الباحث ينبغي على الجمهوريات الفتية - على هذه الخلفيات

الأحزاب والحركات الإسلامية في آسيا الوسطى ليست في أكثرها متطرفة

الاجتماعية والثقافية المعقدة - أن تختار بين نظامين رئيسين، وهما علماني (تركيا)، أو ديني (إيران) بهذا سوف تسود - حسب تكهنات الكاتب - تيارات استبدادية في تحويلات هياكل الحكم والسلطة في الجمهوريات الآسيوية الجديدة (ص٣٣).

يستنتج الباحث وهو يفكر في طرق تطور الجمهوريات الآسيوية المستقلة أنه من الممكن أن نتكلم عن مستقبلها الإسلامي على مدى بعيد فقط. ويعتقد أنه «على هذه البلدان أن تدرك إدراكًا مطلقًا هويتها المسلمة، وبعد هذا فقط أن تقرر ماذا وكم من الإسلام تود إدراجه في نظامها السياسي؟»(ص٧٦) مع ذلك لن يكون هناك نموذج واحد لتطور الجمهوريات الآسيوية الجديدة المقبلة. وعليها أن تصمم بجهودها المستقلة جهازًا تنعكس فيه وقائع ظروفها المحلية، وسيؤثر الإسلام تأثيرًا بليغًا وعميقًا في حياة الجمهوريات الآسيوية الفتية، ويدرك حكامها الذين أخذوا زمام الحكم في عهد ما بعد الشيوعية، وهم من الذين تم تأهيلهم وتعليمهم في العهد السوفييتي السابق، هذا الواقع كل الإدراك. ويجدون أنفسهم في الحالة الجارية كما لو كانوا بين نارين: لن يستطيعوا من ناحية أن يمسكوا بزمام الحكم في المستقبل من دون الإسلام، وعليهم أن يشاركوا في الحكم رغبة أو رهبة مع الإسلام من ناحية أخرى. ويكمل الباحث استنتاجه هذا بالقول: إن هؤلاء الحكام يبذلون جهودًا كبيرة من أجل تأجيل هذه الحتمية (ص٣٤ - ٣٥).

ولا شك أن أفكار الكاتب حول احتمالات تطور علاقات بين السلطات العلمانية الراهنة في هذه الدول من طرف وأحزاب وحركات إسلامية من طرف آخر أمر جيد وجدير بالإشارة وهو يؤكد في عدة أجزاء من دراسته فكرة سليمة هي أنه غير صحيح أن تنسب كل هذه الحركات إلى صنف «الأصولية الإسلامية» بمعناها الخاطئ الذي يعني أنه مصدر للتطرف والإرهاب (ص٣٥ - ٣٧٠). وليست الأحزاب والحركات الإسلامية في آسيا الوسطى في أكثرها متطرفة بتقديره (ص٧٤٠). وليس نفوذها في جماهير الشعوب كبيرًا؛ لأن نشاطاتها تتركز في المدن في أوساط المثقفين، ويعيش ٥٠٪ إلى ٦٠٪ من أهالي هذه الجمهوريات في الريف (ص٣٦).

ونتيجة لهذه التأملات، ينصح الباحث بإلحاح قادة الجمهوريات المدروسة في كتابه بالسماح بمشاركة الإسلاميين في العملية السياسية والحياة السياسية لكي ينقذهم ويحميهم من التيارات المتطرفة. فالإسلاميون سوف يتعرفون في ظل مشاركتهم السياسية وقائع وصعوبات وتعقيدات تتميز بها عملية القيادة التي لا يستطيع المتطرفون معها القيام بأي دور(ص٧٥٠).

وفي تقديراته لاحتمالات تشدد التيارات الإسلامية في بيئة هذه الجمهوريات الإسلامية، يشير الباحث إلى أنه سوف يتوقف تجسيد هذه الاحتمالات مباشرة على قدرات هذه الدول الجديدة على تذليل الصعوبات الاقتصادية الحاضرة، ووقف تدهور الإنتاج، والحفاظ على استقرارها السياسي الداخلي.

أما بالنسبة إلى العوامل الإقليمية فيورد الكاتب تأثر هذه الجمهوريات بالبلاد الإسلامية مثل المملكة العربية السعودية وإيران وتركيا وباكستان.

ويرى أن العامل الجغرافي يعطي كلاً من تركيا وإيران فرص التأثير أكثر من المملكة العربية السعودية التي تؤدي دورًا مهمًا جدًا في إنقاذ الوعي الإسلامي، والتوجيه الديني لهذه الجمهوريات.

ويشير الكاتب إلى أن نهوض الوعي الإسلامي لايعني على الإطلاق تصاعد تيارات متطرفة (ص٧٥). وكما أن النموذج الإيراني له تأثير في الجمهوريات الأسيوية الوسطى، إلا أن المملكة العربية السعودية لديها - في رأي الكاتب - عدة أوراق رابحة في علاقاتها مع هذه الجمهوريات في مجالات الدين والاقتصاد. فقد بلغت استثماراتها في تلك المنطقة نحو ٤ مليارات دولار. ويعتقد أن «المملكة العربية السعودية» بصفتها مهد الإسلام تحتل محلاً خاصًا في قلوب مسلمي آسيا الوسطى.. وعندها أفضلية هائلة في منح التربية والتعليم الديني لهم، وإتاحة الفرص الكثيرة والواسعة للحج المجاني، وفي تزويد المؤمنين بملايين من المصاحف الشريفة، وفي إنشاء ألوف من مدارس ومساجد جديدة»(ص٥٠).

وانضمت هذه الجمهوريات بموافقة المملكة العربية السعودية إلى منظمة المؤتمر الإسلامي، وفتحت أمامها أبواب أرصدة بنك التنمية الإسلامي.

ويشير أحراري في دراسته إلى أن الصلات الاقتصادية، ومنها قبل كل شيء الصلات المالية التسليفية، ومجال العون المادي، تعد من أهم القنوات لاقتراب جمهوريات آسيا الوسطى من تركيا وإيران والمملكة العربية السعودية.

ويعتقد الباحث - وهو على صواب تمامًا - أن عشرات السنين من الماضي السوفييتي

المشترك، والصلات الاقتصادية والثقافية والعائلية وغيرها التي لا تتجزأ، تقتضي حفظ نفوذ روسيا القوي في هذه الجمهوريات سنوات طويلة مقبلة، ولكن الكاتب وفقًا لتقديراته يرى أن نتائج تطور الجمهوريات هذه وعواقبه في إطار الاتحاد السوفييتي السابق تبدو كما لو كانت تصغيرًا وتقليلاً مقصودًا. إن منجزات هذه الجمهوريات في ميادين التصنيع، وتطوير التعليم والعلوم والثقافة معروفة ومعترف بها عمومًا. ويناقض الباحث نفسه في بعض أجزاء دراسته، وهو مضطر إلى اعتراف بهذه الوقائع غير مجادل فيها (ص١٣ مثلاً).

وانطلاقًا من العهد السوفييتي في تاريخ الجمهوريات الجديدة في آسيا الوسطى يستنتج أحراري استنتاجًا صحيحًا أن مستقبل هذه الدول الفتية يتوقف على حفظ الاستقرار السياسي، والانتقال إلى نهضة الاقتصاد لا في روسيا الاتحادية فحسب، بل في رابطة الدول المستقلة كلها (ص ٧٣-٧٤). وفي الوقت نفسه يستعمل المقاييس العتيقة من أزمنة المواجهة العالمية عندما يقدر أفق السياسة الروسية في آسيا الوسطى، ويصفها بأنها سياسة دولة كبرى توسعية. وكما يبدو لنا، فإنه ينسى عاملاً من أهم العوامل التي تحدد بدرجة كبيرة طبيعة العلاقات الدولية الحديثة العامة، وهو الاهتمام المتبادل والمشترك لدى الدول والشعوب ذات السيادة والحقوق المتساوية في إقامة وتطوير علاقات ثنائية ومتعددة الأطراف في إطار المصالح والفوائد المتبادلة. يفحص الباحث في كتابه من زاوية متحاملة ومشوهة وجود القوات الروسية المحافظة على السلام في تاجيكستان، والمدافعة عن الحدود الجنوبية لأعضاء رابطة الدول المستقلة، وكذلك الاتفاقيات الثنائية والمتعددة الأطراف الموقعة بين جمهوريات آسيا الوسطى وروسيا حول ضمان الأمن المتبادل.

أما الولايات المتحددة فيحدد الكاتب لها دورًا متواضعًا في تقرير مصير هذه الجمهوريات، وهو - بصراحة - لا يتفق والواقع.

وفي اعتقاده أن على أمريكا أن تهتم بتقوية نفوذها الاقتصادي في هذه البلدان، وأن تترك استقرار المنطقة لرعاية موسكو، ولكنه تحت ضغط الوقائع يعترف باهتمام الولايات المتحدة العميق بالجمهوريات الآسيوية الجديدة من منظور إستراتيجي.

ويشير الباحث في صفحة (٧٠) من كتابه إلى أن الولايات المتحدة «قد ركزت على التيار التركي، وهي تأمل كثيرًا أن الدول الإسلامية كافة في آسيا الوسطى سوف تنجذب إلى تركيا وليس إلى إيران».

أما روسيا، وهي دولة كبيرة لها مصالحها الخاصة المتنوعة والحيوية في جمهوريات آسيا الوسطى، فيحدد الباحث لها دور الخدمة، وهي خدمة حماية الشرق الأوسط من التأثير المضر والوخيم من قبل ما يسميه القوى الإسلامية المتطرفة؛ لأن هذه المنطقة من الناحية الأمنية هي منطقة مهمة جدًا لواشنطن (ص ٦١ - ٦٢).

ويعدّ كتاب أستاذ أحراري مع جميع ملاحظاتنا وتعليقاتنا كتابًا مهمًا ومفيدًا من ناحيتين: علمية وعملية، والدراسة التي قام بها في هذا الكتاب هي مساهمة في بحوث دولية علمية جارية في الوضع الراهن وفق تطور منطقة آسيا الوسطى، وقد تحولت إلى منطقة إستراتيجية مهمة جديدة في السياسة العالمية.

المكانة الدينية والعلاقات الاقتصادية تعطي المملكة العربية السعودية فرصًا كبيرة لإقامة علاقات وطيدة مع الجمهوريات الإسلامية



معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين

مؤسسة جائزة البابطين للإبداع الشعري

مراجعة: يوسف عز الدين

تستعمل كلمة معجم في غرضين: الأول حصر معاني الكلمات ومفرداتها وأصولها مثل: «لسان العرب» لابن منظور (ت: ٧١١هـ)، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادي (ت:٨١٧هـ). والثاني لحصر أسماء الأعلام والرواد والقادة مثل «معجم الأدباء» لياقوت الحموي (ت:٦٢٦هـ) و«الأعلام» لخير الدين الزركلي، ولم أجد أصل كلمة معجم، وكيف تطورت في اللغة العربية؟

فقد ذكر الدكتور حسين نصار أن أول من استعمل كلمة معجم هو أبو القاسم البغوي عبدالله بن محمد المعروف بابن بنت سبع (ت:٣١٧هـ) في القرن الرابع الهجري في كتابه «معجم الصحابة»، وقد نوقشت الكلمة من القدامى مثل: ابن جني (ت:٣٩٢هـ) في «سر الفصاحة»، وغيره من الأعلام. واتفق الجميع على أن العجمة: الحُبسة في اللسان، ولذلك يسمى من لم يفصح بأعجمي، وكل من لا يفصح فهو من العجم، وقيل: استعجم الرجل سكت، وقد خُصص المعجم في أوله للأعلام، ثم استعمل في مفردات اللغة، وكان عمل المعاجم فرديًا، فقد ألّف ياقوت الحموي، وابن خلكان (ت:٦٨١هـ)، والسيوطي (ت:٩١١هـ) المعاجم دون معونة آخرين، وفي العصر الحديث ألف في العراق علي الخاقاني ومحمد علي اليعقوبي عدة مجلدات عن (شعراء المغري)، وشعراء الحلة، وخير المعاجم هو «الأعلام» للزركلي، ووضعتُ جزءًا واحدًا عن «شعراء العراق في القرن العشرين». وقد تنوعت المعاجم، وكثرت على مر الزمن عن الرجال والنساء والنحاة والصحابة، وبدأت في أوربا معاجم عن أعلام العالم ومؤرخيهم وأدبائهم. ولما أُلفت المعاجم عن اللغة سميت بالقاموس الذي يعني البحر العظيم للدلالة على الشمول والسعة، كالقاموس المحيط، ثم عُممت على المعاجم، وسميت (القواميس).

ومن أهم رواد المعاجم الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت:١٧٠هـ) الذي أخذ معجمه «العين» ابن دريد (ت:٣٢١هـ) وسماه «الجمهرة»، فهُجي بذلك. وقيل عن الجمهرة: وهو كتاب «العين»، إلْ... لا أنه قد غيّره.

ويعمل مجمع اللغة العربية بالقاهرة على إصدار «المعجم الكبير» بعد أن أصدر «الوجيز»، و«الوسيط» في طبعات كثيرة.

معجم البابطين

وأصدر الشاعر السرّي البابطين من الكويت معجمًا جديدًا حاول فيه جمع شعراء العرب المعاصرين، وتألفت لجنة علمية كبيرة لهذا الغرض، وقد وفق إلى طبعه وتوزيعه بنفقته إلى كل من ورد اسمه من القرّاء، في مختلف أماكنهم. والرجل يستحق التقدير والشكر؛ لأنه صرف ماله في مشروع غير استثماري مثل غيره من الأغنياء، فخلد اسمه في سجل التاريخ الأدبي، إذ أصبح مرجعًا لكل من يريد دراسة الشعر العربي الحديث والمعاصر. ومع كل الجهود الخيرة المالية والأدبية دعاني النقد العلمي إلى إبداء ملاحظات لابدّ من ذكرها، وعسى أن يسهم غيري في هذا المعجم المفيد. ولا تنقص هذه الملاحظات من الجهد الكبير والمال الوافر اللذين أنفقا في إبراز المعجم، وتوزيعه في كل الأنحاء.

في الشعر والشعراء

حوى المعجم عددًا كبيرًا من الشعراء الذي نظموا باللغة العربية في البلاد العربية وخارجها، وكان منهم من لم يستقم له عمود الشعر، وفيه الشعر الركيك، وحشر فيه كل من قال: إنه شاعر دون أن تهتم اللجنة بالموهبة الشعرية، وتحديد المعايير الفنية للشعر؛ لأن كلمة شاعر ما تزال سحرية الوقع في النفس العربية، وظهرت أسماء بعيدة عن أصالة الشعر، وموسيقاه الفنية، وبعضهم لصق بالشعر لصقًا مثل النثر الشعري أو الشعر النثري أو القصيدة النثرية، ولو كانت أشعارهم جميلة الأسلوب الفني والموسيقى



عبد القادر الجزائري

اللفظية لهان الأمر. ويظهر أن القائمين على المعجم تباروا في حشد أكبر عدد من الشعراء. إن حرفة الشعر انتهت بعد مزاحمة وسائل الإعلام لها، ولم يعد الشاعر قادراً على كسب قوته من قول الشعر، ولانجد في العصر الحديث شاعراً دون عمل يدّر عليه قوته.. وقد أغفل عدداً من الشعراء الذين ذهبوا إلى رحمة الله.. وفي «أشعار المحبين إلى يوسف عز الدين» تأليف الأستاذ حماد السالمي عدد كبير لم تصل إليهم اللجنة على جودة شعرهم.

الإخراج والورق

أضاع المشرف على المعجم عدداً كبيراً من الورق لا يحتاج إليها الجمال الفني، ولا أدري، لماذا لم يستعمل الورق الذي تستعمله الموسوعات الغربية؟ فهو خفيف الوزن قوي القوام. فالباحث تهمه دقة المعلومات وسهولة الوصول إليها. وثقل الورقة والتجليد زادا من حجم المعجم، وهذه دور الكتب الغربية أخرجت جميع أعمال شكسبير بمجلد واحد، ومثلها أعمال ألكسندر بوب، وتنسون، وأصبحت رخيصة الثمن، سهلة الحمل.. والعالم مقبل على الاختصار والتركيز حتى غدت الموسوعة البريطانية مسجلة على أسطوانة صغيرة، ومثلها موسوعة (هيجنتون)، والموسوعة الإسلامية، لتوفير المال والمكان، وسهولة الاستفادة منها.

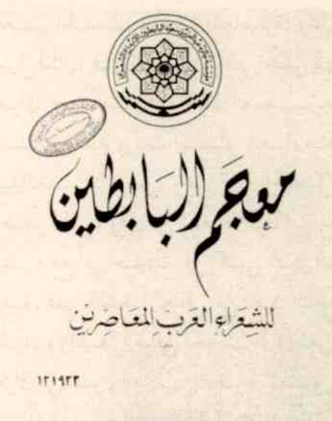
الجزء السادس

إن فائدة المعاجم التسهيل على الباحث ليصل إلى المادة العلمية بنفسه، والاستفادة منها بخبرته وتجاربه دون مؤثر يوجهه؛ لأنه قادر على التمييز بين المواد الأولية التي يحويها المعجم.

وقد صدر الجزء السادس، وفيه دراسات متناقضة، وآراء فردية تحتاج إلى نضج وحياد وعمق فكري؛ فقد ظهر عند بعض الباحثين الاتجاه السياسي، والعصبية الفكرية، والبلدانية، والإقليمية.. ولم يساعف التوفيق بعض الذين قدموا الدراسات لضحالة المعلومات، وتشوش النتائج. وكنت أتمنى من اللجنة عدم التورط بمثل هذه الدراسات وتكتفي بالمعلومات التي طلبتها من الشعراء، أو أنها وضعت منهجاً موّحداً يسير في هديه الباحثون. وأن تكون الدراسات خاصة بالشعراء الذين جاء ذكرهم في المعجم، والنصوص التي أرسلها لهم المبدعون، لتتسق الدراسات مع هدف المعجم وغايته الأساسية العلمية الكبيرة.

اسم المعجم

تعلمنا في دراسة البحث العلمي ضرورة أن يكون عنوان الكتاب مطابقاً لمضمون المعلومات التي يحويها، ولم توفق اللجنة باحتواء «شعراء العرب المعاصرين»؛ لأننا وجدناه سجل شعراء القرن التاسع عشر،



معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين

الكويت: مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

ط١، ١٩٩٥



عبد الغفار الأخرس



إبراهيم السامرائي



عاتكة الخزرجي

والعصر الحديث، والفترة المعاصرة، وعلى سبيل المثال، فإن الصفحات التي خُص بها العراق حَوتْ مثل هذا الخلط العجيب بين الفترات؛ فقد وردت أسماء شعراء مثل عبدالغفار الأخرس، وعبدالغني الجميل، وحيدر الحلي، وهم من شعراء القرن التاسع عشر، مع أني حددت في كتبي الفترات الزمنية، ففي «الشعر العراقي في القرن التاسع عشر»، و«الشعر العراقي الحديث»، و«شعراء العراق في القرن العشرين» وضوح للعصور. وقد أُغفلَتْ من الشعر الحديث والمعاصر الدكتورة عاتكة وهبي الخزرجي وأهمل إبراهيم الرانكي رحمه الله، مع أن الباحث استفاد من كتابه، ولم يذكر إبراهيم السامرائي، وشاذل طاقة، وخيري الهنداوي، وعبد الحسين الأزري، ومحمد علي اليعقوبي، ومصطفى جمال الدين، وعبداللطيف الكمالي، وشفيق الكمالي، ومحمد باقر الشبيبي، وهم ممن أسهم بحركة الشعر، وطبعت لهم دواوين شعرية متوافرة في المكتبات. وأشكره لوضع اسمي في آخر القائمة.

ولو تتبعنا الأقطار العربية الأخرى لوجدنا الخلط التاريخي في الجزائر، فقد ذكر الأمير

من الأخطاء التاريخية والمنهجية عدم التحديد الدقيق لتواريخ الميلاد والوفاة لبعض الشعراء والخلط بين الفترات الزمنية

عبدالقادر، وهو مفخرة الفكر العربي، ولكنه ليس معاصرا (١٨٠٧ - ١٨٨٣م)، وتكرر الأمر عند تناول شعراء السودان والأردن وفلسطين؛ لأن المشرف لم يفرق بين الفترات الزمنية، ويعرف الاختلاف الحضاري الجوهري بينها، ولو درس ذلك لوجد الحديث في مصر يختلف عنه في الوطن العربي الذي كان مع الدولة العثمانية التي بدأت فيها بوادر التحديث بعد الدستور العثماني سنة ١٩٠٨م، وبرزت بعد الحرب العالمية الثانية ١٩١٤ - ١٩١٨م عندما دخلت المقطم والمقتطف والهلال ثم الرسالة إلى الوطن العربي.. أي إن الحديث في مصر غيره في العراق والشام.

إن المعجم نفسه نمّ على هذا الخلط بذكر تاريخ ولادة الشاعر؛ وسنة وفاته؛ ولو كان في اللجنة مختص لفرق بين الفترات الزمنية. والواقع أن الأجزاء الثلاثة على ما فيها من خلط مادة أولية ثرة، والسبب ترك الأمر للموظفين والأمانة العامة للمعجم دون مراجعة، وإلا لما ذكرت أسماء من قدّموا لكتب كتبت عني، وأغفلت أسماء المؤلفين الذين كتبوا هذه الكتب مع أنني ذكرت لهم أسماء ثلاثة عشر كتابًا مع المؤلفين، ومحل الطبع، وسنة الطبع التي صدرت عني، فترك اسم المؤلف، وذكر اسم المقدم.

دقة الدراسات

كنت أتوقع أن يلتزم الدارس ضبط سنوات ولادة الشاعر، وسنة وفاته، وألاّ يقول في الأربعينيات أو الخمسينيات، وأن يتخذ من نصوص المعجم مادته العلمية، ويحكم على الشعر وبخاصة وجود هذا الكم الكبير من النصوص ليساير الهدف الذي طبع من أجله المعجم، وأن يفرق بينها، ويذكر لنا الصور الشعرية، والتطورات الفنية، والتجديد اللغوي في القطر الذي درسه. فنعرف التطور اللغوي الذي ظهر عند الشعراء في مختلف أقطارهم بعد تأثير فلسفات الحضارات الجديدة في الشعر. وقد وجدت بعض الدارسين لا يفرق بين مصادر البحث ومراجعه، ولم يكلف نفسه دراسات الينابيع

الأولى التي درست الشعر، واكتفى بأقرب مرجع معاصر له، واعتمد عليه.

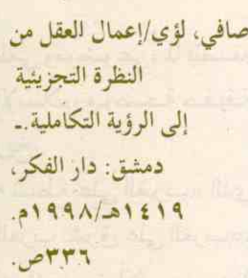
إن مجلس الأمناء شكل من (١١) عضواً مع الرئيس والأمين، وقد ورد في المعجم أسماء (١٩) عضوا كان حريًا بهم ألا تفوتهم مثل هذا الهنات.. وعذرهم هذا العدد الكبير من الأسماء والنصوص، مع أنهم أخذوا زمنًا كافيًا.

الفهارس

وضع الفهارس ضرورة علمية، وأحسن الكتب ما كانت فهارسه يسيرة الفهم. وأنا طالب علم لم أجد هذا اليسر في فهارس المعجم. فعند تكرار الاسم يقول (انظر) ولكن لم يذكر الصفحات التي أراجعها، وذكر أسماء الدواوين دون ذكر محل الطبع، وسنة الطبع، وأدخل (ال) التعريف، والمفهرس المختص لا يضعها؛ لأنها لا تدخل في الأسماء، وذكر أسماء الشعراء حسب بلدانهم، ولم يذكر الصفحات التي وردت فيها هذه الأسماء (٧٦ - ١٥٢) وذكر السنوات صمّاء دون ذكر تاريخ الميلاد، وسنة الوفاة لمن مات من الشعراء. ووضع سلسلة طويلة عن أعمار الشعراء فما فائدتها في البحث العلمي؟ ولو فرق فيها بين الفقرات الزمنية لأفادنا كثيرًا؛ فقد أصدر كامبل مثلاً معجمه ١٩٩٦م «أعلام الأدب العربي»، واقتصر على المبدعين مباشرة، وعمل ما لم تقدر عليه اللجان العلمية.. ولو أن الفهارس اقتصرت على الأعلام الواردة في المعجم كله مع الصفحات التي ذكرت فيها، والأماكن التي وردت، وأسماء الكتب بما فيها الدواوين مع ذكر اسم المؤلف، وسنة الطبع، ومحله، وفهرس ألفاظ القرآن والحديث، والتعابير الحضارية لاستفدنا منه الفائدة المطلوبة بيسر وسهولة، ولوفر علينا وقتًا، وعلى البابطين المال، وعلى المطبعة الجهد والورق.

وأخيراً إنه جهد كبير قام به الشاعر سعود عبدالعزيز البابطين، وسجل شعراء لم يحلموا بأن يذكرهم أحد في عداد الشعراء. جزاه الله أكرم الجزاء، وكفى المرء نبلاً أن تعد معايبه.

إصدارات



الخويطر، عبدالعزيز بن عبدالله/ملء السلة من ثمر المجلة.- الرياض: المؤلف، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م. ٤٠٨ص.

هذا هو الجزء الأول من الكتاب، جمع فيه المؤلف مقالات نُشرت في كل من المجلة العربية ومجلة الفيصل، كُتِبَتْ هذه المقالات، وكل واحدة لها هدف مقصود، وغرض معين، وفائدة مرجوّة، ونفع مؤمل، وغاية نبيلة، برهن فيها المؤلف على أحاسيسه ومشاعره، وقدّم نصائحه وتوجيهاته، للرقي بالأمة للمكانة اللائقة بها.



لانغ، جفري/الصراع من أجل الإيمان.- دمشق: دار الفكر، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م. ٣٦٧ص.

هذا الكتاب هو أشبه ما يكون بمذكرات شخصية، وتجربة رجل آمن بالإسلام، ركز فيه على موضوعات ذات أهميّة عامة لمعتنقي الإسلام من أمثاله.

ويتكون الكتاب من خمسة فصول، فالفصل الأول يلقي الضوء على قرار الاعتناق، ثم يتناول في الفصل الثاني دور القرآن في اتخاذ ذلك القرار، والفصول الثلاثة الأخيرة تعالج الصعوبات التي واجهت مؤلفه بعد اعتناق الإسلام، وصراعه للانخراط في حياة الجالية الإسلامية بالولايات المتحدة الأمريكية.

صافي، لؤي/إعمال العقل من النظرة التجزيئية إلى الرؤية التكاملية.- دمشق: دار الفكر، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م. ٣٣٦ص.

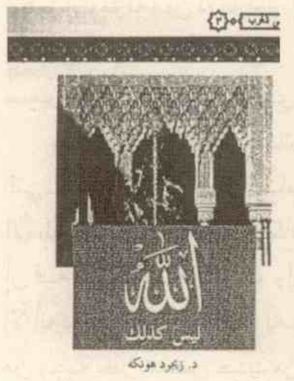
أثار المؤلف في هذا الكتاب إشكالية العقل مبيناً المفاهيم والمبادئ والتصورات في العقلين التراثي التقليدي والحداثي والوضعي ومنهجيات التفكير التي تحكمها، قدم بعدها رؤية بديلة تطمع إلى تجنب الرؤية الأحادية، والاستعاضة عنها برؤية توحيدية تربط العلوي بالتجريبي والمعياري بالوضعي.

ويشير مؤلف الكتاب في مقدمته إلى أن من مظاهر الفوضى والاضطراب اللذين يعتريان العقل المسلم اليوم تعايش منظومات معرفية متناقضة ومنهجيات علمية متعارضة جنبًا إلى جنب في ضميره ووجدانه. وهو يطرح السؤال التالي:

كيف يمكننا تجاوز حالة الفوضى الفكرية السائدة وإعادة العقل المسلم إلى حيويته وفاعليته؟

ثم يبدأ في الإجابة عن هذا السؤال بتحديد مصادر التشوهات الفكرية والنظرية التي تعتري عمليات التفكير ويحددها في التشوهات النصية، والتشوهات الناجمة عن محدودية الإنسان العضوية، وتشوهات ناجمة عن المحدودية العاطفية للإنسان.





هونكه، زيجرد/ الله ليس كذلك: تفنيد ١٠٠١ من الادعاءات الباطلة عن العرب.- ط٢، مصححة ومنقحة.- ميونيخ: مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام، ١٤١٩/١٩٩٨م، ٩٣ص.

تصدت المؤلفة، وفق منهج علمي وموضوعي، لما يلصقه الغرب ظلمًا أو جهلاً بالعرب والإسلام، موضحة حقيقة الإسلام وأهله للفئة التي زيفت التاريخ.

وللمؤلفة كتاب «شمس الله تسطع على الغرب» الذي ترجم إلى العربية بعنوان «شمس العرب تشرق على الغرب»، وقد بيع منه أكثر من مليون نسخة، وقد نشرت أكثر من سبعة عشر كتاباً.

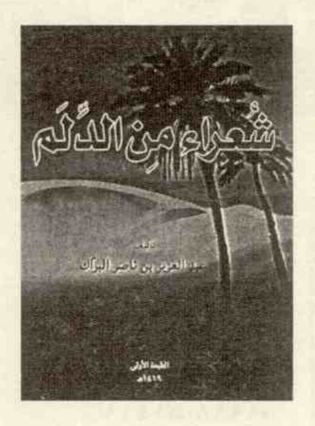
وهي تقول في تمهيدها عن أسباب نشر هذا الكتاب: إن الغرب أصر إصرارًا على دفن حقيقة العرب في مقبرة الأحكام المتعسفة، والافتراءات الجماعية دفنًا، وأهال عليها ما أهال طمسًا منه لمعالمه، وتضيف: أن محاولاتها قد شقت شقًا في متاهات عدم المعرفة المتوارثة، فقد استقر في أذهان السواد الأعظم من الأوربيين الازدراء الأحمق الظالم للعرب، ولا يزال صريخ القوم يحذرهم من سطوة الإسلام الحربي.

وأن ذلك يتطلب ضرورة فضح تلك الأحكام المتجنية والمتعسفة وإزالتها، فالغربي يقع فريسة معلومات مبتسرة غير موضوعية، ونقص في التفاصيل والملابسات.

القاري، أحمد/ لا أحد يعرف ما أريده.. دمشق: دار الفكر، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ٢٨٠ص

عرضت هذه الرواية قصة شاب يافع يعيش تناقضات مؤلمة بين الالتزام الخلقي الذي يجده في ضميره، والانحراف المادي الذي يغريه في مجتمعه.

وقد نالت هذه الرواية الجائزة الأولى في المسابقة السنوية التي تقيمها دار الفكر لعام ١٩٩٧م. وأثنت اللجنة على الأسلوب الفني الذي انتهجه الكاتب في بناء قصته، مشيراً إلى أن فيه محاولة للتجديد، فهو وإن كان يجنح إلى السرد غالبًا، إلاّ أنه يقسم روايته أقسامًا، يعرض الفكرة ذاتها في كل قسم من وجهة نظر شخص جديد من شخوص الرواية التي يتغلغل فيها، ويسبر أغوارها، ويصورها التصوير الكاشف.



البراك، عبدالعزيز بن ناصر، شعراء من الدلم.. الدلم: د.ن، ١٤١٩هـ، ٣٠٩ص.

يضم هذا الكتاب نماذج من أشعار أكثر من ثلاثين شاعراً من الدلم مع ترجمة مختصرة لحياة كل واحد منهم.

والدلم من أكبر مدن محافظة الخرج، وتتميز بأشجارها وكثبانها الرملية، ومن الذين أوردوا الدلم في أشعارهم عنترة بن شداد، والأعشى بن قيس، والنمر بن تولب، وجرير. وقد صور الشعراء المحدثون ما يعيشه الدلم من نهضة زراعية، وما لأهلها من صفات الكرم والتآلف.

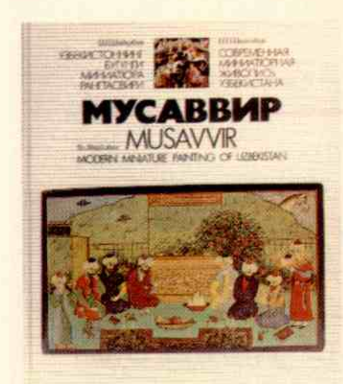


الحبشي، عبدالله بن محمد/ تصحيح أخطاء بروكلمان في تاريخ الأدب العربي: الأصل ـ الترجمة.. أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ٣٦٥ ص.

يشير المؤلف إلى أهمية كتاب «تاريخ الأدب العربي» للمستعرب الألماني كارل بروكلمان، الذي غطى تاريخ أربعة عشر قرنًا من الإنتاج والدراسات العلمية في مختلف المجالات. ومع ذلك، فإنه لم يخل من الأخطاء، وجاء أغلبها نتيجة عجمة المؤلف، وعدم درايته في قراءة المخطوط العربي في خطوطه المختلفة.

ولم تقتصر أخطاء بروكلمان على كتابه وحده، وإنما تسربت منه إلى سائر المصادر العربية الأخرى التي نقلت عنه.

ولم تكن الأخطاء في الترجمة العربية هي أخطاء بروكلمان فحسب، وإنما حدثت أخطاء في أسماء الكتب والأعلام، إذ وقع المترجمون في تخبط كبير، وأخطاء فاحشة حين أرادوا إعادتها إلى أصولها.



الرسم الحديث للمنمنمات في أوزبكستان
شيكبوف
طاشقند ١٩٩٤م

الرسم الحديث للمنمنمات في أوزبكستان

مراجعة: **شاه رستم شاه موساروف**

«الصيد» صندوق، ١٩٨٧

أصبحت نهاية السبعينيات من هذا القرن فترة بارزة في الحياة الثقافية لأوزبكستان، إذ تميزت بظهور نوع جديد من الفن الأوزبكي، وهو الرسم بورنيش اللك على الورق المعجن (تاش - قاغاز في الأوزبكية). وشهدت تلك الفترة اتحاد أساتذة الفن الشعبي للجمهورية في مؤسسة تسمى «أوستا» (وتعني الأستاذ في اللغة الأوزبكية)، وتكوين أستوديو رسم المنمنمات برئاسة الرسام الشهير شنجيز أحمروف.

ورسم المنمنمات بورنيش اللك له جذور عميقة في أوزبكستان، فقد أثبت الاختصاصيون من خلال دراسة نماذج الحرف القديمة الموجودة في المتحف الوطني للفنون الجميلة أنها وجدت مع منمنمات الكتب والرسم الزخرفي، وتطورت بصورة بارزة في آسيا الوسطى خلال القرون الوسطى.

وتناولت عدة إصدارات هذا الموضوع، ومن بينها إصدارات لكل من سليمانوف، ودولينسكايا، وأسمايلوفا.

وكان رسم المنمنمات بورنيش اللك في إقليم أوزبكستان يستخدم بصفة رئيسة لأغراض التزيين المختلفة في الحياة اليومية، وربما كان ذلك سببًا في عدم الاحتفاظ بالكثير منه، مع أنهم كانوا على اتصال قريب بتقاليد الجيران في إيران، إضافة إلى الاتصال الوثيق بالحرف الروسية من خلال المراكز الثقافية في بالخ ومستيرا وخولوي وفيدوسكينو، وتكونت تقاليد مشتركة بينهما في رسم الأيقونات والفن الشعبي..

في أوائل الثمانينيات بدأ متخصصون صغار من أوزبكستان ممارستهم هذا الرسم في فيدوسكينو وبالخ، وقامت تلك الاتصالات المهنية بتطوير التعاون الذي بدأ عام ١٩٣٧م. حيث دعي الرسام شيبورين من بالخ للمتحف الوطني للفنون الجميلة في أوزبكستان في نهاية الثلاثينيات لتعليم صغار الرسامين أسرار رسم المنمنمات بورنيش اللك، ومن نتائج ذلك التعاون ظهور أعمال أليموف، التي عرضت في معارض الاتحاد للفنون الشعبية، والحرف اليدوية في موسكو عام ١٩٣٩م.

قام الأساتذة الأوزبكيون بالفحص الدقيق للتقنية القديمة لعمل الأشكال والرسوم، وتقنية الزخرفة وصنع فرش خاصة.

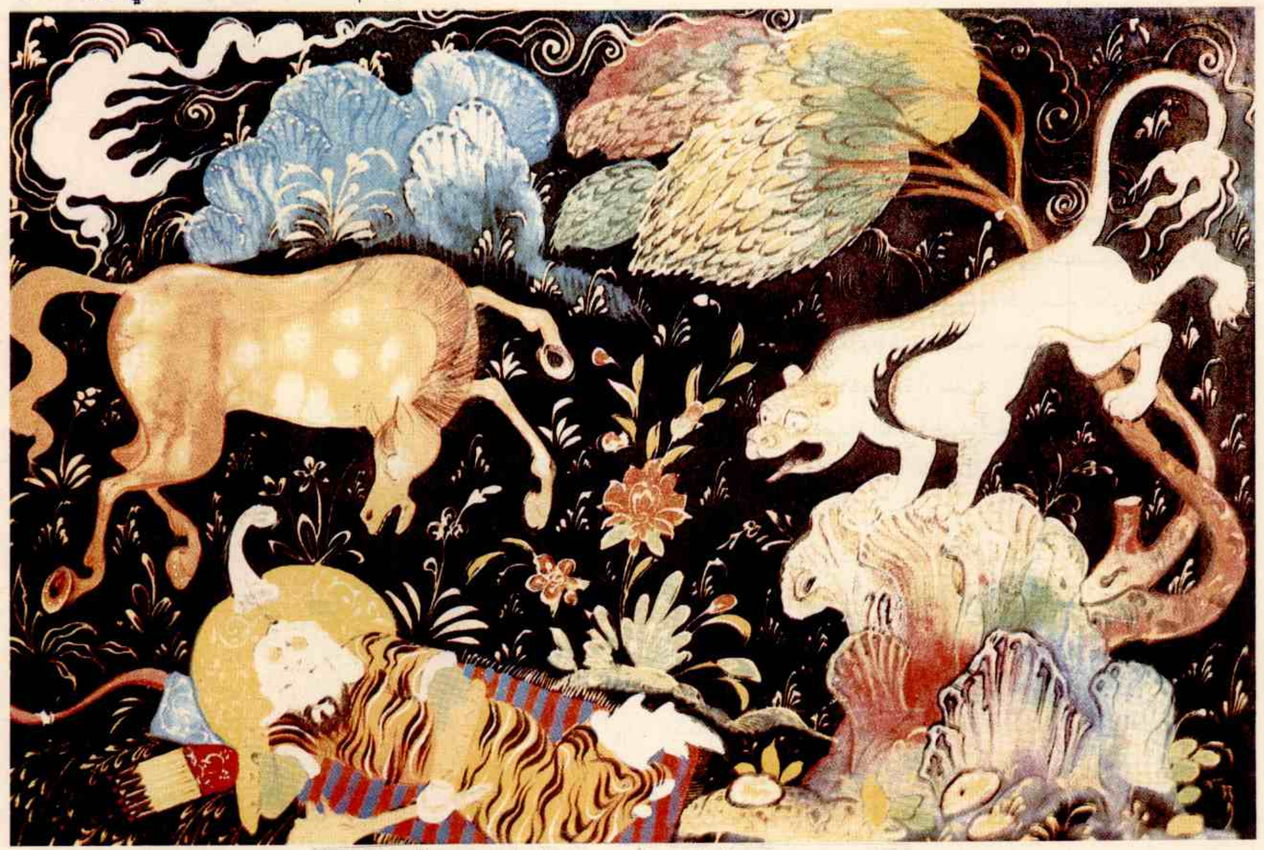
وواجه الفنانون الأوزبكيون صعوبات متعددة في وضع تقاليد جديدة خاصة بهم، فكان عليهم اختيار الألوان التي يرون أنها ينبغي أن تسود بدلاً من خلفية بالخ السوداء التي كانت غير مقبولة في هذا الإقليم.

مع المناظر التقليدية من الأعمال الكلاسيكية للشعر الشرقي، عمل الرسامون الأوزبكيون للمنمنمات على التكوينات التي لا تتصل بالمادة الأدبية التي تعكس مناظر وأشخاصًا من الحياة المعاصرة، وقد سادت هذه النزعة بشكل أساسي في أعمال ألداشيف «طاشقند في عام ٢٠٠٠م» (١٩٨٢م)، وكذلك في أعمال خالماتوف «إجلال الناس» (١٩٨٢م)، وفي عدد كبير من الأعمال الأخرى المختلفة.

وتميزت أعمال عبدالباسط قامباروف بالاهتمام الواضح بالتقاليد القديمة، وكان مغرمًا بالتصميمات التركيبية القديمة، والموضوعات المتصلة بالأدب الكلاسيكي، والفن الشعبي، وقد



«زخرفة أوزبكية» صندوق ١٩٨٢



مشهد من «ملحمة الشاهنامه» زخرفة على صندوق، ١٩٨٤

أخذت الزخرفة اللامعة للموضوعات الدرامية من الشعر الكلاسيكي، وانبعثت في أعمال الرسامين، وكانت ممتلئة بمعالم المناظر الطبيعية كما في أعمال علي شير نوائي، وبخاصة في عمله الخالد «فارخاد وشيرين».

يستخدم المؤلف أحيانًا الوسيلة الأوربية لعمل التكوينات بواسطة الرسم المنظوري المباشر، لكنه يحاول أن يجمعها مع تقاليد المنمنمات، ويجعل الأشكال للأبطال الرئيسين أكبر في الحجم.

ويقوم بعض الرسامين بتحديث الموضوعات والأجهزة النموذجية التقليدية القديمة، لكنها ليست مجرد عملية تغيير، وإنما هي إخضاع للتقاليد وتطويرها باستخدام تخيل الفنان المعاصر.

وقد استلهم كثير من الرسامين أعمالهم من الأدب الأوزبكي الكلاسيكي، ومن القصائد المهمة المعروفة: «يوسف وزليخة»، و«ليلى والمجنون»، و«فارخاد وشيرين». ولبعض الرسامين من أستوديو المنمنمات بورنيش اللك محاولات في الرسومات الجصية الجدارية. وتعود أولى تجاربهم إلى عام ١٩٨٤م عندما قام فنانون منهم برسم صورة جدارية لمدينة جوليستان.

درس نيار علي خالماتوف جيدًا المادة الجديدة - الكتل الخشبية المضغوطة المصنوعة من نشارة الخشب - وقام بعمل رسومات تخطيطية للصور الجدارية مع بعض المساعدة من أحمروف، استنادا إلى تجارب متخصصين في بالخ. وكان المؤلفون يبحثون عن طرز جديدة وتقنية وصور حديثة.

وأخيرًا تكون العمل من الصور الجدارية الأربع الكبرى: «أغنية الأرض»، و«أغنية المياه»، و«المسرح الشعبي»، و«أغنية السعادة» - وكلها تظهر فاكهة الأرض.

نجح الرسامون في إيجاد تركيبة للشكل والنمط والتركيبة التقليدية والموضوعات الحديثة. وكان هذا في الحقيقة جديدًا في الفنون الجميلة الأوزبكية، وفي مذهب المنمنمات بورنيش اللك.

وفي عام ١٩٨٤م قام خالماتوف وكمالوف بعمل صور جدارية لمطعم «أوزبكستان» في موسكو، طوّرا فيها مبادئ لغة التخيل الفني للتقنية التي اختاراها. وتكونت كل صورة جدارية

واجه الفنانون الأوزبكيون صعوبات متعددة في تكوين تقاليد فنية جديدة خاصة بهم



لوحة من كتاب «مجموعة اللغات التركية» ١٩٨٣

من سبعة أجزاء تروي حلقات من قصائد علي شير نوائي، والبطل الشعبي المفضل خوجا نصر الدين. وتم تركيب هذه التكوينات في كوات، وزخرفت بالنقش في جانشات (الألباستر).

تختلف جميع التكوينات في الشكل واللون، بيضوي للصالة الأولى، ومربع للثانية، وتم ربطها بتصميم زخرفي، استخدم الرسام فيه خلفية تقليدية بشكل عام تتكرر بتناغم من تكوين إلى آخر، كما تم وضع الصور بحيث يستطيع المشاهد أن «يقرأ» موضوع هذه القصيدة أو تلك.

ولعل الاستخدام الفني الجيد لتقاليد المنمنمات القديمة، والمحتويات العميقة، وسهولة الإدراك البصري من أهم ما يميز تلك الأعمال.

كان العمل التالي لخالماتوف هو ما اختص به مطعم «أوزبكستان» في عام ١٩٨٥م، وأعطى العمل عنوان «الحافز الداخلي»، وتكون من ثلاثة أجزاء: «الميلاد»، و«الشباب»، و«الخصوبة». واستخدم الرسام في هذا العمل مبدأ آخر من المنمنمات القديمة، وهو تأكيد اللونين الأزرق والذهبي اللذين أصبحا سائدين في كل التكوين. وقد تميز رسم القرون الوسطى بالتكوينات المتباينة للألوان الدافئة والباردة مما يبرز تباين الأحداث في حياة الإنسان.

إن الخبرات التي اكتسبت بواسطة الأساتذة الأوزبكيين

الجدد من رسم المنمنمات بورنيش اللك أثبتت أن هذا المذهب من الفنون ذو حيوية كبيرة. حتى إن المزيج الدقيق من أعمال الأساتذة المعاصرين أعطانا الدليل على أن تلك التكوينات أصبحت أكثر شمولاً، وأعطت الزخرفة المتزايدة اهتمامًا كبيرًا، ويمكن للفرد أن يشعر بالميل إلى أشكال الرسوم الجصية. كما أن النزعات العامة في فن الزخارف الضخمة أصبحت أكثر وضوحًا في أعمال الرسامين، وكانت اللوحات الزيتية المرسومة على قماش ولوحات البطاقات بواسطة أحمروف واحدة من نماذجها.

وبدا تحول رسامي المنمنمات من الأشكال الصغيرة إلى الرسوم الجصية الضخمة عملية طبيعية في الفن الأوزبكي الحديث.

لكننا الآن يمكننا فحص العملية الأكثر إثارة لانبعاث إدراك المذهب التقليدي للحرف وإبداعه في عمل الرسامين الجدد في أوزبكستان.

بالبحث عن تأثير رسم المنمنمات في القرون الوسطى في المنمنمات المعاصرة، فإن الفنون الضخمة والزخرفية المستخدمة تساعد على عرض عدة نزعات في نشوء هذا المذهب. ومن بين وسائل هذا البحث دراسة التوجه الدقيق الفني لطرق مدارس المنمنمات الكلاسيكية بهدف إخضاع مبادئها الفلسفية والرومانسية والفنية لطرق محددة من ترتيب الألوان والتركيبات، والأشكال الشعرية، والخلفيات الخيالية. وقد وجدت هذه النزعة انعكاسات في أعمال إبداعية للفنانين الذين كانوا حريصين على فهم الفرق الأساسي بين الرسم التوضيحي وقوانين المنمنمات القديمة؛ ومن أولئك الرسامين المبدعين محسن جانوف، وخالماتوف، ولوجوفسكوي، وألداشيف، وكمالوف، وقامباروف، ويولداشيف، وساتيبالديجيفا الذين كونوا نواة مركز أبحاث الفن الشعبي في طشقند باسم «مصوّر».

وكانت النزعة الثانية هي الرغبة في استعادة نموذج المنمنمات في الأعمال الإبداعية المعاصرة، والاهتمام بالمهام التي تتكون بواسطة المادة نفسها. إنها تعكس بالتفصيل تصميم الألوان المحددة، وشكلها، ونغمتها، ومزايا مبادئ المنمنمات الكلاسيكية.

استلهم كثير من الرسامين أعمالهم من الأدب الأوزبكي الكلاسيكي



مشهد من «مقابلة شخري ومشتري» زخرفة على صندوق، ١٩٨٣

لكن هذه النزعة الرئيسة للتطوير قد توقفت بسبب اللهفة لعمل سلسلة كبيرة من الصور.

في تلك الأعمال، فإن الصور الظلية لأشكال متعددة كانت متماثلة وباهتة، واتبعت شكل الصندوق أو الطبق، ولم تتوافق الرسومات في وحدة واحدة، ولم يظهر أي مستوى فني عال في البداية بسبب غياب انسجام شكل المواضيع والتركيبات الزخرفية، ومناظرها وزخرفتها.

لم يكن هذا الفحص الصحيح لرسومات المنمنمات الحديثة بعيدًا عن العملية الكاملة لتطوير الفنون في أوزبكستان، وقد كان لحفظ الاتصالات مع مراكز رسومات المنمنمات الروسية في بالخ، وخولوج، وفيدوسكينو أثر في تطور رسم المنمنمات بورنيش اللك في أوزبكستان، وبخاصة التقاليد المحلية للأساتذة القدماء في آسيا الوسطى التي تكونت تحت التأثير العميق للفن الشعبي، وهو ما يمكن رؤيته من خلال الزخرفة، والتركيبات الفنية، وكذلك أعمال الديكور الخاصة المتعددة الألوان.

وتثبت التجربة أن على الفنان عدم التنازل عن الميراث الغنيّ من التقاليد الثقافية للمنمنمات.

ففي أعمال محمد جانوف يمكن للمرء أن يرى نوعًا من التصميم. توجد صور للإنسان، والحيوانات، والمناظر الطبيعية، وبعض التفاصيل الأخرى، لكنها لا تمنعه من اكتساب صفة تعبيرية فنية وجاذبية.

هذه النوعيات مميزة في أعماله: «فارخاد وشيرين»(١٩٨٣م)، و«ليلى والمجنون في الصحراء» (١٩٨٣م)، و«فاه خرموز» (١٩٨٤م)، بعد «شاه نامه».

العمل الإبداعي لشاه محمود محمد جانوف أصبح الرائد للظاهرة الجديدة التي



«غاسياس» رسم على كتاب، ١٩٨٢

كونت نزعة معينة في الفنون الجميلة لأوزبكستان. وكانت البساطة، والتصميم المتقن، والرتم، والموسيقى، واللون المركز، والتركيب المنسجم، والمحتويات الفلسفية من الصفات المميزة لأعماله التي تمت بتقنية منمنمات الكتب، والرسم بورنيش اللك.

وأما نياز علي خالماتوف الصغير والموهوب فهو أكثر المتابعين لتقاليد رسم المنمنمات القديم. وتتميز أعماله بالإعداد الجيد لتركيبات الألوان القوية والضعيفة لإيجاد الأشكال الفنية للمناظر، كما أن الألوان الصافية لمنمنماته تبدو أحيانًا لامعة، ورسوماته بسيطة، وطريقة الرسم عنده تتميز بنقص الحركة.

وقد استخدم المناظر الطبيعية خلفية مركزا فقط على العناصر التي تؤدي دورًا محددًا في القصة (الجبال، النهر، البحيرة، الأزهار الخ...)، مع إعطاء المميزات الفردية لوجوه الصور. كما حدد المؤلف عدد الأشخاص الذين شملهم في تركيبته. وتتمايز الأشكال وطرزها بدرجة كبيرة. ونجح خالماتوف في عكس انفعالات أبطاله: الأسى والفرح، والخوف والنصر، واليأس. وفي رسوماته الجصية الجدارية الضخمة ابتكارات بلاستيكية خيالية انعكس فيها المذاق الفني الجيد، والرغبة في اكتشاف شيء جديد في الأعمال المتقنة المميزة بألوان رمزية، وصور مجازية، ودراسة فلسفية عميقة للموضوع. لقد نجح في إيجاد عالم خاص من الخلط الشعبي، والحياة العامة للناس، والتقاليد المحلية كما يظهر في أعماله: «فاميل بيرمى»، و«بيجزاد»، و«عازف دوتار»، و«سورنايشي»، و«نصر الدين أفندي»، وغيرها مما أبدع في الفترة من ١٩٨٢ - ١٩٨٥م.

ويقدم عمل فالنتين لوجوفسكوي الإبداعي مدخلاً نموذجيًا آخر للموضوع بواسطة تصميم فردي، وماهر للتركيبات. وقد أعطى اهتمامًا كبيرًا للموضوعات التاريخية، وللحياة اليومية، ويظهر أشخاصه عادة في ملابس تاريخية محاطين بعناصر معمارية من تلك الفترة. وأحد أفضل أعماله هو «معركة فارفارد واخريمان» (١٩٨٣م) التي أبدى فيها لوجوفسكوي معرفة جيدة بتقاليد المدرسة الرائدة للمنمنمات الشرقية في النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي. إن طريقته الفردية مميزة بتركيبات مرتبة جيدا، وقد نجح فيها في استخدام الطريقة القديمة لرسامي المنمنمات لإخفاء أشكال أشخاصه في زخارف رقيقة.

أن انبعاث فن منمنمات الكتب والخط هو أحد النجاحات البارزة على طريق إخضاع تقاليد الفن القديم. والأعمال التي أجريت بهذه التقنية تعكس حرفة المؤلف الفردية، والمستوى العالي لتقنية الإخضاع للتصميم الزخرفي، والألوان المنسجمة، والحرفة الفريدة، بما في ذلك إعداد أوراق وألوان وأشياء خاصة.



من الفولكلور الأوزبكي، صحن، ١٩٨٣

الحرفيون في مدينة جدة



الحرفيون في مدينة جدة

وهيب كابلي

جدة: أمانة محافظة جدة،
ط٢، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ٢١٩ص.

مراجعة: **قسم التحرير**

هذا الكتاب الصادر عن أمانة مدينة جدة، كتب مقدمته صاحب السمو الملكي الأمير ماجد بن عبدالعزيز أمير منطقة مكة المكرمة يشير فيها إلى ما توليه حكومة خادم الحرمين الشريفين من اهتمام وعناية بالتراث «ليكون نبراساً ينير الطريق للأجيال القادمة، ويحكي للأبناء كيف كان يعيش الآباء والأجداد؟ ليعبر بصدق عن أصالة ذلك الإنسان الذي ارتبطت مظاهر حياته اليومية بثرى هذا الوطن المعطاء».

وأوضح د. نزيه بن حسن نصيف أمين محافظة جدة ما لتاريخ مدينة جدة من تراث خالد يستحق التنقيب والبحث عن أسراره، ومع اندثار بعض الصناعات والحرف التقليدية على أثر التطور الكبير ظل بعضها قائماً حتى الآن، بل تبذل جهود للحفاظ عليها من الاندثار.

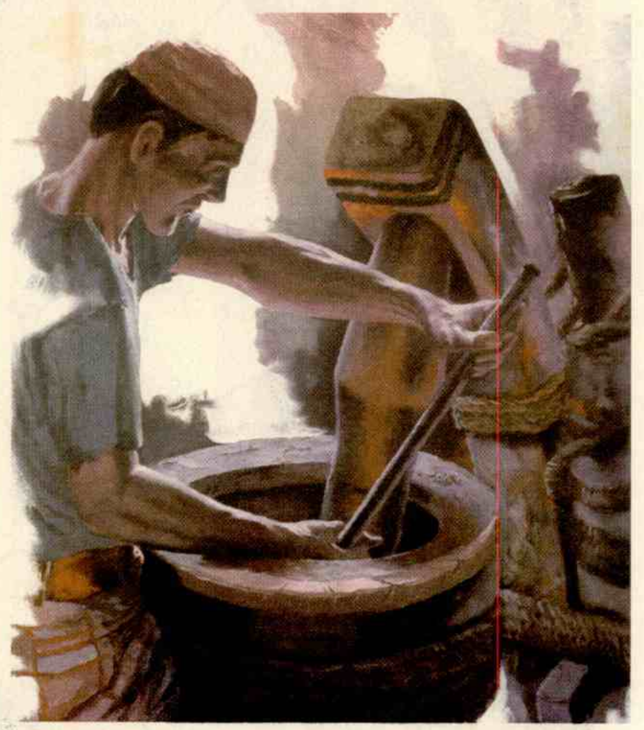
وأشار معد الكتاب وهيب أحمد فاضل كابلي إلى أن إعداد هذا الكتاب أخذ أكثر من سنة للصعوبات البالغة في لقاء الرجال الذين عايشوا الفترة الزمنية التي يتناولها الكتاب، مبيناً أن هذا الكتاب هو الأول من نوعه في تاريخنا المعاصر، ويلقي الكتاب الضوء على الحرف والمهن المختلفة الصغيرة منها والكبيرة التي سادت مدينة جدة في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية وما بعدها.

ويتكون الكتاب من أربعة فصول، وعنوان الفصل الأول «الحرفيون في مدينة جدة»، ويبدؤه بتقديم نبذة تاريخية عن مدينة جدة، موضحاً أن المؤرخين أوردوا أنها كانت مراعي لقضاعة منذ ما يقرب من ٢٥٠٠ عام تقريباً، وذكر أنها كانت أشبه بقرية متواضعة تعيش على الصيد على شاطئ البحر الأحمر، ومحطة للقوافل القادمة لزيارة البيت الحرام.

وضم مجتمع جدة خليطاً من المكيين واليمنيين والأحباش والحضارمة والهنود والترك والشاميين والمصريين.

وكان سكان جدة عبر العصور القديمة من العلماء والفقهاء والتجار الحرفيين والصيادين، واشتهر أهلها بالكرم وحب العمل والسمر.

ومن ملامح تميزها الرقي المعماري والجمال، ويورد الكتاب نصاً من كتاب «ملوك العرب» يتناول جوانب من الحياة الاجتماعية في جدة، فيصف أهلها بالورع والتقى، مبيناً أن بها نادياً فريداً هو نادي الصلاة، ويؤدي



لوحة فنية عن معصرة السمسم للفنان ضياء عزيز ضياء



«العربجي» لوحة فنية للفنان هشام بنجابي

أعضاؤه الصلاة ثم يتبارون في رمي كرات من حديد، ويجلسون بعد ذلك للحديث في الأدب والشعر والتاريخ، ومن أعضاء النادي الذين ذكرهم الكتاب الحاج زينل علي رضا، والحاج عبدالله علي رضا، والشيخ محمد نصيف، والشيخ سليمان قابل، والشيخ محمد الطويل، والملا حسين الشيرازي، وهم من أهل الفضل والأدب والتجارة.

زيارة أهالي مدينة جدة

تحت هذا العنوان يتحدث معد الكتاب عن بعض العادات الحسنة التي نشأ عليها أهل جدة، وأهمها التزاور فيما بينهم بطريقة تكاد تكون يومية، فكان لبعض التجار في مقدمة أحواشهم أماكن مفروشة بالسجاد، وكان التجار يفدون إليها صباحًا لتناول القهوة والشاي، وكان الأصغر سنًا يبدأ بزيارة الكبار، وكان يتجمع بعض التجار في «باب جديد» للحديث حتى صلاة المغرب، كما كان بعضهم يلتقون عقب صلاة العشاء للعب الورق، وكان النصف الأول من يوم الجمعة مخصصًا لتبادل الزيارات، وكان الجميع يذهبون لتوديع المسافر منهم، كما كانوا يشاركون في الوقوف إلى جانب من تتعسر تجارته.

ملابس أهالي مدينة جدة

يشير معد الكتاب إلى أن اللباس الرسمي للتجار كان الجبة ذات الأكمام الواسعة والضيقة، وهي من الصوف، ومن أهم ألوانها الأخضر والأصفر والأحمر، وكان بعضها يطرز بالفضة.

وكان أفضل أنواع الجبب من نوع «الأنقوري» وهو من الصوف المستورد من أنقرة، وكان بعض كبار التجار يضعون على رأسهم العمامة الشاريان المقصبة. وتحت الجبة كانت تلبس «الشاية» وكانوا يتحزمون بحزام رقيق من الصوف.

والعمامة الحجازية من الخوص الرقيق مكسوة من الخارج بقماش حريري مختلف الألوان، وتلبس تحتها طاقية. وكان للأشراف عمامة متميزة، وهناك صدرية تلبس تحت الثوب وسراويل تقوم ربات البيوت بتطريزها في أطرافها. وكان للشباب لباس للرأس يسمي شافري، وكان بعضهم يضع على رأسه طاقية جاوية، ويضع على عاتقه شاله المفضل.

وكان كبار التجار يضعون في جيوب صدرياتهم ساعات، يربطونها بخيط من الحرير الملون «قيطان» وكانوا يسمونه الكردون، ثم أصبحوا يستخدمون سلسلة من الفضة أو الذهب بدلاً من الخيط.

وكان بعضهم يحمل عصًا طويلة يسمونها «عصا اللوز»؛ ثم استعمل بدلاً منها في مرحلة لاحقة «الباسطون».

وكان كبار رجال الحارات مثل مشايخ الحارات والنقباء (مساعد شيخ الحارة) والشخصيات المهمة يلبسون العمامة الحلبي (الحرير) والمشالح، ويحتزمون بالسليمي، وهو قماش حرير أو صوف كان يستورد من سورية، أو بالبقشة وهو شال من الصوف يأتي من الهند، ومنه الشال الكشميري.

والفصل الثاني المعنون «حرف وحرفيون» أطول فصول الكتاب وأهمه، ويلقي الأضواء على أهم الحرف التي شاعت في مدينة جدة، وأكثر الحرفيين شهرة في كل حرفة من الحرف.

تجارة وتجار

والحرفة الأولى التي يتناولها الفصل هي حرفة التجارة؛ لأن مجتمع جدةتغلب عليه الميول التجارية، كما يقول معد الكتاب، ومما يورده ما ذكره محمد بن محمد الحميري الذي قال: إن من ملك من تجار جدة مئة ألف

دينار كان يبني قبة على أعلى منزله علامة على بلوغه هذه المرتبة الشامخة من الثراء بكده وجده وتجارته.

وكانت جدة تعرف بدهليز الحرمين، فهي أكبر ميناء على ساحل البحر الأحمر في الحجاز، وتجارها يمارسون تجارة الاستيراد من الهند واليمن والبصرة والسويس من أقدم العصور، وكانت البضائع التي ترد من هذه الجهات تلبي حاجة الحجاز كله، وما حوله من جزيرة العرب.

وفتح بعض التجار مكاتب تجارية لهم في بومباي مثل بيت زينل وبيت الجمجوم وبيت الفضل.

وكانت أهم البيوت التجارية في فترة ما بين نهاية الحرب العالمية الأولى وبداية الحرب العالمية الثانية (١٩١٨ - ١٩٣٩م) بيت زينل، وبيت باناجة، وبيت الجمجوم، وبيت الفضل، وبيت باعشن، وبيت باغفار، وبيت الصنيع، وبيت بن زقر وشنكار، وبيت الناغي والبحراوي، وبيت فايز، وبيت بن حمد، وبيت باعشين، وبيت الشبكشي، وبيت قابل، وهذه الفئة كانت الأكثر غنى، وكان لها اتصال مباشر بمصادر البضائع في مراكز التصدير، وكانت هناك فئة أخرى تقوم بشراء البضائع بكميات كبيرة لتوزيعها في مخازنها ولتموين عملائها في مدن الحجاز، وهذه الفئة كانت تسمى الحبابة وأشهر هؤلاء بيت نصيف، وبيت المغربي، وبيت أبو الجدايل، ومن الحضارمة با قبض، وبيت المتبولي. وقد انتهى دور هذه الفئة بدخول السيارات التي أتاحت لتجار مكة والمدينة وغيرهما من مدن الحجاز التعامل المباشر مع التجار المستوردين ومع بعض الوسطاء الذين يتولون شراء البضائع وإرسالها إلى عملائهم بالسيارات. وكانت هناك فئة ثالثة من صغار التجار.

أما بعد الحرب العالمية الثانية، فقد انفتحت المدينة على العالم كله، وكان دخول السيارة أهم تطور شهدته البلاد، وصار أكبر التجار هم وكلاء السيارات، وتحول بعض التجار القدامى إلى تجارة السيارات وقطع غيارها والإطارات والزيوت والوقود.

وكانت الوكالات في البداية محصورة في شركتين إنجليزيتين هما شركة جلاتكي هنكي وشركاه، والشركة الشرقية لصاحبها المستشرق عبدالله فلبي، وبعد ذلك أصبحت هناك فئة من الوكلاء الوطنيين، ومنهم بيت زينل، وأبناء الشيخ محمود زاهد، وشركة حسين العويني وإبراهيم شاكر، وشركة عرين لكمال أدهم، ومحمد علي مغربي، وأبو بكر باخشب.

ومن التغيرات التي شهدتها فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ظهور الإذاعة ورواج تجارة أجهزة المذياع، وراجت كذلك تجارة السلع الكهربائية،

ومن الأسماء التجارية اللامعة في تلك الفترة: بيت الجفالي، وبيت أبو داود، وشركة الأبار وزيني، وعبدالعزيز رجب وعبدالله سلسلة، وسليمان الزقزوق ومحمود محمد علي متبولي وبا عباد وغيرهم.

كما ظهر جيل ثان من أبناء تجار الفترة الأولى الذين استطاعوا المحافظة على المراكز التي أسسها آباؤهم، بل طوروها.

وكانت إزالة السور المحيط بالمدينة من مظاهر الانطلاق لها، إذ شهدت قيام عمارات حديثة مع الاعتناء بالأثاث، فراجت تجارة مواد البناء والأثاث الحديث.

أما الفترة الثالثة فشهدت قيام مدن صناعية، ومن أشهر الأسر التجارية في جدة: آل الهزاز، وآل البترجي، وآل اللنجاوي، وآل الكابلي، وآل عرب، وآل فايز، وآل عبدالفتاح، وآل أبو داود، وآل التركي، وبقشان.

ومن تجار جدة المرموقين السيد عبدالله السقاف، وسعيد باجسير، وعبدالله بن جنيد، وعبدالرحمن باجنيد، وسالم با محرم، وأحمد با عبير.

وقد ذكر المؤرخ عبدالقدوس الأنصاري في كتابه «تاريخ مدينة جدة» أسماء بعض كبار أهالي جدة وكبار التجار بها.



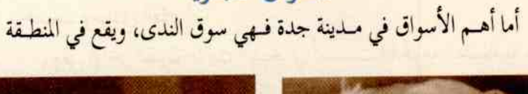
اشتهر أهل جدة عبر العصور بالكرم وحب العمل والسمر، وتميزت المدينة بالرقي المعماري والجمال

وكان تجار جدة القدامى يتوزعون في أحيائها القديمة المعروفة بالحارات، وأهمها حارة اليمن، وحارة المظلوم، وحارة الشام.

الأسواق التجارية

أما أهم الأسواق في مدينة جدة فهي سوق الندى، ويقع في المنطقة التي تبدأ من زاوية الحضارم إلى مسجد الباشا، أما المنطقة الواقعة بين باب مسجد عكاش الشمالي إلى زاوية الحضارم فتعرف بسوق القماشين، وقد أصبحت جزءًا من سوق الندى.

ومن الأسواق القديمة سوق البدو الواقع في الجنوب الشرقي من المدينة،





الشيخ سليمان أبو داود



في الأمام الشيخ عبدالله المحمد الفضل وفي الخلف الشيخ محمد هزازي



الشيخ يوسف زينل

صورة جماعية لبعض التجار

وسوق الجامع، وهو امتداد لسوق البدو من جهة الغرب، وسوق العلوي، ويتوسط شارعي قابل وشارع سوق البدو، وسوق الحراج ويقع في نهاية سوق الصاغة من الناحية الشمالية، وسوق الخاسكية ويقع جنوب غرب شارع قابل، وجنوب شرق السوق الكبير، وسوق الصاغة في الجنوب الشرقي من سوق الحراج، وسوق العصر، ويقع في باب شريف، وسوق الفحم والحطب، ويقع في نهاية شارع العلوي جنوب باب مكة، والسوق الكبير، وهو امتداد شارع قابل من الناحية الغربية، وسوق الرقيق، وسوق السبحية، ويقع ضمن سوق الخاسكية، وسوق البرادعية، وسوق البنط، وسوق الصيارفة، وسوق الحبابة، وسوق الصحيفة، وسوق بره، وسوق السبيل، وسوق النورية.

شهبندر التجار

يمثل الرئيس الشرفي للتجار، ويقوم بفصل المنازعات بينهم. وكان يختار من الأسر التجارية الكبيرة.

الشيخ محمد الطويل أشهر من عمل شهبندراً للتجار، وكذلك الشيخ أحمد المشاط.

وكان لكل وكالة وسوق شيخ للتجار، وهو أقل مرتبة من الشهبندر، وكان له الإشراف على الأمن العام وصحة التبادل التجاري بين السكان وأهل السوق، وكان يساعده في الغالب نقيب وكاتب.

مشايخ التجار بالوكالة

لم يكن يشترط في شيخ السوق والوكالة أن يكون من أصحاب الثراء، وإنما يكون من أهل السوق، ومن أكبر التجار سناً. وكانت الوكالات مركزاً لتجارة الجملة، كما كانت مكاناً مؤقتاً للتجار الأجانب والمسافرين.

ومن أهم الوكالات:

وكالة العقادين، وكالة السروجية، وكالة الغزل.

الفقهاء

كانوا يعلمون الأطفال قراءة القرآن الكريم في الكتاتيب، وكان أشهرهم آل عطية.

وكان كبار التجار أكثر الناس حرصاً على تعليم أبنائهم الخط والحساب ومبادئ الفقه.

وفي أواخر القرن الثالث الهجري أسست الحكومة العثمانية بجدة المدرسة الرشيدية التي سميت بعد ذلك بالمدرسة السعودية.

وأسس الحاج محمد علي زينل مدرسة الفلاح في جدة في عام ١٣٢٣هـ، وكانت أول مدرسة عربية حديثة بالحجاز.

المؤذنون والأئمة

كان المؤذنون يختارون من ذوي الأصوات الجميلة، وكان منهم من يمارس الغناء والإنشاد، ومن أشهرهم الشيخ أحمد قمر، والشيخ محمود زغابة، والشيخ محمود عبدالفتاح، والشيخ عمر دنه، والشيخ مصطفى الوسية، وكان رئيس المؤذنين في الفترة الأخيرة الشيخ عبدالقادر عبد الحميد عطية.

ومن الأئمة المشهورين في جدة الشيوخ محمود عطية، وعبدالحميد عطية، وسعيد عطية، وحسين عطية، وصالح عطية، ومحمود مراد، وحسين حضيري، وحسين شلبي، ومحمد نونو، وأحمد يوسف، وأحمد مصري، وأحمد الزهر، وعلي مفتي، ومحمد وسعيد رقبان.

الخطاطون

كان بعض الأثرياء حريصين على تزيين بيوتهم بآيات قرآنية وأشكال جميلة، وكان سليمان غزاوي، ومحمد طاهر كردي، وعلي جمجوم، وبشير والحبال، من أشهر خطاطي جدة.

الوكلاء

من أشهر الوكلاء وكلاء مطوفي مكة، وتقوم بمهام استقبال الحجاج القادمين إلى جدة.

الصيادون

كان معظم الصيادين يسكنون في الضواحي الخارجية من جدة قريباً من البحر في أكواخ مصنوعة من جذوع النخل، وتسمى (عشش). وكان الصيادون يستخدمون قبل المراكب الشراعية قطعاً خشبية تتكون من ثلاث أو أربع قطع تربط بالحبال، وكان بعض الصيادين يقومون بجمع المرجان الأسود الذي تصنع منه السبح وممصات السجائر. وكان سوق السمك يعرف في لغة أهل البلد (البنقلة).

الربابنة

وهو جمع ربان وهو المرشد البحري الذي يقوم بإرشاد السفن وتجنيبها المناطق الممتلئة بالشعاب المرجانية والمناطق الخطيرة. وكان بعضهم يسافر مع السفينة من ميناء إلى آخر.

ويعد الشيخ محمد يونس سلامة أول من وضع خرائط بحرية لمنطقة البحر الأحمر، ومن أشهر الربانية محمد يونس مرعي سلامة وابنه إبراهيم سلامة وابنه



صناعة السنابيك في جدة


الشيخ صالح موسى كعكي


الشيخ سالم بن محفوظ


أحد الدلالين في مدينة جدة عام ١٣٣٠ هـ


الشيخ محمد باقبص


الشيخ عبدالله موسى كعكي

يحيى سلامة، وسعيد رقبان وابنه عبد رب النبي وأبناؤه عبدالرزاق وحسين وعلي وعبداللطيف وجميل، وعبدالرحيم بن رحيله، وحسن رقبان، وحسين كدوان، وحسين داغستاني، ومحمد عثمان حنبظاظة، ومحمد أبو سويحل، ومحمد إبراهيم سلامة وأبناؤه.

صناعة المراكب الشراعية (السنابيك)

كانت هذه الصناعة تعتمد على أنواع كثيرة من الخشب، منها المستورد، ومنها المحلي، مثل أم دية والهدروس وحلقيم والمدبوس.

ومن أشهر من عملوا في هذه المهنة بيت السنديوني، والشيخ إبراهيم جاوه، والشيخ محمد علي دليل، والشيخ عبدالرحيم بنوي، والشيخ أحمد خياط. ومن أشهر شيوخ هذه الحرفة الشيوخ عبدالله مناع، وغانم المتولي، وعبدالله رشيدي ،وخليل بارك له، وقاسم.

الدلالون والسماسرة

الدلالون هم الوسطاء في الصفقات التجارية، وكان بعضهم يختص بتاجر معين إذا كانت تجارته واسعة، وأغلبهم كان يعمل مع كل التجار.

واستخدمت كلمة سمسار في أعمال بيع البن اليمني أو الأقمشة الهندية. وكان للدلالين شيخ، وكان يطلق عليه أحيانًا نقيب الدلالين. ومن شيوخ المهنة محمد محمد عبدالرحمن، ومحمد الشامي، وحسن وجيه باعشن، وأحمد أبو الحمائل.

ومن السماسرة المشهورين في تجارة البن الحاج محمد قادري، والحاج سليمان عمر الشامي، والسيد عثمان أحمد حمص، والناصري محمد.

المقادمة

جمع مقدم، وهو الشخص المسؤول عن بضائع التاجر أو التجار، فإذا كان للتاجر حوش به بضائعه عهد إلى المقدم مسؤولية هذا الحوش.

وكان لبعض المقادمة أحواش يتقبلون فيها البضائع من التجار، وكان عملهم يقتضي الاعتماد على بعض الدفاتر التجارية المتعارف عليها عند التجار.

الصرافون

وكان هؤلاء يعملون في صرف النقود بقصد الربح. وكانت شركة جلاتكي هنكي تعمل في أعمال الصرافة إلى أن تخلت عنها للبنك البريطاني المتحد.

وكانت مهمة الصرافين الأصلية تقوم على تغيير العملات من الذهب إلى الفضة بالعملة المحلية، ومن العملة الأجنبية إلى العملة المحلية وبخاصة في موسم الحج.

وكان بعض الأثرياء يدفنون أكياس الذهب تحت الأرض حتى لا يعرفه

غيرهم. وقد سمي شارع الذهب الحالي بهذا الاسم؛ لأن أحد المنازل عندما هدم في التنظيم الحديث لتطوير منطقة وسط البلد خرج من بين جدرانه جنيهات ذهبية كثيرة، وكانت مدفونة فيه.

وقد أنشأت الحكومة الهاشمية مصرفًا مركزيًا باسم البنك الأهلي استجابة لطلب رئيس البلدية في ذلك الوقت الشيخ محمد صالح نصيف، وافتتح البنك الأهلي بجدة في ٢٠ربيع الآخر ١٣٧٣هـ.

المخرجون

وهم الذين ترسل عن طريقهم البضائع الخاصة بالتجار، والطرود،

الشيخ عمر عبد البديع اليافي





الفنان حسن جاوه

الشيخ توفيق عبد البديع اليافي

والرسائل الخاصة بالأهالي بالجمال قبل دخول السيارة، وكانت لهم مواعيد ثابتة، ويعملون بموجب إيصالات تفيد باستلام التجار للبضائع، وكان المخرج كفيلاً ضامنًا لوصول البضائع إلى أصحابها. وكان لهم مقهى يجتمعون فيه يعرف بقهوة (المخرجون).

ومن أشهر شيوخهم محمد رفيع لنجاوي وعبداللطيف لنجاوي وعبدالله لنجاوي، وكان بيت باعشن من أكبر البيوت التي عملت في هذه المهنة.

الحمالون

وينقسم هؤلاء إلى الكرانيه وهم الذين كانو يعملون من الباخرة إلى السنابيك، والمنجلين وهم الذين ينقلون البضائع من السنبوك إلى ساحة الجمارك، أما حمال الزملة فكان يختص بنقل المكيسات من الأرزاق مثل الدقيق والأرز والذرة والدخن، وكان حمال الفرضة يختص بنقل باقي البضائع من صناديق وكراتين.

السقاؤون

كان هؤلاء يقومون بنقل الماء بقرب كبيرة مصنوعة من جلد البقر إلى المنازل، ثم أصبحوا يستخدمون الصفيح الذي سمي (الزفة)، كما استخدموا البراميل المحمولة على ظهور الحمير.

البناؤون

تضم حرفة البناء مجموعة من العمال هم المعلم، والقراري، والمناول، والعامل، والمبيض، والخلاط، والمروج، والنحات، والصنايعية، والطيان.

ومن أشهر البنائين عيسى عبدالعاطي، وجميل الشعراوي، وعلي يماني وتيسير نشار وجميل عبده، وصالح الكركشان.

النجارون

ويقوم النجار بأعمال النحت والنقر على الخشب، وكان أهالي جدة يفتنون في اختيار الأبواب الضخمة السميكة لبيوتهم، كما أبدع النجارون في صناعة النوافذ وقواعد الرواشين وتزيينها بحليات وزخارف من الخشب المنقور، وكان بعضهم يتخصص في صناعة الهوادج. وتميزت أعمال النجارين بأذواق فنية ومعمارية رفيعة.

ومن أشهر النجارين الشيوخ عبدالرحمن تمر، وحسين مغربل، ومحمد بنوي، وأحمد عطية، وسالم شمس، ومحمد شمس، وأحمد إبراهيم عطية.

الخراطون

كانت صناعة الخراطة تقوم على الأخشاب التي تدهن وتنحت بطريقة جميلة، كما عمل الخراط في صناعة حواجز الهوادج، ومن أشهرهم الشيخ محمد باخرية عمدة محلة الشام آنذاك.

السبحية

وهم بائعو السبح و كانت صناعة السبح تعتمد على مادة اليسر، وكان صناع السبح يقومون بهذه الحرفة في حوانيتهم، أو في دهاليز بيوتهم. ومن أشهر ورش صناعة السبح من المرجان الأسود أو اليسر ورشة الناغي، وورشة الزامكة، ووشة دخيل، وورشة الموصلي.

الصاغة

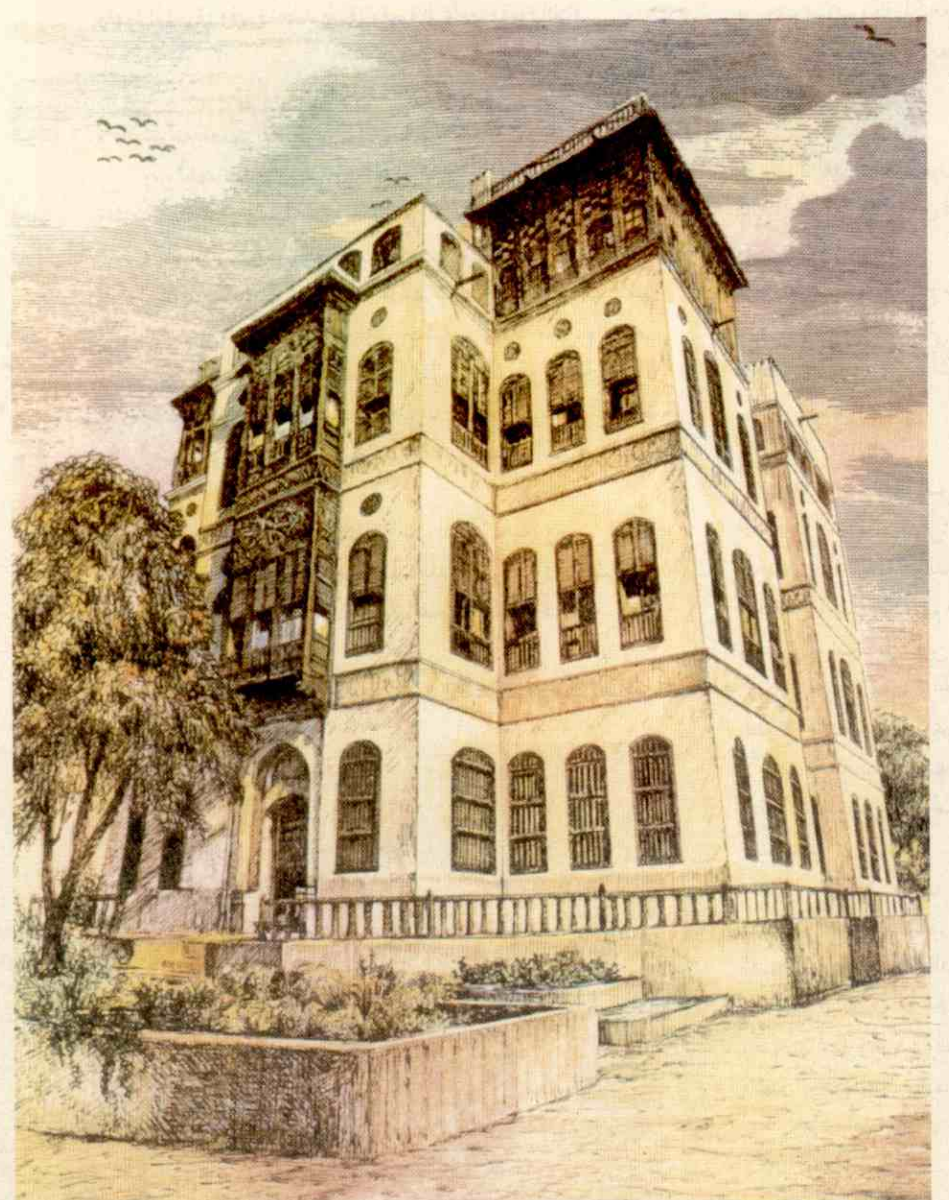
وهم الذين يصوغون الذهب والفضة والبناجر والخواتم والحلقان والرشرش وغيرها من زينات النساء. وكان لهم سوق خاص عرف بسوق الصاغة.

ومن أشهر صاغة مدينة جدة علي با خريبة وعبدالكريم الرشيدي، وأحمد حسن فتيحي وكان شيخهم هاشم عزوز ومن بعده علي عزوز.

ومن الصاغة الذين اشتهروا بصناعة السيوف والخناجر صالح عبدالله، وعلي بن سليمان الحضرمي، وعبد رب النبي عبده، وعبدالشكور الجاوي.

الجواهرجية

وهم الذين يعملون في تجارة المجوهرات بيعًا وشراءً، ومن تجار هذه المهنة ومشايخهم محمد علي زينل، وعبدالغني سليماني وابنه صالح، وناصر



بيت نصيف أحد البيوت العريقة بمدينة جدة ويمتاز بأعماله الخشبية الراقية

آل عبدالوهاب، وحسين عبدالجواد، وعليان الحاشدي، ومحمد صالح محمود، وجميل فارسي.

القماشون

هم العاملون في تجارة القماش. وكانت عملية البيع تتم عن طريق الدلالات أو عن طريق الفواتير، وهي قصاصات من القماش ترسل إلى المنازل للاختيار من بينها.

ومن أشهر تجار الأقمشة الشيوخ عبدالغني الأدلبي، ومحمود إسماعيل، وصادق خجا. ومن شيوخهم عمر عبدالبديع اليافي، وتوفيق السادات وابنه أنيس السادات.

العطارون

كان العطار هو الطبيب المعالج في مجتمع جدة، فكان عنده لكل دواء علاج معين من الأعشاب.

ومن أشهر العطارين محمد فتح الله، ومحمد باديب، وحامد شلبي، وحامد أبو الحمايد، وحسين لمبه، وحسام الدين.

وكان الشيخ محمد فتح الله شيخًا غير رسمي للعطارين بجدة.

الجزارون والرواسون

ترتبط الحرفتان بعضهما ببعض، وكانت الأبقار تستورد من السودان ومنطقة دجالة بالصومال. ومن أشهر الجزارين الشيخ عوض محمد العطيوي، وأحمد بن عمر، وعم فرحات وولده حسن فرحات، وصالح الفل، والبوصيلي، والنونو، وعم حنفي، ومحمد أبو الروس، وحمزة أبو الروس، ومحمد علي كتامورا، ومحمد شلبي، وعلي شلبي، وأسعد دبور.

ومن أشهر شيوخ حرفة الجزارة الشيخ عوض محمد عطيوي، والشيخ حسن محمد فرحات والشيخ علي العطيوي.

أما حرفة الرواسة فهي تقوم مقام المجزر الآلي، وتتضمن عملية الذبح والكشف والسلخ والتكوير.

ومن أشهر الرواسين الحسني، ومحمود باعيسى وولده عمر، وحمودة باعيسى، وعطية إمام، ومصطفى جاكو، وحسن أبو هبيل، ومحمد محجوب، وبكر التكروني وموسى التكروني، وكانت عملية الذبح تتم من دون مقابل مادي، ولكن مقابل الرؤوس والمقادم (الأرجل والأيادي) والبطن، وكانت تباع للمطابخ المتخصصة.

الطباخون

كان تنوع جنسيات سكان جدة سببًا في تعدد أنواع الأطعمة بها، ومن أشهر المطاعم مطعم غالب بالخاسكية، ومن شيوخ الطباخين الشيخ إبراهيم حلواني وعم بكر، وكان موسى تكروني من أشهر الطباخين بالمدينة.

القهوجية

كانت المقاهي تمثل منتديات لـلقاء بين أصحاب الحرف المختلفة، ومن أشهر المقاهي: قهوة الفحم في باب مكة، وقهوة الجمالة بشارع قابل، وقهوة علي يني عند باب البنط، وقهوة أحمد طول وكانت خارج أسوار المدينة، وقهوة الحمارة، وقهوة جميل، وقهوة محمد إبراهيم،

وقهوة المشورة، وقهوة أحمد طيرة، وقهوة الرغامة، وقهوة الفتاق.

المغنون والمطربون

كان الغناء من أبرز الفنون الحجازية، وقد احترفه بعض أهالي جدة، وكان يمارسه بعضهم الآخر كهواية إلى جانب حرفة أخرى.

ومن أشهر المغنين الشيخ إسماعيل كردوس، والشيخ حسن جاوة، واشتهر حسن لبني والسيد أبلاتين بالغناء في الأعراس والحفلات الكبرى.

وكان المغنون يبدؤون إنشادهم بالمجس، وهو مقطع من أربعة أبيات أو أقل لاستثارة حماستهم، وبعد ذلك يبدأ المطرب في الغناء. ومن أشهر المغنين الأستاذ محمد علي سندي، وسعيد أبو خشبة، وعبدالله مكي، والشريف محمد بن شاهين، وطارق عبدالحكيم، والشريف هاشم. وكان الجرامافون الذي أسموه صندوق الغناء يكاد لا يخلو منه بيت من بيوت أثرياء جدة، فكانوا يستمعون من خلاله إلى أسطوانات الأغاني المصرية والسورية واللبنانية والعراقية.

ومن العازفين المشهورين اللبناني نور الدين كوسة، وحسن يحيى ومحمد علي يحيى، وعابد شيخ، ومحمود بغدادي، والزقزوق، ورضا أمين، وعمر باعشن، والسيد أحمد مختار، ووالد عباس خميس، وعم عرفه.

المنشدون

يدخل الإنشاد في باب الغناء، وكان من المعتاد أن كل ركب يتحرك من جدة صوب مكة المكرمة أو المدينة المنورة كان يضم منشداً، ومن أشهر المنشدين برعي مغربل، ومحمد علي كلي، والسيد أحمد جابر، وعرفه الحضري.



«الجزار» لوحة للفنانة صفية بن زقر

المسحراتية

كان أهل جدة يطلقون لقب المسحر على من يدور على البيوت في ليالي رمضان ليوقظ النائمين لتناول طعام السحور. وكان أشهرهم عم محرم، ويحيى حلنقي.

وكان دخول المذياع سبباً في تضاؤل دور المسحراتي. وكان هناك المنادي إلى جانب المسحراتي، وكان ينادي لمقدم شهر رمضان، وينادي على الأطفال المفقودين، ومن أشهر المنادين العم صديق، والعم نوري، ثم العم سيد أبو الجدايل وابنه زين.

حرف قديمة في جدة

هذا هو عنوان الفصل الثالث ويلقي الأضواء على بعض الحرف الأخرى في مدينة جدة مثل: الدباغين والسماسرة، والطحانين، والخرازين، والحدادين، والخياطين، والدخاخنية، وهم بائعو أنواع الدخان والسجائر، والحلاقين وكان بعضهم من أصل تركي أو مصري أو من أهل الشام، والقطانين أو المنجدين، ومن أشهرهم السروجي، ودرويش كيال، وصناع الهودج، وصناع الفخار والجبس، والنحاسين، واللبانة وهم من يبيعون اللبن الطازج ومشتقاته، والصباغين، وكانوا يقومون بتغيير ألوان الأقمشة، وتجار الأحذية، ومعاصر السمسم، والعربجية، وكانوا يقومون بنقل الأشخاص أو المنقولات بواسطة عربات تجرها الدواب مثل الحمير، وكان لهم شيخ يرعى مصالحهم.

وأجرى معد الكتاب لقاءات مع بعض الذين عاشوا في مدينة جدة القديمة قبل أن تشهد التطور الكبير في الوقت الحالي، وكان اللقاء الأول مع الشيخ إسماعيل أبو داود الذي تناول أهم البيوت التجارية في مدينة جدة، وتطرق إلى أساليب حل الخلاف بين التجار، وذكر شيئاً عن بعض المهن وأصحابها مثل المخرجين والصيادين والسقاة والنجارين والبنائين، والحمارة، والمغنين، والفقهاء، والبحارة، والمسحراتية، والخياطين، والطباخين.

وعرف أهم حارات جدة وهي حارات الشام والمظلوم واليمن، وأهم سكان كل واحدة منها.

وتذكر الشيخ أبو داود زملاءه وأساتذته في مدرسة الفلاح.

وكان اللقاء الثاني مع الشيخ محمد علي مغربي الذي سرد ذكرياته القديمة عن الحرف التي كانت موجودة في مدينة جدة وشيوخ هذه الحرفة، وعملية توارثها من جيل إلى آخر. ويذكر أن المحكمة الكبرى أوجدها الملك عبدالعزيز - يرحمه الله - للفصل بين التجار، وكان أول رئيس لها هو الشيخ سليمان قابل ومن أصحاب الحرف الذين ذكرهم الشيخ محمد مغربي مركبو الأسنان والساعاتية والمنجدون ودلالو العقار والعطارون والصاغة.

وتناول الشيخ محمد سعيد متبولي ذكرياته عن الحرف والمهن التي كانت موجودة في جدة، مورداً مشواره مع الدراسة في الكتاب، ومن أصحاب المهن الذين ذكرهم بياعو الفول النابت وبياعو الجراد وبياعو الصحف والحجامون.